ردمد ١٥١٥-٣٥١٥-١٦٥٨
ISSN.1658-3515
رقم الإيداع ١٤٢٨/٢١٩٠



قواعد وشروط النشر

في مجلة تبيان للدراسات القرآنية

- أن يكون البحث متسماً بالأصالة وسلامة الاتجاه.
- أن يكون البحث دقيقاً في التوثيق والتخريج.
- أن تتحقق له السلامة اللغوية.
- مراعاة علامات الترقيم.
- ألا يكون قد سبق نشره.
- ألا يكون مستلاًّ من بحث أو رسالة نال بها الباحث درجة علمية.
- توضع حواشي كل صفحة أسفلها على حدة ويكون ترقيم حواشي كل صفحة مستقلاً، وتضبط الحواشي آليا لا يدوياً .
- علامات الترقيم تعتبر جزء من الكلمة فلا يترك فراغ قبلها.
- تكتب بيانات البحث باللغتين العربية والإنجليزية، وتحتوي على: (عنوان البحث، واسم الباحث والتعريف به، وبيانات التواصل معه).
- لا يتجاوز عدد كلمات الملخص (٢٥٠) كلمة، ويتضمن العناصر التالية: (موضوع البحث، وأهدافه، ومنهجه، وأهم النتائج، وأهم التوصيات) مع العناية بتحريرها بشكل دقيق.
- يُتبع كل ملخص (عربي/ إنجليزي) بالكلمات الدالة (المفتاحية) المعبرة بدقة عن موضوع البحث، والقضايا الرئيسة التي تناولها، بحيث لا يتجاوز عددها (٦) كلمات.
- وضع مسافة بداية كل فقرة لا تزيد على ١ سم.
- المسافة بين السطور متعدد ٩ ,٠ .

- يستخدم خط **(Traditional Arabic)** للغة العربية بحجم (١٨) أبيض للمتن وأسود للعناوين، وبحجم (١٤) أبيض للحاشية والملخص، وبحجم (١٢) أبيض للجداول والأشكال، وأسود لرأس الجداول والتعليق.
- يستخدم خط **(Times New Roman)** للغة الإنجليزية بحجم (١١) أبيض للمتن وأسود للعناوين، وبحجم (١٠) أبيض للحاشية والملخص، وبحجم (٨) أبيض للجداول والأشكال، وأسود لرأس الجداول والتعليق.
- كتابة خاتمة بخلاصة شاملة للبحث تتضمن أهم (النتائج) و(التوصيات).
- تثبت المصادر والمراجع في فهرس يلحق بآخر البحث.
- توضع نماذج من صور الكتاب المخطوط الملحق في مكانها المناسب.
- ترفق جميع الصور والرسوم المتعلقة بالبحث واضحة جلية.
- ألا تزيد صفحات البحث عن ثمانين صفحة (A4) ولا تقل عن عشرين صفحة.
- أن تكون هوامش الصفحة من الأعلى والأسفل واليسار ٥,٢سم ومن اليمين ٥,٣سم.
- تكتب الآيات القرآنية وفق المصحف الإلكتروني لمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بحجم ١٥ بلون عادي (غير مسوَّد).
- يرفق الباحث ملخص باللغة العربية ، **والإنجليزية معتمد من معهد الملك عبد الله للترجمة والتعريب بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض (Trans-tai@imamu-edu-sa.)** لا يزيد على صفحة واحدة.
- تُحكَّم البحوث والدراسات المقدمة للنشر في المجلة من قبل اثنين على الأقل.
- تُعاد البحوث معدلة على البريد الإلكتروني للمجلة.
- لا تعاد البحوث والدراسات إلى أصحابها سواء نشرت أم لم تنشر.
- للمجلة الحق في نشر البحث على موقع الجمعية وغيره من أوعية النشر.

الإلكتروني بعد إجازته للنشر.

- أن تكون المراسلات عبر البريد الإلكتروني للمجلة .
- يُعطى الباحث نسختين من المجلة وخمس مستلات من بحثه.

جميع المراسلات وطلبات الاشتراك باسم : رئيس هيئة التحرير

على النحو التالي: المملكة العربية السعودية – الرياض

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية –كلية أصول الدين – الجمعية العلمية

السعودية للقرآن الكريم وعلومه – مجلة "تبيان" للدراسات القرآنية

ص. ب: ٥٧٠١ الرياض: ١١٤٣٢

هاتف ٢٥٨٢٧٠٥ ، فاكس : ٢٥٨٢٦٩٥

البريد الإلكتروني :

quranmag@gmail.com

الفيس بوك : **www.facebook.com/Quranmag**

تويتر : https://twitter.com/quranmag1

هاتف المجلة: ١١٢٥٨٢٧٠٥(+٩٦٦)

هاتف وفاكس الجمعية: ١١٢٥٨٢٦٩٥(+٩٦٦) – ٠٥٤٦٦٦٧١٤١

موقع الجمعية

www.alquran.org.sa

❋ ❋ ❋

المحتويات

* * *

مقدمة التحرير

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه وأتباعه وكل من اهتدى بهداه، وبعد:

تقدم جمعية تبيان – **الجمعية العلمية السعودية للقرآن الكريم وعلومه** – مجلتها المحكمة في الدراسات القرآنية "**تبيان**" في عددها **الثامن عشر** إلى قرائها، ومحبيها، ومتابعيها.

والمجلة بكتابها وفاحصيها تسعى بهم ومعهم إلى التقدم والرقي بين مثيلاتها من المجلات لتحتل بهم مركزاً مرموقاً ومتميزاً .

فقد أوجدت لجنة إشرافيه عالمية من مشاهير علماء التخصص في موضوعاتها من مختلف بلدان العالم وبخاصة العربي والإسلامي التزاماً بأحد المعايير الدولية للمجلات العلمية .

كما أوجدت نافذة تقنية للباحثين لمتابعة مراحل بحوثهم عبرها، لمعرفة وصولها للمجلة، ومراحل تحكيمها في وصولها للمحكمين وعودتها منهم أو من أحدهم.

وتسعد المجلة أن تقدم في هذا العدد العديد من البحوث المتنوعة لقرائها، من دراسة موضوع **الاستئذان في سورة النور** وما يتعلق به من أحكام وآداب يشعر بالذوق الأخلاقي في الحياة الاجتماعية والرقي الإسلامي في الآداب المرعية .

وتقدم المجلة بحثاً عن **قصة إبراهيم عليه السلام في سورتي البقرة وإبراهيم دراسة موضوعية** تكشف عن ملامح بارزة وجوانب كريمة من تلك القصة العظيمة .

وللسياق أثره في الترجيح بين معاني المشترك اللفظي في القرآن الكريم تبرزه دراسة خاصة تكشف أثره، وتوضح صحيح دلالته.

والنسخ في القرآن الكريم موضوع شهير وكبير من موضوعات علوم القرآن تناولته مؤلفات ودراسات كثيرة وفيرة، ولكن باحثنا اليوم يقدم نظرة تقويمية لمفهوم النسخ عند المتقدمين والمتأخرين تبين وجهة نظره في ذلك .

وتتناول الدراسة الخامسة **دلالة القرآن الكريم على أشراط الساعة الكبرى** في دراسة موضوعية مقارنة ومحققة .

ولشعيب بن إسماعيل الكيالي (ت ١١٧٢ هـ) شرح لقراءة ورش سماه **شرح منحة ذي العرش فيما يتعلق بقراءة ورش**، تقدمه المجلة في ثوب جديد من الدراسة والتحقيق.

وفي هذا العدد بحث لطيف عن **الصفة الكاشفة** يكشف عن هذا الوصف والمصطلح يبين دلالته وأمثلته، وما يتعلق به.

والمجلة دائماً تشكر كتابها والمتعاونين معها، فهي بهم تتقدم، وهي لخدمتهم تسعى وتسعد.

والمجلة تشكر كل من أعانها وساندها، داخل الجامعة وخارجها وتدعو للجميع بالتوفيق والسداد في القول والعلم والاعتقاد.

رئيس هيئة تحرير مجلة تبيان للدراسات القرآنية

أ . د. محمد بن عبد الرحمن الشايع



البحوث

الاستئذان في سورة النور

(دراسة موضوعية)

د. العباس بن حسين الحازمي

الأستاذ المشارك بقسم القرآن وعلومه

كلية أصول الدين - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص بحث

الاستئذان في سورة النور (دراسة موضوعية)

يتكون البحث من مقدمة وتمهيد وثلاثة مباحث

أما المقدمة ففيها بيان أهمية البحث والدراسات السابقة وخطة البحث ومنهجي فيه.

والتمهيد فيه التعريف بسورة النور والتعريف بالاستئذان.

أما المبحث الأول وعنوانه: استئذان المكلفين، وفيه مطلبان، تكلمت في الأول منهما عن الاستئذان عند دخول البيوت المسكونة وفي الثاني عن الاستئذان عند دخول البيوت غير المسكونة .

أما المبحث الثاني فعنوانه : استئذان الأطفال والخدم والمماليك ، وكان الحديث فيه عن الرخصة التي جعلها الله عز وجل لهذه الفئة ، والأدب الذي خصّهم الله به .

أما المبحث الثالث وعنوانه: الاستئذان عند الخروج والمغادرة، وتكلمت فيه عن ضرورة الاستئذان عند إرادة الخروج من المجامع العامة، وأماكن العمل والاجتماعات ونحوها .

ثم الخاتمة ، وفيها لخّصت أهم النتائج والتوصيات .

ثم فهرس المصادر والموضوعات.

Requesting Permission for Entrance in the Qur'anic Chapter of Al-Nour

Al-Abbas H. Al-Hazemy, PhD
Assistant professor, Department of Qur'anic Sciences
Faculty of Islamic Theology, Riyadh

Abstract

This research work consists of an introduction and three sections. The introduction shows the significance of the research, the literature, the research plan, and the present approach. It also introduces the Qur'anic Chapter of Al-Nour and the definition of requesting permission for entrance.

The first topic, entitled ‘requesting permission by the legally qualified adults’, includes two issues. The first focuses on requesting permission when entering inhabited premises, whereas the second focuses on asking for permission when entering uninhabited premises.

The second topic, entitled ‘Asking for permission by children, servants and dependents’, addresses Allah Almighty’s permission for entry for these classes and the proper conduct that Allah commands people to follow in dealing with them.

The third topic, entitled ‘requesting permission for dismissal and departure’, addresses the importance of requesting permission when leaving public places, workplaces, places of meetings and so forth.

The conclusion then follows and it summarizes the paper’s findings and recommendations, with a list of references.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمــة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١].

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧٠ – ٧١].

أما بعد:

فإن الله عز وجل جعل كتابه الكريم هداية للناس، وضمنه من الآداب والأحكام والتوجيهات ما يجعل المسلم سائراً على منهج ربه، ساعياً لمرضاته، متذكراً لعبره وعظاته.

يقول تعالى: ﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَـٰهَا وَفَرَضْنَـٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

[النور: ١].

ومن هنا كانت سورة النور حافلة بجملة من الآداب والأخلاق والأحكام – كتحريم الزنى والقذف، والأمر بغض البصر، والاستئذان والحجاب وغيرها من الأحكام والآداب.

ولما كان أدب الاستئذان أحد الموانع المهمة والحواجز الحصينة التي تمنع وتحجز – بعد توفيق الله – من الوقوع في الفواحش التي حذرت منها هذه السورة العظيمة، رأيت أن أخصه بالحديث، وأفرده بالدراسة مبيناً أهميته وجانباً من أحكامه وآدابه كما بينتها هذه السورة، من خلال دراسة موضوعية.

ورغم الأهمية الكبيرة التي يمثلها هذه الموضوع، والحاجة الماسة إلى عرض هدايات القرآن الكريم تجاهه، إلا أنه ظل بعيداً عن متناول أيدي الباحثين وأقلامهم، سوى بعض الدراسات اليسيرة ومنها دراسة الدكتور محمد الخضيري بعنوان: (آيات الاستئذان في سورة النور) والمنشورة في مجلة الجامعة الإسلامية، العدد (١٥٠)، وقد اقتصر فيها الباحث على الدراسة التحليلية للآيات دون التعرض للتفسير الموضوعي، وهو ما اهتممت به في بحثي هذا.

كما أن البحث المشار إليه لم يستوعب كل آيات الاستئذان الواردة في سورة النور، بخلاف ما صنعته في بحثي، وفي كلٍ خير.

ومن هنا كان هذا البحث بعنوان: **(الاستئذان في سورة النور – دراسة موضوعية)**.

وهو يتكون من مقدمة وتمهيد، وثلاثة مباحث، وخاتمة، وفهارس كاشفة.

أما المقدمة؛ ففيها الحديث عن أهمية الموضوع، وبيان خطتي فيه، ومنهجي في ذلك.

وأما التمهيد، ففيه مطلبان:

- المطلب الأول: التعريف بسورة النور.
- المطلب الثاني: التعريف بالاستئذان.

المبحث الأول: استئذان المكلفين:

وفيه مطلبان:

- المطلب الأول: الاستئذان عند دخول البيوت المسكونة.
- المطلب الثاني: الاستئذان عند دخول البيوت غير المسكونة.

المبحث الثاني: استئذان الأطفال والخدم والمماليك.

المبحث الثالث: الاستئذان في الأمور الجامعة.

الخاتمة.

الفهارس: فهرس المصادر، والموضوعات.

وقد سلكت في دراستي الموضوعية هذه منهج الاستنباط والاستدلال متبعاً المنهج العلمي الآتي في الكتابة:

- عزوت الآيات إلى سورها مكتوبة بالرسم العثماني.
- عزوت النقول والأقوال إلى مصادرها الأصلية.
- خرجت الأحاديث والآثار من مظانها – قدر المستطاع – ناقلاً ما

وجدت من حُكم المتقدمين أو المتأخرين على ما يحتاج منها إلى حكم.

- خلّصت البحث – قدر الإمكان – من تفاصيل المسائل الفقهية التفصيلية، إلا ما كان له صلة وثيقة بالبحث؛ لأن دراستي للاستئذان دراسة موضوعية.

آمل أني توصلت في دراستي هذه إلى ما نويته من إبراز الهدي القرآني في توضيح هذا الأدب العظيم.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الباحث

التمهيـد

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: التعريف بسورة النور.

المطلب الثاني: التعريف بالاستئذان.

المطلب الأول

التعـريـف بسـورة (النـور)

سورة (النور):

- **اسمها: سورة (النور).**

وهذا هو اسمها الوحيد، وليس لها اسم غيره وهو المروي عن الصحابة ﷺ والتابعين رحمهم الله.

فقد روى عن ابن عباس رضي الله عنهما (أنه خطب الناس خطبة لو سمعها الترك والروم لأسلموا، ثم قرأ عليهم سورة النور فجعل يفسّرها)(١).

ووجه تسميتها بذلك – والله أعلم – تكرّرّ ذكر النور فيها، فقد تكـرر فيها سبع مـرات بدءاً من قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النـور: ٣٥] إلى قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠](٢).

ولا تخفى الصلة الوثيقة بين اسم السورة (النور) وبين ما تضمنته من أحكام وآداب وفرائض تورث من تخلّق بها واتبعها وعَمِل بها البصيرة والنور والهداية.

- **عدد آياتها:**

وهي اثنتان وستون آية في العد المدني والمكي، وأربع وستون آية في

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان ١/ ٧٥، وأورده الذهبي في تذكرة الحفـاظ ١/ ٣٤، وابـن حجر في الإصابة ٢/ ١٤٥.

(٢) انظر: أسماء سور القرآن الكريم، د. محمد الشايع ص٩٨، وجزء في أسـماء سـور القـرآن، د. محمد البراك ١٠٤.

العد البصري والكوفي والشامي[(١)].

- **مكان نزولها:**

سورة (النور) متفق على نزولها بالمدينة.

ويدل لذلك:

- ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما وابن الزبير رضي الله عنهما "أن سورة النور نزلت بالمدينة"[(٢)].

- **ترتيبها:**

في المصحف بين سورتي (المؤمنون) و(الفرقان).

وبحسب النزول بعد نزول سورة النصر وقبل نزول سورة الحج[(٣)].

- **مما ورد في فضلها:**

عن أبي عطية قال: "كتب إلينا عمر ﷺ أن علموا نساءكم سورة النور"[(٤)].

وعن أبي وائل "أن علي بن أبي طالب ﷺ استعمل ابن عباس رضي الله عنهما على الموسم فخطب خطبة لو سمعتها الديلم لأسلمت، ثم قرأ

---

(١) انظر: البيان في عد آي القرآن ١/ ١٩٣، وبصائر ذوي التميز ١/ ٢٣٥، والفرائد ٤٥، وجمال القراء ١/ ٢٠٩.

(٢) أخرج الأثر عن ابن عباس ابن الضريس في فضائل القرآن ٣٤، والنحاس في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٥٣٧، وانظر: المكي والمدني من السور والآيات، د. محمد الفالح، ص١٥٨.

(٣) انظر: فضائل القرآن لابن الضريس، ص٣٤.

(٤) أخرجه أبو عبيد في الفضائل ص٢٥٠، وانظر: جمال القراء ١/ ٦٦، والدر المنثور ١٠/ ٦٣٢.

عليهم سورة النور"[١].

- **موضوع السورة ومحورها:**

يتركز الحديث في هذه السورة العظيمة على جملة من الآداب الاجتماعية، وتربية المجتمع المسلم عليها، وصيانة الأعراض في المجتمع المسلم وحمايتها[٢].

- **موضوعات السورة الرئيسة:**

تبعاً لموضوع السورة ومحورها الرئيس جاء موضوعات السورة ومحاورها، ومن أهم موضوعات السورة:

- الحماية من جريمة الزنى والقذف، وجاء ذلك عبر مجموعة من الحصون والموانع؛ كالاستئذان وغض البصر والحدود.
- أثر امتثال أمر الله والبعد عن المعاصي والجرائم في تنوير البصائر.
- حث المؤمنين على العبادة والتقرب إلى الله في كل وقت.
- ذكر بعض الآداب المتعلقة بالبيوت كالأكل والزيارة ونحوها من طاعة ذي السلطان فيها.
- ذم المنافقين وأهل الأهواء، والتحذير من سوء طويتهم[٣].

(١) أخرجه أبو عبيد في الفضائل ص٢٥٠، وانظر: جمال القراء ١/ ٦٦.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية ١٥/ ٢٨٢، والتحرير والتنوير ١٨/ ١٤٠، والتفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم ٥/ ١٦٨.

(٣) انظر: المصادر السابقة.

- **المناسبة بين سورة النور وسورة المؤمنين التي قبلها:**

ظاهرة جلية، وذلك أن الله عز وجل أثنى على المؤمنين في السورة السابقة بأنهم ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [المؤمنون: ٥].

وبين في هذه السورة كيفية حفظ المؤمن لفرجه عن الحرام، وذلك بغض البصر، والاستئذان، والاكتفاء بالنكاح الذي أحلّه الله عز وجل[١].

وكذلك تظهر المناسبة بين سورة النور وسورة الفرقان التي جاءت بعدها، حيث أمر الله عز وجل عباده في سورة النور باتباع النبي ﷺ وامتثال أمره، وأثنى في مطلع سورة الفرقان على النبي ﷺ.

كما أن سورة النور ختمت ببيان سعة علم الله تعالى وشمول اطلاعه على أحوال عباده، وافتتحت سورة الفرقان بإثبات العلو والعظمة لصفاته سبحانه وتعالى[٢].

---

(١) انظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم ٥/ ١٧١.

(٢) انظر: المصدر السابق.

المطلب الثاني

التعـريـف بالاستئـذان

- **الاستئذان لغة:**

استفعال من: أَذِنَ: وهو في اللغة يأتي على معان، منها:

- عَلِم، ويتعدى بالباء: أذِن بالشيء: علم به.
- استمع، ويتعدى باللام وإلى، أذِن إليه وله: استمع إليه.
- أباح، ويتعدى بالباء وباللام: أذن له وبه: أباحه له[١].

قال ابن فارس: "... والأصل الآخر، العِلم والإعلام. تقول العرب: قد أذنت بهذا الأمر أي: علمت، وآذنني فلان: أعلمني والمصدر: الأَذْن والإيذان"[٢].

وفي القاموس: "... وأَذِنَ له في الشيء – كسمِع – إذناً – بالكسر – وأذيناً: أَبَاحَهُ له. واستأذنه: طلب منه الإذن..."[٣].

وفي القاموس الفقهي: "الإذن لغة: الإعلام بإجازة الشيء والرخصة فيه"[٤].

- **الاستئذان اصطلاحاً:**

يعبر عن الاستئذان بألفاظ أخرى مثل:

الإذن: "وهو فك الحَجْر، وإطلاق التصرف لمن كان ممنوعاً

(١) انظر: معجم مقاييس اللغة – أذن ص٦٥، والكليات – أذن ص٧٢.

(٢) معجم مقاييس اللغة – أذن ص٦٥.

(٣) القاموس المحيط – أذن ص١١٧٥.

(٤) القاموس الفقهي ص١٩.

شرعاً"[1].

والاستئذان: "طلب الإذن، أو طلب إباحة التصرف ممن له حق الإباحة"[2].

وعلى هذا يكون تعريف الاستئذان الذي هو لدخول البيوت:

طلب الإذن للدخول ممن له حق الإذن والإباحة.

وعَرّفه في القاموس الفقهي:

"طلب الإذن في الدخول لمحل لا يملكه المستأذن"[3].

(١) التعريفات للجرجاني ص١٥، وانظر: التوقيف على مهمات التعاريف ص٤٧، ومعجم لغة الفقهاء ص٥٢.

(٢) معجم لغة الفقهاء ص٥٣.

(٣) القاموس الفقهي ص١٩.

المبحث الأول

استئـذان المكلفـين

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الاستئذان عند دخول البيوت المسكونة.

المطلب الثاني: الاستئذان عند دخول البيوت غير المسكونة.

المطلب الأول

الاستئذان عند دخول البيوت المسكونة

جاءت مقدمة آيات الاستئذان في سورة النور وهي قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ﴾ [النور: ٢٧].

عقب آيات النهي عن الزنى وبيان العقوبة المترتبة عليه.

والمتأمل في مقدمة سورة (النور) يجد أن الله عز وجل لما نهى عن الزنى وحرمه وبين الحد المترتب عليه والعقوبة الرادعة عنه، وحرم كذلك القذف واتهام الأبرياء به، شرع لنا أموراً ثلاثة متدرجة تقي من الوقوع في الزنى والتهمة به، وتحمى المؤمن من التلطخ بتلك الرذيلة، وأول تلك الموانع والحواجز: الاستئذان وقد جاء الأمر به في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ﴾ [النور: ٢٧].

وتبعه المانع الثاني وهو غض البصر وحفظه، وقد جاء الأمر في قوله تعالى: ﴿ قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ٣٠ وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ ﴾ [النور ٣٠، ٣١].

ثم جاء المانع الثالث –وهو أشملها وأعلاها وأهمها– وهو النكاح، وقد جاء الأمر في قوله تعالى: ﴿ وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ

وَإِمَآئِكُمۡۚ ﴾ [النور: ٣٢].

ويُعَد استئذان المكلفين عند دخول البيوت التي يوجد أهلها فيها أهم مراتب الاستئذان، وقد قدّمه الله عز وجل في آيات الاستئذان في سورة النور في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [النور: ٢٧].

- **صلة الآية بما قبلها:**

ولذلك كان الاستئذان قبل دخول هذه البيوت من أسباب الوقاية والحماية من إطلاع البصر على ما لا يجوز، وما يؤدي إليه ذلك من وقوع الفاحشة أو الاتهام بها[(١)].

وذكر ابن تيمية رحمه الله مناسبة أخرى لطيفة فقال:

"... وكما يتناول غض البصر عن عورة الغير وما أشبهها من النظر إلى المحرمات، فإنه يتناول الغض عن بيوت الناس، فبيت الرجل يستر بدنه كما تستره ثيابه، وقد ذكر سبحانه غض البصر وحفظ الفرج بعد آية الاستئذان، وذلك أن البيوت سُتْرة كالثياب التي على البدن..."[(٢)].

ويذكر النيسابوري في تفسيره مناسبة بين الأمر بالاستئذان والوقاية من الفواحش فيقول: "لما كانت الخلوة طريقاً إلى التهمة، ولذلك وجد أهل الإفك سبيلاً إلى إفكهم شرع أن لا يدخل المرء بيت غيره إلا بعد

(١) انظر: التفسير الكبير ٢٣/ ١٩٧، ونظم الدرر ١٣/ ٢٤٨، وانشراح الصدور ١٣٦، والتفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم ٥/ ٢٠٥.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٥/ ٣٧٩.

الاستئذان"[1].

ولذلك كانت هذه المرتبة من مراتب الاستئذان ألصق صور الاستئذان ومراتبه بالسورة وموضوعاتها والحكمة منه؛ أنه – كما ذكرت سابقاً – من أن الاستئذان يعد مانعاً وحاجزاً يحجز عن الوقوع في الزنى وعن التهمة به. وهذا المحظور مُتَصّور في الدخول إلى البيوت التي يقطنها أهلها بلا استئذان وإن كان هذا المحظور غير منتفٍ بالمرة في الصور والمراتب الأخرى.

- **سبب نزول الآية:**

وقد روُي في سبب نزول هذه الآية حديث عدي بن ثابت رحمه الله أنه قال: (جاءت امرأة من الأنصار إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إني أكون في منزلي على الحال التي لا أحب أن يراني أحد عليها؛ لا والد ولا ولد، وإنه لا يزال يدخل عليّ رجل من أهلي وأنا على تلك الحال. قال: فنزلت: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ ﴾ [النور: ٢٧][2].

والأثر السابق الوارد في سبب نزول هذه الآية – على فرض صحته – يدل على وجوب الاستئذان في حُجَر البيت الواحد على الكبار من المحارم

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٥/ ٤٩٢.

(٢) الحديث: أخرجه الطبري في تفسيره ١٧/ ٢٤٢، والواحدي في أسباب النزول ٥٢٥، وفيه أشعث به سوار ضعفه ابن حجر في تقريب التهذيب ٥٢٨،وعدي بن ثابت تابعي حديثه مرسل انظر: تقريب التهذيب ٤٥٧١، وانظر: آيات الاستئذان ص٥٥.

بعضهم على بعض[1].

ومما يؤيد هذا الفهم جملة من الأحاديث والآثار ساقها السيوطي في الدر المنثور نذكر بعضها فيما يلي:

عن عطاء بن يسار: "أن رجلاً قال يا رسول الله أستأذن على أمي؟ قال: نعم قال إني معها في البيت. قال: استأذن عليها قال: إني خادمها، أفأستأذن عليها كلما دخلت؟ قال: أتحب أن تراها عُريانة؟ قال: لا. قال فاستأذن عليها"[2].

وعن حذيفة ﷺ: "أنه سُئل: أيستأذن الرجل على والدته؟ قال: نعم، إن لم تفعل رأيت منها ما تكره"[3].

وعن عطاء: "أنه سأل ابن عباس رضي الله عنهما: أستأذن على أختي؟ قال: نعم، قلت: إنها في حجري، وإني أنفق عليها، وإنها معي في البيت، أستأذن عليها؟ قال: نعم. إن الله يقول: ﴿لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ﴾ [النور: ٥٨]، فلم يؤمر هؤلاء بالإذن إلا في هؤلاء

(١) ولهذا عنونت المبحث الأول من هذا البحث: استئذان المكلفين.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ١٧/ ٢٤٥، ومالك في الموطأ ٢/ ٩٦٣، من طريق صفوان، والبيهقي في السنن ١٤/ ٦٠ برقم (١٣٦٨٩)، وقال ابن عبد البر في التمهيد: ١٦/ ٢٢٩: (وهذا الحديث لا أعلم يستند من وجه صحيح بهذا اللفظ. وهو مرسل صحيح مجتمع على صحة معناه).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ٩/ ٤٦٤ برقم (١٧٨٩١)، والبخاري في الأدب المفرد (١٠٩٢)، وحسنه الألباني في صحيح الأدب المفرد ص٢٩٤، وأخرجه كذلك البيهقي في السنن ١٤/ ٦٠ برقم (١٣٦٨٨).

العورات الثلاث قال: ﴿ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [النور: ٥٩]، فالإذن واجب على خلق الله أجمعين"[١].

وعن ابن مسعود ﷺ قال: "عليكم إذن على أمهاتكم"[٢].

وفي رواية: "أن رجلاً سأله: أأستأذن على أمي؟ فقال: نعم ما على كل أحيانها تحب أن تراها"[٣].

وبعد هذه الجولة في هذه الآثار يتبين لنا هنا أن الأمر بالاستئذان في هذه الآيات من [٢٧ – ٢٩] في سورة النور يشمل من كان خارج البيت ومن كان داخله – أي: في غُرَفِه وحُجَره – ويشمل الأجانب كما يشمل الأرحام والمحارم والأقارب.

وأن هذا العموم كما نفهمه من هذه الآيات والأحاديث، نفهمه كذلك من قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [النور: ٥٩].

فإنها جاءت عقب الأمر باستئذان الصغار والمماليك في الأوقات الثلاثة المذكورة هناك، واستئذانهم ذلك إنما يكون في الغالب داخل حُجَر

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١٠٩٦)، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد ص٢٩٥، وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٨/ ٢٦٣٧ بنحوه.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ٩/ ٤٦٥ برقم ١٧٨٩٦، والطبري في جامع البيان ١٧/ ٢٤٥، والبيهقي في السنن الكبرى ١٤/ ٥٩ برقم (١٣٦٨٧)، وأخرجه في التمهيد ١٦/ ٢٣٢ عن سنيد.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ٩/ ٤٦٤ برقم (١٧٨٩٣)، والبخاري في الأدب المفرد (١٠٩١)، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٢٩٤).

البيت الواحد، فلما بلغوا الحلم أمرهم الله بالاستواء مع الكبار في الاستئذان العام الواجب عليهم.

وهو يشمل ما كان واجباً عليهم من قبلُ، إضافة إلى ما وجب على الكبار.

وقد يشكل على هذا ما فهمه بعض المفسرين من قوله تعالى: ﴿غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ فإنه يدل على عدم اشتراط الإذن لدخول المرء بيت نفسه الذي يسكنه.

يقول ابن العربي رحمه الله: "هذا الإذن في دخوله بيتاً غير بيته..."[1].

ويقول أيضاً: "هذا كله – يعني أحكام الاستئذان – في بيت ليس لك، فإما بيتك الذي تسكنه فإن كان فيه أهلك فلا إذن عليها، إلا أنك تُسَلّم إذا دخلت"[2].

واستثنى هؤلاء كون أمه أو أخته – أو إحداهما – تسكنان معه، فيستأذن عليهما.

وعند الجمع بين نصوص الآيات والأحاديث الدالة على الأمر بالاستئذان والحث على غض البصر، وبيان أن الحكمة في الأمر بالاستئذان إنما كانت من أجل البصر، والتأمل في تلك النصوص يتضح أنه يدخل في عمومها وجوب استئذان البالغين من الذكور والإناث إذا أرادوا الدخول على أهليهم من الرجال والنساء في جميع الأوقات. وأن المرء ممنوع من

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ٣٧٣.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ٣٧٣، وانظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٥/ ١٩٧.

الدخول على أمه وأخته وبنيه وبناته البالغين وكذا سائر محارمه إلا باستئذان؛ لأن المحذور المترتب على دخول بيوت الغير بلا إذن موجود هنا، ولأنه لم يستثن من عموم الأمر إلا المماليك والأطفال دون البلوغ في الأوقات المذكورة[١].

قال ابن حجر في بيان معنى حديث: "إنما جعل الاستئذان من أجل البصر"[٢]: "ويؤخذ منه أنه يشرع الاستئذان على كل أحد حتى المحارم، لئلا تكون منكشفة العورة". وقد أخرج البخاري في الأدب المفرد عن نافع: "كان ابن عمر رضي الله عنه إذا بلغ بعض ولده الحلم لم يدخل عليه إلا بإذن"[٣].

وساق عدداً من الآثار في اشتراط الإذن للدخول على الأم والأخت، ثم قال: "أسانيد هذه الآثار كلها صحيحة"[٤].

ويحسن هنا الإشارة إلى تنبيه مهم أشار إليه الآلوسي في تفسيره مبيناً الحكمة من إضافة البيوت إلى المخاطبين في قوله تعالى: ﴿بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ وأن تلك الإضافة لإرادة اختصاص السكنى لا الاختصاص المِلْكي؛ فإن مالك البيت يمكن أن يؤجره أو يعيره، وعندئذٍ لا يضاف إليه،

---

(١) انظر: انشراح الصدور في تدبر سورة النور ص٣٣٧، وآيات الاستئذان في سورة النور ص٧٦.

(٢) أخرجه: البخاري في صحيحه رقم (٦٢٤١).

(٣) فتح الباري ١١/ ٣٠، والأثر: أخرجه البخاري في الأدب المفرد برقم ١٠٩٠، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد ص٢٩٤.

(٤) فتح الباري ١١/ ٣٠.

ولا يحق له الدخول إلا بإذن ساكنه[1].

ويدخل فيه حُجَر البيت الواحد التي ربما تسكنها الأم أو الأخت أو سواهما، فهي وإن كانت داخلة في ملك صاحب البيت إلا أن الاختصاص السكني فيها كائن لساكنها ممن ذكرت ونحوه.

وأمام هذه الأهمية القصوى لهذا الخلق (الاستئذان) تعالوا بنا نطلّع على الكيفية التي علمنا الله عز وجل ورسوله ﷺ أن نؤديه عليها.

يقول الله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ﴾ [النور: ٢٧].

ولأهل التفسير في معنى كلمة "تستأنسوا" أقوال منها:

١- تستأذنوا[2].

٢- تؤنسوا أهل البيت بالتنحنح ونحوه[3].

قال الطبري: "والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: إن الاستئناس الاستفعال من الأنس، وهو أن يستأذن أهل البيت في الدخول عليهم، مخبراً بذلك من فيه، وهل فيه أحد، وليؤذنهم أنه داخل عليهم، فيأنس إلى إذنهم له في ذلك، ويأنسوا إلى استئذانه إياهم..."[4].

(١) انظر: روح المعاني للآلوسي ١٨/ ١٩٦.

(٢) انظر: جامع البيان للطبري ١٧/ ٢٣٩، وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ٣٧١، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٥/ ١٨٨،.

(٣) انظر: جامع البيان للطبري ١٧/ ٢٤٣.

(٤) جامع البيان للطبري ١٧/ ٢٤٦.

ومن الكناية اللطيفة في هذا التعبير أن الداخل المستأذن يطلب إذناً لا يكون معه استيحاش صاحب المنزل بالداخل إليه، أو أنه حين يطرق بيت غيره لا يدري هل يؤذن له أم لا؟! فيكون كالمستوحش من خفاء الحال عليه[(١)].

وحتى يؤدي ذلك الاستئذان إلى الاستئناس وعدم الاستيحاش جاء في السنة بيان صيغته وصفته تفصيلاً لما جاء في القرآن من قول الله جل وعلا: ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النور: ٢٧].

وأرجح تلك الصيغ والأساليب، هي قول المستأذن: السلام عليكم، أأدخل، للآية السابقة، ولأحاديث منها:

- حديث ربعي بن حراش "أن رجلاً من بني عامر استأذن على رسول الله ﷺ فقال: أألج؟ فقال: النبي ﷺ لخادمه: أخرج إلى هذا فعلّمه الاستئذان فقال له: قل: السلام عليكم أأدخل. فسمعه الرجل فقال: السلام عليكم أأدخل؟ فأذن له النبي ﷺ فدخل"[(٢)].
- وحديث كلْدة بن الحنبل أن صفوان بن أمية رضي الله عنه بعثه إلى النبي ﷺ قال: "فدخلت على النبي ﷺ ولم أسلّم ولم أستأذن فقال ﷺ: ارجع فقل: السلام عليكم أأدخل"[(٣)].

---

(١) انظر: روح المعاني للآلوسي ١٨/ ١٩٧، والتحرير والتنوير ١٨/ ١٩٧.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه ٤/ ٣٤٥ برقم (٥١٧٧)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبو داود ٣/ ٢٧١.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٢٤/ ١٥١ برقم (١٥٤٢٥)، وأبو داود في سننه ٤/ ٣٤٤ =

وقد وردت أقوال أخرى في كيفية الاستئذان هذا أرجحها.

وقد جاء في الآية الاستئذان مقدماً على السلام ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا﴾، والواو فيها تقتضي مجرد العطف لا الترتيب، وقد بينت السنة هذا الإجمال وشرحته.

يقول الإمام الطبري: "... وهو من المقدم الذي معناه التأخير، إنما هو: حتى تسلّموا وتستأذنوا..."(1).

- **حكم الاستئذان:**

ومن هذه الآية الكريمة، وسائر النصوص النبوية التي قدمنا بعضاً منها يتضح لنا أن الاستئذان واجب في حق المكلفين عموماً، واجب في الأوقات الثلاثة في حق غيرهم(2) كما سيتضح في المطالب اللاحقة.

واختُلِف في السلام الذي يسبقه، فقيل: واجب، وقيل: سنة(3).

قال الطاهر ابن عاشور: "ظاهر الآية أن الاستئذان واجب، وأن السلام واجب غير أن سياق الآية لتشريع الاستئذان، وأما السلام فقد

=

برقم (٥١٧٦)، والترمذي في جامعه ٥/ ٦٤ برقم (٢٧١٥)، والنسائي في سننه ٤/ ١٦٩ برقم (٦٧٣٥)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبو داود ٣/ ٢٧٠.

(١) جامع البيان للطبري ١٧/ ٢٤٦، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٥/ ١٩٠، وانظر: آيات الاستئذان في سورة النور ص٧٠.

(٢) انظر: جامع البيان للطبري ١٧/ ٢٤٦، وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ٣٧١.

(٣) انظر: أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ٣٧١.

تقررت مشروعيته من قبل..." [١].

قال صاحب الفواكه الدواني: "الاستئذان: – وهو طلب الإذن بدخول غير بيته – واجب على مريد الدخول وجوب الفرائض، دل على وجوبه الكتاب والسنة والإجماع... فمن تركه فهو عاص لله ورسوله"[٢].

وفي حاشية الصاوي على الشرح الصغير: "والاستئذان واجب بالإجماع"[٣]، وقال النووي: "أجمع العلماء أن الاستئذان مشروع، وتظاهرت به دلائل القرآن والسنة وإجماع الأمة"[٤].

- **الحكمة منه:**

وقد بيّنا سابقاً الحكمة في ذكر آيات الاستئذان في هذا الموضع من السورة، وأنها أحد الموانع والحواجز من الوقوع في فاحشة الزنى أو التهمة به.

بقي أن نذكر هنا الحكمة العامة من الاستئذان.

يقول ابن العربي رحمه الله: "اعلموا – وفقكم الله – أن الله سبحانه وتعالى خصص الناس بالمنازل وسترهم فيها عن الأبصار، وملّكهم الاستمتاع بها على الانفراد، وحجر على الخلق أن يطلعوا على ما فيها من خارج أو يَلجُوها بغير إذن أربابها؛ لئلا يهتكوا أستارهم، ويُبْلُوا في

(١) التحرير والتنوير ١٨/ ١٩٨.

(٢) الفواكه الدواني ٢/ ٤٢٦.

(٣) حاشية الصاوي على الشرح الصغير ١١/ ٢٨٣.

(٤) المنهاج شرح صحيح مسلم ص١٦١٤.

أخبارهم"[1].

والله عز وجل قد امتن على خلقه بقوله: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ [النحل: ٨٠].

ولا يكتمل السكن في البيوت إلا بسكون الأرواح، واطمئنان النفوس فيها، والأمن على العورات والحرمات، وإنما يتحقق ذلك بالاستئذان عليهم فيها[2].

وقد أجمل الله عز وجل تلك الحكمة بقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النور: ٢٧]، ففي الاستئذان الخير والنفع لكم، وإنما يعلم هذا ويؤمن به المتدبر المتذكر[3].

ووجه الصلة بين الاستئذان والسلام حتى يجمع بينهما في هذا الأدب العظيم والخلق القويم؛ أنه بالسلام يحصل تمام الاستئناس والألفة المقصودة لحصول الإذن وتيسّره؛ ولذلك قدمه عليه في الواقع[4].

- **حكم دخول البيوت الخالية عن أهلها:**

يقول تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٨].

وهذه البيوت المنهي عن دخولها إلا بإذن أهلها هي ذات البيوت

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ٣٦٩.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٥/ ١٨٧، وآيات الاستئذان في سورة النور ٥٤.

(٣) انظر: التحرير والتنوير ١٨/ ١٩٨.

(٤) انظر: المصدر السابق ١٨/ ١٩٨.

المذكورة في الآيات السابقة سواء كانت بيوتاً مستقلة، أو الحجر المخصصة لأصحابها في البيت الواحد. فإنه كما لا يجوز الدخول عليه إلا بإذنه فإنه لا يجوز الدخول إلى حجرته في غيابه إلا بإذنه.

ووجه اشتراط الإذن في الدخول إلى البيوت الخالية عن أهلها، منع القيل والقال، ومنع التصرف بملك الغير بغير رضاه(١).

وأيضاً ربما حصل من ذلك الدخول في حال غيبته الإطلاع على بعض أسراره التي لا يحب أن يطلع عليها أحد غيره.

يقول ابن عاشور: "وأما قوله: ﴿ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدًا ﴾[النور: ٢٨] للاحتراس من أن يظن ظان أن المنازل غير المسكونة يدخلها الناس في غيبة أصحابها بدون إذن منهم؛ توهماً بأن علة شرع الاستئذان ما يكره أهل المنازل من رؤيتهم على غير تأهب. بل العلة هي كراهتهم رؤية ما يحبون ستره من شؤونهم..."(٢).

قال الكاساني: "وسواء كان السَّكَنُ في البيت أو لم يكن لقوله تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴾ [النور: ٢٨]، وهذا يدل على أن الاستئذان ليس للسكان أنفسهم خاصة بل لأنفسهم ولأموالهم؛ لأن الإنسان كما يتخذ البيت ستراً لنفسه، يتخذه ستراً لأمواله، وكما يكره إطلاع الغير على نفسه يكره إطلاعه على أمواله"(٣).

---

(١) انظر: روح المعاني ١٨/ ٢٠١.

(٢) التحرير والتنوير ١٨/ ٢٠١.

(٣) بدائع الصنائع ٥/ ١٢٤.

- **كيفية الإذن وعدمه:**

يقول تعالى: ﴿ فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ ﴾ [النور: ٢٨].

كما بينت الآيات السابقة أن الاستئناس الحاصل من صاحب الدار حامل لصاحبه على الإذن، بينت السنة النبوية كذلك أن الاستئذان ثلاث مرات، فإن أُذن له وإلا انصرف.

لحديث أبي موسى الأشعري ﷺ: "أنه استأذن على عمر ﷺ ثلاثاً فلم يؤذن له. ثم انصرف. فقال عمر: ألم أسمع صوت عبد الله بن قيس يستأذن؟ ائذنوا له. فطلبوه فوجدوه قد ذهب. فلما جاء بعد ذلك، قال: ما رَجَعَك؟ قال إني استأذنت ثلاثاً فلم يؤذن لي، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فلينصرف..."(١) الحديث.

قال قتادة رحمه الله: "هو الاستئذان ثلاثاً، من لم يؤذن له فليرجع، أما الأولى فليسمع الحي، وأما الثانية فليأخذوا حذرهم، وأما الثالثة فإن شاؤا أذنوا وإن شاؤا ردوا. ولا تقفن على باب قوم ردوك عن بابهم، فإن للناس حاجات ولهم أشغال، والله أولى بالعذر"(٢).

ومجموع نصوص الآيات والأحاديث والآثار الواردة في الاستئذان تفيد أن "الاستئذان يقتضي إذناً ومنعاً وسكوتاً"(٣).

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الاستئذان برقم (٢٠٦٢).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره برقم (١٤٣٤٧)، والبيهقي في شعب الإيمان ٥/ ٣٩.

(٣) التحرير والتنوير ١٨/ ١٩٩.

فالإذن بقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴾ [النور: ٢٨].

والسكوت كما في حديث أبي موسى الأشعري ﷺ السابق وغيره.

والمنع كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْ ﴾ [النور: ٢٨].

قال قتادة: "قال بعض المهاجرين: لقد طلبت عمري كله هذه الآية فما أدركتها: أن أستأذن على بعض إخواني، فيقول لي: ارجع، فأرجع وأنا مغتبط لقول الله تعالى: ﴿ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [النور: ٢٨]"[(١)].

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ١٧/ ٢٥١، وانظر: تفسير ابن كثير ٦/ ٢٤٩٠.

المطلب الثاني

الاستئذان لدخول البيوت غير المسكونة

يقول الله تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [النور: ٢٩].

مناسبة الآية لما قبلها:

لما بين الله عز وجل في الآيات السابقة اشتراط الإذن لدخول البيوت التي يسكنها أهلها، سواء كانوا فيها عند الاستئذان أو ليسوا فيها، بيّن في هذه الآية عدم اشتراط الإذن لدخول البيوت غير المعدة للسكن والإقامة أو غير المختصة بسكنى أحدٍ بعينه.

قال ابن كثير: "هذه الآية الكريمة أخص من التي قبلها، وذلك أنها تقتضي جواز الدخول إلى البيوت التي ليس فيها أحد إذا كان لكم فيها متاع، بغير إذن..."[(١)].

- **سبب النزول:**

وقد جاء في سبب نزول هذه الآية:

أنه عندما نزلت الآية السابقة: " ﴿ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [النور: ٢٨] قال أبو بكر الصديق ﷺ: يا رسول الله: أفرأيت

(١) تفسير ابن كثير ٦/ ٢٤٩١، وانظر: التفسير الكبير ٢٣/ ٢٠١.

الخانات والمساكن في طريق الشام ليس فيها ساكن، فأنزل الله تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [النور: ٢٩]"[1].

القول بالنسخ والتخصيص بهذه الآية:

جاء النهي في آية: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [النور: ٢٧] عامًّا عن دخول بيت غير بيت الإنسان إلا بإذن.

ثم أذن الله في هذه الآية بدخول نوع من البيوت بلا استئذان، فَعُدّ ذلك عند البعض نوعاً من النسخ أو التخصيص أو الاستثناء.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما: "قال الله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ۚ ﴾ [النور: ٢٧] واستثنى من ذلك فقال: ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ ۚ ﴾ [النور: ٢٩]"[2].

وقد روي مثل هذا القول بالنسخ والاستثناء عن عكرمه والحسن[3].

---

(١) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص(٥٢٥)، وأورده السيوطي في الدر المنثور ١١/ ١٦، وعزاه لابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١٠٨٨)، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٨١١)، وأخرجه الطبري في جامع البيان ١٧/ ٢٤٢، والنحاس في ناسخه ص٥٨٦، ٥٨٧، وذكره السيوطي في الدر المنثور ١١/ ١٦ وعزاه لأبي داود في الناسخ.

(٣) أخرجه الطبري عن عكرمه ١٧/ ٢٥٣، وانظر: تفسير ابن كثير ٦/ ٢٤٩١، وروح =

والحق أنه ليس في الآية نسخ ولا استثناء.

يقول الطبري: "وليس في قوله: ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ ﴾ [النور: ٢٩] دلالة على أنه استثناء من قوله: ﴿ لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا ﴾ [النور: ٢٧]؛ لأن قوله: ﴿ لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ [النور: ٢٧] حكم من الله في البيوت التي لها سكان وأرباب وقوله: ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ ﴾ [النور: ٢٩] حكم منه في البيوت التي لا سكان لها ولا أرباب معروفون، فكل واحد من الحُكْمين حكم في معنى غير معنى الآخر، وإنما يستثنى الشيء من الشيء إذا كان من جنسه أو نوعه في الفعل أو النفس، فإذا لم يكن كذلك فلا معنى لاستثنائه منه"(1).

ولعل مراد من قال بالنسخ أو الاستثناء هو التخصيص كما قال ابن كثير "هذه الآية أخص من التي قبلها"(2).

وهذا هو الذي رجحه جمهور المفسرين(3).

= المعاني ١٨/ ٢٠٢.

(١) جامع البيان للطبري ١٧/ ٢٥٣، ٢٥٤.

(٢) تفسير ابن كثير ٦/ ٢٤٩١.

(٣) انظر: التفسير الكبير للرازي ٢٣/ ٢٠١، وروح المعاني ١٨/ ٢٠٢، والتحرير والتنوير ١٨/ ٢٠١.

- **المراد بالبيوت غير المسكونة:**

وقد اشترط الله عز وجل لدخول هذا النوع من البيوت شرطين:

الأول: أن تكون غير مسكونة.

الثاني: أن يكون لكم فيها متاع.

وفي المراد بكونها غير مسكونة للمفسرين كلام طويل، مداره على الأقوال التالية:

الأول: الخانات والبيوت المبنية بالطرق التي ليس لها سكان معروفون، وإنما يأوي إليها المسافرون والمارّة، ويحفظون فيها أمتعتهم[١].

الثاني: الأسواق والحوانيت ومخازن التجار التي فيها أمتعة الناس وبضائعهم[٢].

الثالث: الخلاء، والبيوت الخَرِبَة التي يقضي الناس فيها حاجاتهم[٣].

الرابع: بيوت مكة[٤].

والراجح من هذه الأقوال في معنى الآية:

"أنها تعم كل بيت لا ساكن له، مستقر فيه، فمعنى ﴿غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ﴾ غير مأهولة على حالة الاستقرار، أو غير مأهولة البتة"[٥].

---

(١) انظر: جامع البيان للطبري ١٧/ ٢٤٩ وهو مروي عن محمد بن الحنفية وقتادة ومجاهد.

(٢) انظر: جامع البيان للطبري ١٧/ ٢٥١ وهو مروي عن ابن زيد.

(٣) انظر: جامع البيان للطبري ١٧/ ٢٥١ وهو مروي عن عطاء وعيسى بن زيد.

(٤) انظر: جامع البيان للطبري ١٧/ ٢٥٠ وهو مروي عن محمد بن الحنفية.

وهذا القول مرتب على القول بأن بيوت مكة غير مملوكة وفي المسألة خلاف مشهور.

(٥) التحرير والتنوير ١٨/ ٢٠٢.

ويدخل فيها إضافة لما ذكر:

الأسواق، والفنادق – أي: أماكن الاستقبال فيها، أما غُرفها المؤجرة فلابد من إذن مستأجرها سواء كان فيها أو خارجها – وكذلك المكتبات العامة والمطاعم وغيرها، مما أشبهها مما لا يحتاج إلى إذن في الدخول، بل إن صاحبه إنما فتحه ليدخله الناس، سواء كان بقصد الشراء أو الإطلاع أو الفُرْجَة أو نحوها.

الشرط الثاني: ﴿فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْۚ﴾:

ومعناه: فيها لكم حاجة، لوضع متاع أو أخذه أو قصد التظلل، أو المبيت، أو البيع، أو الشراء، أو الأكل، أو الشرب أو نحو ذلك(1).

قال ابن العربي: "وأما من فسر المتاع بأنه جميع الانتفاع فقد طبّق المِفْصَل، وجاء بالفيصل، وبين أن دخول الداخل فيها إنما هو لما له من الانتفاع..."(2).

ولما كانت حقيقة الاحتياج للانتفاع بهذا المكان ربما تكون ظاهرة أو خفية، حقيقية أو مدّعاة ختم الله عز وجل الآية بقوله ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ [النور: ٢٩].

يقول ابن العربي: "فإن دخل في موضع من هذه باسمها الظاهر ولِمَنْفَعَتِهَا البادِية، ونيتُه غير ذلك، فالله عليم بما أبدى وبما كَتَم، يجازيه عليه وبما يظهره منه"(3).

(١) انظر: روح المعاني ١٨/ ٢٠٢، والتحرير والتنوير ١٨/ ٢٠٣.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ٣٧٦.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ٣٧٦.

المبحث الثاني

استئـذان الصغـار والخـدم والمماليك

يقول الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَـٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَـٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَـٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ (٥٨) وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَـٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ (٥٩) ﴾[النور:٥٨، ٥٩].

- **مناسبة الآيات لما قبلها:**

جاءت هاتان الآيتان من آيات الاستئذان لتشمل المرحلة الثانية من مراحل تشريع الاستئذان في المجتمع المسلم، فبعد أن فرض الله الاستئذان على المكلفين لدخول البيوت المسكونة المأهولة سواء أكان فيها أهلها أم لا، فرض في هذه الآيات الاستئذان في حق غير المكلفين من الأطفال والخدم وأتْبَاع العائلة الذين يشق عليهم اتّباع الحكم السابق من عموم وجوب الاستئذان؛ لشدة اختلاطهم بأهلهم وذويهم ومن يقومون على خدمته.

يقول ابن تيمية رحمه الله "والله سبحانه ذكر الاستئذان على نوعين، ذكر في هذه الآية -يعني قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾

[النور: ٢٧] أحدهما وفي الآيتين في آخر السورة النوع الثاني، وهو استئذان الصغار والمماليك، كما قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ ﴾ [النور: ٥٨]"[١].

وهذا الفرض الوقتي والجزئي للاستئذان على هذه الفئة فيه تعويد لهم وتدرج بهم للوصول إلى الإيجاب الكُلِّي للاستئذان في سائر الأوقات والأحوال[٢].

ويمكن أن تكون الأحكام الواردة في هاتين الآيتين – بل حتى الآية ﴿ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّـٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾ [النور: ٦٠] – استثناء من الحكم الواجب في الآيات قبلها، فكما أوجب الله الاستئذان، استثنى هذه الفئة – الصغار والخدم – وحصر وجوب الاستئذان عليهم في هذه الأوقات الثلاثة، وكذلك كما أوجب الله الحجاب على المؤمنات وأمرهن بقوله: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٥/ ٣٦٩، وانظر: التحرير والتنوير ١٨/ ٢٩١.

(٢) انظر: روح المعاني ١٨/ ٢٠٧، والتحرير والتنوير ١٨/ ٢٩١، والتفسير الموضوعي ٥/ ٢٤٧.

نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٣١] استثنى منهن القواعد من النساء فقال: ﴿ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾ [النور: ٦٠][1].

- **سبب نزول الآيات:**

"عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: وجّه رسول الله ﷺ غلاماً من الأنصار يقال له مدلج بن عمرو إلى عمر بن الخطاب ﷺ وقت الظهيرة ليدعوه، فدخل فرأى عمر بحالة كره عمر رؤيته على ذلك، فقال: يا رسول الله، وددت لو أن الله تعالى أمرنا ونهانا في حال الاستئذان، فأنزل الله هذه الآية"[2].

ولفظ هذه الرواية لا يدل على سببيتها لنزول هذه الآية، وقد أورد القرطبي القصة بلفظ آخر يدل على السببية وفيه قول عمر ﷺ: "وددت أن الله نهى أبناءنا ونساءنا وخدمنا عن الدخول علينا في هذه الساعات إلا بإذن، ثم انطلق إلى رسول الله ﷺ فوجد هذه الآيات قد أنزلت، فخرّ ساجداً شكراً لله"[3].

---

(١) انظر: التفسير الموضوعي ٥/ ٢٤٨.

(٢) أسباب النزول للواحدي ص٥٣١، وانظر: الكشف والبيان للثعلبي ٧/ ١١٦، ومعالم التنزيل للبغوي ص(٩١٧).

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٥/ ٣٣٢.

"وعن مقاتل قال: نزلت في أسماء بنت مرثد، كان لها غلام كبير فدخل عليها في وقت كرهته، فأتت رسول الله ﷺ فقال: إن خَدَمنا وغلماننا يدخلون علينا في حالٍ نكرهها فأنزل الله هذه الآية"[1].

- **هل الآية محكمة أم منسوخة:**

لأهل العلم في القول بنسخ الآية أو إحكامها أقوال:

الأول: أنها منسوخة، وأنه لم يعد العمل بها قائماً. وهذا القول منسوب لسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير[2].

ويحمل قول هؤلاء على أن الحاجة التي شرع من أجلها هذا الحكم قد زالت، كما روى عن ابن عباس رضي الله عنهما: "إن الله حليم رحيم بالمؤمنين يحب الستر، وكان الناس ليس لبيوتهم ستور ولا حجال... فأمرهم الله بالاستئذان في تلك العورات، فجاءهم الله بالستور والخير، فلم أر أحداً بعمل بذلك بعد"[3].

فإذا عادت الحاجة إليه عاد الحكم مرة ثانية.

الثاني: أنها محكمة، وأن استئذان الصغار والخدم واجب في هذه الأوقات الثلاثة.

---

(١) أسباب النزول للواحدي ص٥٣١، انظر: الكشف والبيان للثعلبي ٧/ ١١٦، ومعالم التنزيل للبغوي ص(٩١٧).

(٢) انظر: الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٥٥١.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب ٥/ ٣٧٧ برقم (٥١٩٢)، وحسنه الألباني وأخرجه البيهقي في الكبرى ١٤/ ٦١ برقم (١٣٦٩٠).

وهذا هو قول جمهور أهل العلم.

وقد أخرج الطبري "عن الشعبي في قوله تعالى: ﴿لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾ [النور: ٥٨]، قال: لا والله ما نسخت. قلت: إن الناس لا يعملون به، قال: الله المستعان"[١].

قال أبو عبيد القاسم بن سلام: "... ولا نعلم أحداً من العلماء أخبر عن هذه الآية نسخاً بل أغلظوا شأنها"[٢].

الثالث: وذهب بعضهم إلى أن هذه الآية ناسخة لقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ﴾ [النور: ٢٧].

حيث دلت على جواز دخول الأصناف المذكورين فيها في غير الأوقات الثلاثة بلا إذن[٣].

والحق أن هذه الآية: ﴿ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [النور: ٥٩] مخصصة لعموم الآية: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ ﴾ [النور: ٢٧] فآية: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ ﴾ [النور: ٢٧] عامة في الأعيان والأوقات،

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان ١٧/ ٣٥٤، وأبو عبيد في الناسخ والمنسوخ ص٢٢٠، والناسخ للنحاس ٢/ ٥٥٧.

(٢) الناسخ والمنسوخ لأبي عبيد ص٢١٩، وانظر: الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٥٥٧، ونواسخ القرآن لابن الجوزي ص٤١٠، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٥/ ٣٣٠.

(٣) انظر: روح المعاني للآلوسي ١٨/ ٣١٣.

وهذه خاصة في بعض الأصناف في بعض الأوقات[1].

والأمر في قوله تعالى: (ليستأذنكم) للوجوب.

وقيل: للندب.

والخطاب للأولياء، ونفي الجناح في قوله ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾ [النور: ٥٨] يشمل الأولياء والمماليك والأطفال.

يقول الطبري: "يقول تعالى ذكره: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ﴾ معشر أرباب البيوت والمساكن ﴿وَلَا عَلَيْهِمْ﴾ يعني: ولا على الذين ملكت أيمانكم من الرجال والنساء والذين لم يبلغوا الحُلُم من أولادكم الصغار حرج ولا إثم ﴿بَعْدَهُنَّ﴾ يعني بعد العورات الثلاث"[2].

والمقصود بالأوقات الثلاثة الواردة في الآية:

- ﴿مِن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ﴾:

أي: قبل دخول وقت صلاة الفجر، وهو أحد أوقات الاستراحة والنوم، وكون الناس مازالوا في فُرُشهم[3].

- ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾:

أي: حين تخلعون ثيابكم – أو بعضها – التي تلبسونها في النهار،

---

(١) انظر: روح المعاني للآلوسي ١٨/ ٣١٣، والتحرير والتنوير ١٨/ ٢٩١.

(٢) جامع البيان ١٧/ ٣٥٦.

(٣) انظر: تفسير ابن كثير ٦/ ٢٥٢٨.

وذلك وقت القيلولة، ولبس ثياب النوم[١].

- ﴿ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ﴾:

حين يحصل التخلي عن ثياب اليقظة ولُبْس ثياب النوم[٢].

وهـذا الوقـت الثالـث متصـل بالوقـت الأول وهـو: ﴿ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ ﴾ فيكون الليل كله – من بعد صلاة العشاء – محلاً للنهي عن الدخول إلا بإذن[٣].

وجـاء ذكـر علّـة النهـي عـن الـدخول في هـذه الأوقـات إلا بـإذن، مصرّحاً به في قوله تعـالى: ﴿ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ ﴾ وقولـه: ﴿ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ ﴾.

يقول الطبري: "لأنكم تضعون فيها ثيابكم، وتخلون بأهليكم"[٤].

ويقول الطاهر بن عاشور: "... كانت هذه الأوقات أوقاتاً يتجرد فيها أهـل البيـت مـن ثيـابهم[٥] كـما آذن بـه قولـه تعـالى: ﴿ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ ﴾ فكان من القبيح أن يرى مماليكهم وأطفالهم عـوراتهم؛ لأن ذلـك منظر يخجل منه المملوك، وينطبع في نفس الطفل؛ لأنه لم يعتد رؤيته، ولأنـه

---

(١) انظر: روح المعاني ١٨/ ٣١٠.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير ٦/ ٢٥٢٨، روح المعاني ١٨/ ٣١٠.

(٣) انظر: التحرير والتنوير ١٨/ ٢٩٣، وانشراح الصدور في تفسير سورة النور ص٣٢٣.

(٤) جامع البيان ١٧/ ٣٥٦.

(٥) لا يصح حمل الآية على جواز وضع الإنسان ثيابه بالكلية والتجرد الكامل؛ فإن ذلك منهي عنه، إلا لحاجة كغُسْل ونحوه مع التستر التام، انظر: انشراح الصدور ص٣٢٤.

يجب أن ينشأ الأطفال على ستر العورة؛ حتى يكون ذلك كالسَّجِيَّة فيهم إذا كبروا"[1].

وكلام ابن عاشور السابق يفيد أن سبب نهي المماليك والصغار عن الدخول في هذه الأوقات إلا بإذن ليس سببه فقط خشية إطلاعهم على بعض عورات أهليهم وذويهم، وما يسببه ذلك لهم من حرج، بل سببه أيضاً خشية جرح حيائهم، وقدح نقاء فطرتهم، وكسر حاجز تَحَرّجهم من كشف العورة أمام الآخرين، وهذه لفته تربوية مهمة.

ويؤيد هذا أن نفي الجناح جاء عن الطرفين ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ ﴾ بعد انتهاء وقت الحظر؛ لاحتياج كلا الطرفين المرور على الآخر.

يقول ابن عاشور: "ونفي الجناح عن المخاطبين في قوله: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ ﴾ بعد أن كان الكلام على استئذان المماليك والذين لم يبلغوا الحلم إيماء إلى لحن خطاب حاصل من قوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ﴾ [النور: ٥٨] فإن الأمر باستئذان هؤلاء عليهم يقتضي أمر أهل البيت بالاستئذان على الذين ملكت أيمانهم إذا دعاهم داع إلى الدخول عليهم في تلك الأوقات، كما يرشد السامع إلى قوله: ﴿ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ ﴾. وإنما لم يصرح بأمر المخاطبين بأن يستأذنوا على الذين ملكت أيمانهم؛ لندور دخول السادة على عبيدهم أو على غلمانهم؛ إذ

(١) التحرير والتنوير ١٨/ ٢٩٢.

الشأن أنهم إذا دعتهم حاجة إليهم أن ينادوهم، فأما إذا دعت الحاجة إلى الدخول عليهم فالحكم فيهم سواء. وقد أشار إلى العلة قوله: ﴿ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾"[١].

وقد استدل ابن تيمية رحمه الله بهذه الآية على حرمة إطلاع المميز من المماليك والصبيان على عورة الكبير والعكس، حيث يقول: "وفي ذلك ما يدل على أن المملوك المميز، والمميز من الصبيان ليس له أن ينظر إلى عورة الرجل، كما لا يحل للرجل أن ينظر إلى عورة الصبي والمملوك وغيرهما"[٢].

ثم يبين تعالى لحوق هؤلاء بغيرهم من الكبار في وجوب الاستئذان في سائر الأوقات:

فيقول: ﴿ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ ﴾ [النور: ٥٩].

ومعنى الآية: أنه إذا بلغ الصغار من الأحرار مبلغ الكبار بالاحتلام، فلا يدخلوا عليكم في وقت من الأوقات إلا بإذن. وفي تخصيص الأطفال من الأحرار بالذكر هنا دليل على أن المماليك يجب عليهم الاستئذان في الأوقات الثلاثة فقط؛ كبارُهُم وصغارُهُم[٣].

وهذه الآية دليل على وجوب الاستئذان في حُجَر البيت الواحد،

---

(١) التحرير والتنوير ١٨/ ٢٩٤.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٥/ ٣٦٩، دقائق التفسير ٤/ ٤٢٨.

(٣) انظر: جامع البيان للطبري ١٧/ ٣٥٨.

ودليل على وجوب استئذان البالغين من الذكور والإناث على أهليهم من الرجال والنساء في سائر الأوقات(١).

وعن ابن المسيب: "قال: يستأذن الرجل على أُمّه؟ قال: إنما أنزلت: ﴿ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ ﴾ [النور: ٥٩] في ذلك"(٢).

وقد سبق ذكر طرفٍ من هذه المسألة في المبحث السابق.

وجاءت الآيتان ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ و﴿ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ ﴾ مختومتان بقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ لتدل على أن الله عليم بجميع أحوالنا، مطلع على إسرارنا وإعلاننا، وعليم بما يصلح أحوالنا، وهو سبحانه حكيم في تدبيره أمورنا، وتشريع ما فيه صلاحنا(٣).

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٥/ ٣٣٨، وانشراح الصدور ص٣٣٢.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان ١٧/ ٣٥٩، وابن عبد البر في التمهيد ١٦/ ٢٣٣.

(٣) انظر: جامع البيان للطبري ١٧/ ٣٥٩، وروح المعاني للآلوسي ١٨/ ٣١٥، والتحرير والتنوير ١٨/ ٢٩٥.

المبحث الثالث

الاستئذان في الأمور الجامعة

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور: ٦٢، ٦٣].

- **مناسبة الآيات:**

وهذه الآيات وثيقة الصلة بعموم موضوعات السورة وبما قبلها من آيات.

وقد بيّن ابن تيمية رحمه الله صلة هذه الآيات خاصة، وآيات الاستئذان في السورة عموماً ببقية موضوعات السورة بياناً شافياً فقال: "... ونهى فيها عن تعدي حدوده في الفروج والأعراض والعورات، وطاعة ذي السلطان، سواء كان في منزله أو في ولايته، ولا يخرج ولا يدخل إلا بإذنه؛ إذ الحقوق نوعان: نوع لله فلا يتعدى حدوده، ونوع للعباد فيه أمرٌ فلا يُفعل إلا بإذن المالك، وليس لأحد أن يفعل شيئاً في حق غيره إلا بإذن الله، وإن لم يأذن المالك فإذن الله هو الأصل، وإذن المالك حيث أذن الله وجعل له الإذن فيه؛ ولهذا ضَمَّنَها الاستئذان في المساكن والمطاعم،

والاستئذان في الأمور الجامعة كالصلاة والجهاد ونحوهما)[1].

ويقول ابن كثير رحمه الله: "وهذا أيضاً أدب أرشد الله عباده المؤمنين إليه، فكما أمرهم بالاستئذان عن الدخول، كذلك أمرهم بالاستئذان عن الانصراف..."[2].

ونَصَّت الآيات على النوع الواجب من هذا الاستئذان وهو استئذان الرسول ﷺ في الذهاب من مجلسه، أو مفارقة اجتماع معه، ويقاس عليه ولي الأمر[3].

وفي هذه الآيات انتقال من تشريع الاستئذان فيما يخص العلاقات بين الأقارب والأهل والأصدقاء والجيران، إلى تنظيم العلاقات الإدارية بين المؤمنين في أعمالهم[4].

- **سبب نزول الآيات:**

قال السيوطي في الدر المنثور: "أخرج ابن إسحاق، وابن المنذر، والبيهقي في الدلائل، عن عروة ومحمد بن كعب القرطبي قالا: لما أقبلت قريش عام الأحزاب، نزلوا بمجمع الأشيال من رومة بئر بالمدينة قائدها أبو سفيان، وأقبلت غطفان حتى نزلوا بنَقَمين إلى جانب أُحُد، وجاء رسول الله ﷺ الخبرُ، فضرب الخندق على المدينة وعمل فيه، وعمل المسلمون فيه،

---

(١) مجموع الفتاوى ١٥/ ٢٨١.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٦/ ٢٥٣٤.

(٣) انظر: التحرير والتنوير ١٨/ ٣٠٦.

(٤) انظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم ٥/ ٢٥٨.

وأبطأ رجال من المنافقين، وجعلوا يورّون بالضعيف من العمل، فيتسللون إلى أهليهم بغير علمٍ من رسول الله ﷺ ولا إذن. وجعل الرجل من المسلمين إذا نابته النائبة من الحاجة التي لابد منها، يذكر ذلك لرسول الله ﷺ، ويستأذنه في اللحوق بحاجته، فيأذنُ له، فإذا قضى حاجته رجع، فأنزل الله في أولئك من المؤمنين: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾"[1].

ويؤيد معنى هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾ [الأحزاب: ١٣]، فإنها صريحة في المنافقين الذين تعللوا بأعذار واهية من أجل الانصراف إلى بيوتهم وترك الجهاد مع رسول الله ﷺ.

ورغم نزول الآية لسبب محدد، فإن معناها عام ويدخل فيه ما ورد في سبب النزول وغيره من أعمال فيها اجتماع للمسلمين كالجمعة والعيدين والاستسقاء والجهاد.

بل الآية أصل في أعمال الإدارة التي فيها مصلحة الأمة والتي لابد فيها من مدير ورئيس ومرؤوس "فلا ينصرف أحد عن اجتماعه إلا بعد أن يستأذنه؛ لأنه لو جعل أمر الانسلال لشهوة الحاضر لكان ذريعةً لانفضاض

(١) أخرجه البيهقي في الدلائل ٣/ ٤٠٩، وانظر: سيرة ابن هشام ٣/ ١٦٩، والجامع لأحكام للقرطبي ١٥/ ٣٥٨، والدر المنثور ١١/ ١٢٥.

الاجتماعات دون حصول الفائدة التي جُمِعت لأجلها..."[1].

ولفظ ﴿ أَمْرٍ جَامِعٍ ﴾ في الآية يؤيد هذا العموم، يقول الشوكاني: "والحاصل أن الأمر الجامع أو الجميع هو الذي يعم نفعه أو ضرره، وهو الأمر الجليل الذي يحتاج إلى اجتماع أهل الرأي والتجارب. قال العلماء: كل أمر اجتمع عليه المسلمون مع الإمام، لا يخالفونه ولا يرجعون عنه إلا بإذن)[2].

ومن العموم فيها أيضاً شمولها لأمر النبي ﷺ وطلب الإذن منه، وشمولها لكل ولي أمر بعده.

يقول الآلوسي: "قال الحسن: وغير الرسول ﷺ من الأئمة مثله في ذلك؛ لما فيه من أدب الدين وأدب النفس"[3].

وقد امتدح الله عز وجل في هذه الآية عباده المؤمنين الذين آمنوا به وبرسوله ﷺ، وأنهم كانوا إذا اجتمعوا مع النبي ﷺ لأمر جامع يهم المسلمين لم ينصرفوا إلا بعد إذن النبي ﷺ لهم، وخيّر الله عز وجل نبيه ﷺ في الإذن لمن شاء منهم وعدم الإذن لمن شاء، وأمره أن يستغفر لهم الله؛ "فإن الاستئذان – وإن كان لعذر قوي – لا يخلو عن شائبة تقديم أمر الدنيا على أمر الآخرة"[4].

---

(١) التحرير والتنوير ١٨/ ٣٠٨، وانظر: روح المعاني للألوسي ١٨/ ٣٢٧.

(٢) فتح القدير للشوكاني ٤/ ٥٧.

(٣) روح المعاني ١٨/ ٣٢٨.

(٤) روح المعاني للآلوسي ١٨/ ٣٢٨، وانظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم =

ولذلك فإن الله عز وجل ذم المنافقين في سورة الأحزاب بقوله: ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ ﴾ [الأحزاب: ١٣] وأخبر أنهم يطلبون من رسول الله ﷺ الإذن بالانصراف إلى منازلهم بحجة أنها مكشوفة للعدو وغير محصنة، ولكنهم كاذبون في ذلك، وإنما يريدون الفرار والهرب من معسكر رسول الله ﷺ ومن معه من المؤمنين(١).

وفي سورة التوبة في قوله تعالى: ﴿ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [التوبة: ٤٤، ٤٥]، يبين الله عز وجل أن الاستئذان لعدم الخروج للجهاد مع رسول الله ﷺ إنما هو من صفات المنافقين، وأن الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر لا يتقدمون بذلك الطلب، ولا يتخلفون عن الجهاد مع رسول الله ﷺ.

وهذا هو الفرق بين ذكر الاستئذان في سورة براءة وفي سورة النور؛ فإن قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ

=

.٢٥٨/٥

(١) انظر: جامع البيان للطبري ١٩/ ٤٣.

ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٦٢ ﴾ [النور: ٦٢] في الاستئذان للعودة من الأمر الجامع مع رسول الله ﷺ ومنه الجهاد. أما آيات سورة براءة فهي في الاستئذان في أصل الخروج للجهاد مع رسول الله ﷺ.

ولهذا جاء قبلها العتاب للنبي ﷺ: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٤٣ ﴾ [التوبة: ٤٣].

ولهذا التعارض الظاهري بين هذه الآيات وآيات التوبة عمد بعضهم إلى القول بأن آية النور ناسخة لآية التوبة، مستدلين بما روي عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله: ﴿لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: ٤٤] قال: نسختها الآية التي في سورة النور: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ لَّمۡ يَذۡهَبُواْ حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ فَإِذَا ٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِبَعۡضِ شَأۡنِهِمۡ فَأۡذَن لِّمَن شِئۡتَ مِنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمُ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٦٢ ﴾ [النور: ٦٢].

قال في عون المعبود: "وقد اختلف علماء الناسخ والمنسوخ في هذه الآيات فقيل: إنها منسوخة بالآية التي في سورة النور وهي قوله سبحانه ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ فَإِذَا ٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِبَعۡضِ شَأۡنِهِمۡ فَأۡذَن لِّمَن شِئۡتَ مِنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمُ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٦٢ ﴾ [النور: ٦٢]، وقيل: إنها محكمات كلها.

ووجه الجمع بين هذه الآيات، أن المؤمنين كانوا يسارعون إلى طاعة الله

وجهاد عدوهم من غير استئذان، فإذا عرض لأحدهم عذر استأذن في التخلف. فكان رسول الله ﷺ مخيراً في الإذن لهم بقوله تعالى: ﴿ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ ﴾ وأما المنافقون فكانوا يستأذنون في التخلف من غير عذر، فعيّرهم الله تعالى بهذا الاستئذان لكونه بغير عذر"(١).

ولتباين أمر الاستئذان في الحالتين – حالة الخروج إلى الجهاد والعودة منه لعذر – جاء قوله تعالى: ﴿ لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ [النور: ٦٣]، للتحذير من أمر التخلف عن الاستجابة لدعوة رسول الله ﷺ للخروج للجهاد ولغيره؛ فإن تلك الآية تضمنت نهي المؤمنين أن يتعاملوا مع دعاء الرسول ﷺ كما يتعاملون مع دعائهم فيما بينهم سواء كان ذلك الدعاء أمراً من النبي ﷺ للمؤمنين، أو تكليفاً لهم، أو كان المراد بالدعاء نداء الرسول ﷺ كما ينادى غيره، أو المراد بالدعاء دعوة النبي ﷺ على من خالف أمره وارتكب نهيه(٢).

وجملة ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ ﴾ تؤيد كون الدعاء بمعنى أمر المؤمنين وتكليفهم للخروج للجهاد(٣).

---

(١) عون المعبود ٧/ ٣٢٥.

(٢) انظر: البحر المحيط ٦/ ٤٣٦.

(٣) انظر: أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ٤٣١، والتفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم ٥/ ٢٥٨، وانشراح الصدور في تدبر سورة النور ص٣٥٩.

وكما اقترن الاستئذان للدخول بالتسليم، كما في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ﴾.

فإن الاستئذان للخروج مشروع له الاقتران بالتسليم بدليل قول النبي ﷺ: "إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليسلّم، فإذا أراد أن يقوم فليسلّم، فليست الأولى بأحق من الآخرة"[1].

(١) الحديث: أخرجه أبو داود في سننه برقم (٥٢٠٨)، والترمذي في جامعه برقم (٢٧٠٦)، وحسّنه الألباني، انظر: صحيح سنن أبي داود ٣/ ٢٧٨، وانظر: انشراح الصدور في تدبر سورة النور ص٣٥٤.

الخاتمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

فهذا أوان الاستئذان للخروج والمغادرة ومعه التسليم، ويحسُن قبله أن نسوق أهم النتائج المستخلصة من هذا البحث، ومنها:

١- أن القرآن الكريم مليء بالآداب والأخلاق والقيم، وحَرِيّ بالمؤمنين تتبع تلك الآداب والأخلاق والتخلق بها.

٢- يُعَدّ خلق الاستئذان من مكارم الأخلاق ومحاسن القيم التي تميّز المسلم وتهذب أخلاقه وصفاته.

٣- يحقق المجتمع المسلم أعلى درجات النقاء والطهارة والعفة عندما يتحلى أفراده بهذا الخلق العظيم وهو الاستئذان.

٤- خلق الاستئذان من الأخلاق المطلوب تطبيقها وتنفيذها داخل البيت وخارجه على كل أفراد الأسرة الواحدة – باستثناء الصغار والمماليك – فهم مأمورون به في أوقات محددة.

٥- عندما يكبر الصغار في المجتمع المسلم المتحلي بهذا الخلق تكون أبصارهم مصونة وأخلاقهم محفوظة وفطرهم نقية.

٦- كما يشترط الاستئذان للدخول فإنه في بعض المواضع يشترط للخروج.

٧- وضع الله عز وجل ضوابط مكانية للاستئذان داخل البيوت وخارجها وضوابط زمانية بالأوقات الثلاثة التي يستأذن فيها الصغار، ويتأكد فيها استئذان الكبار.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المصــادر

١- أحكام القرآن، أبو بكر محمد بن عبد الله ابن العربي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢- الأدب المفرد، الإمام البخاري، تحقيق: خالد العك، ط١، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، دار المعرفة، بيروت.

٣- أسباب نزول القرآن، أبي الحسن علي بن أحمد الواحدي، تحقيق: د.ماهر الفحل، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، دار الميمان، الرياض.

٤- أسماء سور القرآن الكريم، أ. د. محمد بن عبد الرحمن الشايع، ط١، ١٤١٢هـ/ ٢٠١١م، دار كنوز إشبيليا، الرياض.

٥- انشراح الصدور في تدبر سورة النور، أ. د. سلميان اللاحم، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، دار العاصمة، الرياض.

٦- آيات الاستئذان في سورة النور، دراسة تحليلية، د. محمد الخضيري، بحث منشور في مجلة الجامعة الإسلامية، العدد ١٥٠.

٧- البحر المحيط، محمد بن يوسف، أبو حيان الأندلسي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، ط١، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، دار الكتب العلمية، بيروت.

٨- بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، لأبي بكر الكاساني الحنفي، ط٢، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٤م، دار الكتاب العربي، بيروت.

٩- تفسير التحرير والتنوير، محمد الظاهر ابن عاشور، دار سحنون، تونس.

١٠- تفسير القرآن العظيم مسنداً عن رسول الله ﷺ والصحابة والتابعين، عبد الرحمن بن محمد بن أبي حاتم، تحقيق: أسعد الطيب، ط١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، مكتبة نزار الباز، مكة المكرمة.

١١- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: د. محمد إبراهيم البنا، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، دار ابن حزم، بيروت.
١٢- التفسير الكبير، فخر الدين الرازي، ط٣، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، دار الفكر، بيروت.
١٣- التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، نخبة من علماء التفسير، إشراف: أ. د. مصطفى مسلم، ط١، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م، جامعة الشارقة، الشارقة.
١٤- تقريب التهذيب، لابن حجر العسقلاني، تحقيق: أبي الأشبال الباكستاني، ط٢، ١٤٢٣هـ، دار العاصمة، الرياض.
١٥- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، لابن عبد البر القرطبي، تحقيق: عمر الجيدي، وسعيد أعراب، مكتبة السوادي، جدة.
١٦- التوقيف على مهمات التعاريف، محمد عبد الرؤوف المناوي، تحقيق: د.محمد رضوان الداية، ط١، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، دار الفكر، دمشق.
١٧- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري، تحقيق: د. عبد الله التركي، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، دار هجر، القاهرة.
١٨- الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق: د. عبد الله التركي، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، مؤسسة الرسالة، بيروت.
١٩- جزء في أسماء سور القرآن الكريم، أ. د. محمد صالح البراك، ط١، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م، دار ابن الجوزي، الدمام.
٢٠- جمال القراء وكمال الإقراء، علم الدين علي بن محمد السخاوي،

تحقيق: د. علي البواب، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م، مكتبة التراث، مكة المكرمة.

٢١- الدر المنثور في التفسير بالمأثور، جلال الدين السيوطي، تحقيق: د. عبد الله التركي، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، دار هجر، القاهرة.

٢٢- دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: د. عبد المعطي قلعجي، ط١، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٣- الرسالة الفقهية، لابن أبي زيد القيرواني، تحقيق: د. الهادي حمو، ود. محمد أبو الأجفان، ط٢، ١٩٩٧م، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

٢٤- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود الآلوسي، تحقيق: محمد حسين العرب، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، دار الفكر، بيروت.

٢٥- السنن الكبير، للحافظ البيهقي، تحقيق: د. عبد الله التركي، ط١، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م، دار هجر، القاهرة.

٢٦- صحيح الأدب المفرد، محمد ناصر الدين الألباني، دار الصديق، ط٢، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، مؤسسة الريان، بيروت.

٢٧- صحيح سنن أبي داود، محمد ناصر الدين الألباني، ط٢، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، مكتبة المعارف، الرياض.

٢٨- صحيح سنن الترمذي، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، ط٢، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م، الرياض.

٢٩- صحيح سنن النسائي، محمد ناصر الدين الألباني، ط١،

١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، مكتبة المعارف، الرياض.
٣٠- عون المعبود شرح سنن أبي داود، لشمس الحق العظيم آبادي، ط٢، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، دار الكتب العلمية، بيروت.
٣١- فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن محمد العسقلاني، تحقيق: عبد العزيز بن باز، ومحمد فؤاد عبد الباقي، ط١، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م، دار الكتب العلمية، بيروت.
٣٢- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي الشوكاني، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، دار الفكر، بيروت.
٣٣- فضائل القرآن وما أُنزل من القرآن بمكة وما أُنزل بالمدينة، أبي عبد الله محمد بن أيوب بن الضّريس، تحقيق: غزوة بدير، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م، دار الفكر، دمشق.
٣٤- فضائل القرآن، أبي عبيد القاسم بن سلام، تحقيق: مروان العطية، ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، دار ابن كثير، بيروت.
٣٥- الفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، لأحمد النفراوي المالكي الأزهري، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.
٣٦- القاموس الفقهي لغة واصطلاحاً، سعدي أبو جيب، ط٢، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، دار الفكر، دمشق.
٣٧- القاموس المحيط، مجد الدين الفيروزآبادي، تحقيق: محمد نعيم العرقسوسي، ط٦، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، مؤسسة الرسالة، بيروت.
٣٨- كتاب التعريفات، علي بن محمد الجرجاني، ١٩٩٠م، مكتبة لبنان، بيروت.
٣٩- الكشف والبيان، أبو إسحاق الثعلبي، تحقيق: د. أبو محمد بن عاشور،

ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٤٠- الكليات، أبو البقاء أيوب بن موسى الكفوي، تحقيق: د. عدنان درويش، ومحمد المصري، ط٢، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، مؤسسة الرسالة، بيروت.

٤١- مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيميه، جمع وترتيب: عبد الرحمن ابن محمد بن قاسم، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م، دار عالم الكتب، الرياض.

٤٢- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، عبد الحق بن غالب بن عطية، تحقيق: المجلس العلمي بمكناس، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م، مكتبة ابن تيميه.

٤٣- المحرر في أسباب نزول القرآن، من خلال الكتب التسعة، د. خالد المزيني، ط١، ١٤٢٧هـ، دار ابن الجوزي، الدمام.

٤٤- المصنف، أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة، تحقيق: محمد عوامة، ط١، ١٤١٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، دار القبلة، حبرة.

٤٥- معالم التنزيل، الحسين بن مسعود البغوي، ط١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، دار ابن حزم، بيروت.

٤٦- معجم المقاييس في اللغة، أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: شهاب الدين أبو عمرو، ط٢، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م، دار الفكر، بيروت.

٤٧- معجم لغة الفقهاء، أ. د. محمد رواسي قلعة جي، د. حامد قنيبي، ط٢، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، دار النفائس، بيروت.

٤٨- المعلم بفوائد مسلم، للإمام أبي عبد الله المازري، تحقيق: محمد النيفر، ط٢، ١٩٩٢م، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

٤٩- المكي والمدني من السور والآيات من أول سورة الكهف إلى آخر سورة الناس، د. محمد بن عبد العزيز الفالح، ط١، ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م، دار التدمرية، الرياض.

٥٠- المنهاج بشرح صحيح مسلم بن الحجاج، محيى الدين يحيى بن شرف النووي، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ط١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، دار ابن حزم، بيروت.

٥١- الناسخ والمنسوخ في القرآن العزيز، وما فيه من الفرائض والسنن، أبو عبيد القاسم بن سلام، تحقيق: محمد صالح المديفر، ط٢، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، مكتبة الرشد، الرياض.

٥٢- الناسخ والمنسوخ في كتاب الله عز وجل، واختلاف العلماء في ذلك، أبو جعفر النحاس، تحقيق: د. سليمان اللاحم، ط١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م، مؤسسة الرسالة، بيروت.

٥٣- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي، ط١، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

٥٤- النكت والعيون، للماوردي، تحقيق: السيد عبد المقصود، دار الكتب العلمية، بيروت.

٥٥- نواسخ القرآن، عبد الرحمن ابن الجوزي، تحقيق: محمد المليباري، ط١، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، إحياء التراث الإسلامي، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

ملامح من قصة إبراهيم عليه السلام
في سورتي البقرة وإبراهيم

(دراسة موضوعية)

د. دخيل بن عبدالله الدخيل

الأستاذ المساعد بقسم القرآن الكريم وعلومه

كلية أصول الدين – جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

ملخص بحث

ملامح من قصة إبراهيم ﷺ في سورتي البقرة وإبراهيم

دراسة موضوعية

إنَّ الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

أرسله الله بين يدي الساعة بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، فهدى به من الضلالة، وأرشد به من الغي، وبصر به من العمى، ﷺ تسليماً كثيراً، وعلى آله وأصحابه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعـد:

فهذا ملخص للبحث الموسوم بـ"ملامح من قصة إبراهيم ﷺ في سورتي البقرة وإبراهيم". دراسة موضوعية.

تناولت فيه جانباً من جوانب القصص القرآني، حيث كان من أكثر القصص تكراراً في القرآن الكريم قصة إبراهيم ﷺ، وأشد ما جاء في هذه القصة من النصوص تقارباً ما ذكر في سورة البقرة وسورة إبراهيم، وهو ما سلطت الضوء عليه في هذا البحث، ورددت على من قال: إنَّ في القرآن الكريم تكراراً قصصياً لا فائدة منه؛ أو أن يكون مستمدا من الخيال؛ وحاشا أن يكون فيه ذلك، وهو معيب في كلام الفصحاء والبلغاء، فكيف

بكلام الله ﷻ الذي أعجز أهل الفصاحة والبلاغة أن يأتوا بمثله ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾النساء:٨٧، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾النساء: ١٢٢، وقد تناولت-أيضاً- جوانب عدة من حياة إبراهيم عليه السلام ؛ ولا غرو فهو أبو الأنبياء، اتخذه الله خليلاً، كان أمة قانتاً، حنيفاً مسلماً، تسابقت الأمم السابقة إلى الانتساب إليه؛ فرد الله ذلك؛ بقوله تعالى : ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ آل عمران: ٦٧، وكان البحث قد قسم على النحو التالي:

خطة البحث: يتكون البحث من مقدمة وتمهيد وأربعة مباحث وخاتمة.

المقدمة: وفيها سبب الاختيار، والمنهج الذي سرت عليه، وخطة البحث.

التمهيد: وفيه تعريف القصة، والفرق بين القصص القرآني وغيره، وأنواع القصص في القرآن الكريم، وأسرار تكرار القصص في القرآن الكريم.

المبحث الأول: جوانب الحديث عن إبراهيم عليه السلام في القصة القرآنية.

المبحث الثاني: علاقة قصة إبراهيم عليه السلام بمقصود سورتي البقرة وإبراهيم.

المبحث الثالث: أغراض قصة إبراهيم عليه السلام في سورتي البقرة وإبراهيم.

المبحث الرابع: أوجه الاتفاق الموضوعية والأسلوبية في سورتي البقرة وإبراهيم.

الخاتمة: وفيها أهم النتائج والتوصيات.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين،

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه ومن اقتفى أثره إلى يوم الدين.

Features of Ibrahim's Story (peace be upon him) in the Qur'an Chapters of Al-Baqrah and Ibrahim

Prepared by:
Dakheel A. Al-Dakheel, PhD
Assistance professor, Department of Qur□anic Sciences
Faculty of Islamic Theology
Imam Muhammad Bin Saud Islamic university

Abstract

This paper investigates one of the most well-chronicled, and well-documented stories in the Qur'an; the story of Ibrahim (peace be upon him), particularly in the Chapters (*Suras*) of Al-Baqrah and Ibrahim due to the extensive similarity between their verses.

One of my objectives in this study is to rebut those who claim that A) there is a meaningless redundancy in the stories of the Holy Qur'an, and B) these stories are merely a figment of imagination (Allah forbid). This is an outrageous allegation if it was directed at the words of a poet and an eloquent orator, and it is even more so when it is directed at Allah's holy words that render all people speechless, as they can never create something to match His words. Allah Almighty said: {Allah - there is no deity except Him. He will surely assemble you for [account on] the Day of Resurrection, about which there is no doubt. And who is more truthful than Allah in statement.} (the chapter of Al-Nisaa-87). He also said {But the ones who believe and do righteous deeds - We will admit them to gardens beneath which rivers flow, wherein they will abide forever. [It is] the promise of Allah, [which is] truth, and who is more truthful than Allah in statement.} (the chapter of Al-Nissaa-122).

Moreover, there is a discussion of some aspects of prophet Ibrahim's life, and no wonder, as he is the grandfather of all prophets.

Allah chose him, and he was an obedient, allegiant and upright Muslim. All earlier nations claimed having a kinship to him, but Allah has rejected these claims by replying: {Abraham was neither a Jew nor a Christian, but he was one inclining toward truth, a Muslim [submitting to Allah]. And he was not of the polytheists.} (the chapter of Al-i-'Imran-67.)

The research is divided as follows: a preface, an introduction, four chapters, and a conclusion.

1- Preamble: it explains the reason for choosing this topic, the approach that I adopted, and the research plan.
2- Introduction: it includes the main story, the difference between Qur'anic and other kinds of stories, the types of Qur'anic stories, and the secrets of repeating Qur'anic stories.
3- The first section: the aspects of Ibrahim's life that is covered in the Qur'anic story.
4- The second section: The connection between Ibrahim's story and the purposes of the Chapters of Al-Baqarah and Ibrahim.
5- The third section: The purposes of Ibrahim's story in the Chapters of Al-Baqarah and Ibrahim.
6- The fourth section: The similarities in content and style in the Chapters of Al-Baqarah and Ibrahim.
7- Conclusion: it lists the paper's important findings and recommendations.

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي هدانا للإسلام، وهدانا بالقرآن، قص علينا فيه أحسن القصص، إعجازاً، وترغيباً، وترهيباً، واقتداء وأسوة، موعظة وتسلية، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه، ومن استن بسنته واقتفى أثره إلى يوم الدين. أما بعد:

فيَظُنُّ من قل نظره وعلمه، أنَّ في القرآن الكريم تكراراً قصصياً لا فائدة منه؛ وحاشا أن يكون فيه ذلك، وهو معيب في كلام الفصحاء والبلغاء، فكيف بكلام الله ﷻ الذي أعجز أهل الفصاحة والبلاغة أن يأتوا بمثله ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ النساء: ٨٧، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ النساء: ١٢٢، وَمِنْ أكثر القصص تكراراً في القرآن الكريم قصة إبراهيم ﷺ، فقد تناولت جوانب عدة من حياته؛ ولا غرو فهو أبو الأنبياء، اتخذه الله خليلاً، كان أمة قانتاً، حنيفاً مسلماً، تسابقت الأمم السابقة إلى الانتساب إليه؛ فرد الله ذلك؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ آل عمران: ٦٧، وقال نبينا ﷺ: (وَأَنَا أَشْبَهُ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِهِ)[1]. وقال ﷺ:

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب: الأنبياء، باب: وكلم الله موسى تكليماً، ٨/ ٤٨٠، ح ٣٣٩٤، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب:الإيمان، باب: الإسراء بالرسول ﷺ، ١/ ١٠٦، ح ٤٤٢

(نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾البقرة: ٢٦٠)[1]. ومن النصوص الأكثر تقارباً ما جاء في سورة البقرة وسورة إبراهيم، وهو ما سأسلط الضوء عليه في هذا البحث من بيان النكت والفروق والفوائد المستقاة من كل نص بإذن الله تعالى.

المنهج الذي سرت عليه:

١. يُتناول هذا البحث بالدراسة والتحليل؛ دراسة موضوعية في قصة إبراهيم عليه السلام في سورتي البقرة وإبراهيم؛ موضحاً مواضع الاتفاق والاختلاف الموضوعية والأسلوبية في كلا الموضعين.

٢. تحديد الآيات موضع الدراسة .

٣. بيان مواضع الاتفاق والاختلاف الموضوعية والأسلوبية في كل موضع.

٤. تعليل اختصاص الموضع بما ورد فيه، وعلاقته بمقصود السورة.

٥. بيان علاقة ما ورد من الاتفاق في السورتين – في القصة – وصلته بمقصود السورتين.

٦. الحديث إن كان في الصحيحين أو في أحدهما فإني أكتفي به.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب: الأنبياء، باب: قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، ٨/ ٤٤٥، ح ٣٣٧٢، وأخرجه مسلم في صحيحه ،كتاب: الإيمان، باب: زيادة طمأنينة القلب، ١/ ٩٢، ٣٩٩

خطة البحث:

يتكون البحث من مقدمة وتمهيد وأربعة مباحث وخاتمة.

المقدمة: وفيها سبب الاختيار، والمنهج الذي سرت عليه، وخطة البحث.

التمهيد: وفيه تعريف القصة، والفرق بين القصص القرآني وغيره، وأنواع القصص في القرآن الكريم، وأسرار تكرار القصص في القرآن الكريم.

المبحث الأول: جوانب الحديث عن إبراهيم عليه السلام في القصة القرآنية.

المبحث الثاني: علاقة قصة إبراهيم عليه السلام بمقصود سورتي البقرة وإبراهيم.

المبحث الثالث: أغراض قصة إبراهيم عليه السلام في سورتي البقرة وإبراهيم.

المبحث الرابع: أوجه الاتفاق الموضوعية والأسلوبية في سورتي البقرة وإبراهيم.

الخاتمة: وفيها أهم النتائج والتوصيات.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التمهيد

تعريف القصة لغة واصطلاحاً:

المعنى اللغوي:

قَصَّ أثره قصاً وقصصاً: تَتَبعَه. وقَصَّ الخبر: أعلمه. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ الكهف: ٦٤، أي: رَجَعا من الطريق الذي سلكاه يَقُصَّان الأثر. وقوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ يوسف: ٣: نبين لك أحسن البيان. والقاصُّ: من يأتي بالقِصة[١]، والقِصَص: جمع قِصَّة، وهي الأمر والشأن، والذي يُكتب، والقَصَصُ: الأخبار المتتبَّعة، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾آل عمران: ٦٢ [٢].

والقِصَّة: الجملة من الكلام.

والقصة: حكاية نثرية طويلة تُستمدُّ من الخيال أو الواقع أو منهما معاً، وتبنى على قواعد معيَّنة من الفن الكتابي. والجمع : قِصَصٌ. "محدثة".

والأُقصُوصَة: القِصَّة الصغيرة، وجمعها: أقاصِيص. والقاصُّ: الذي يروي القصة على وجهها. أو الذي يصنع القصة[٣].

المعنى الاصطلاحي:

القصة هي: "حكاية أدبية تدرك لتقص، قصيرة نسبيًا، ذات خطة

---

(١) القاموس المحيط، للفيروز آبادي: مادة (قصّ) :٨٠٩

(٢) بصائر ذوي التمييز، للفيروز آبادي:٤/ ٢٧١

(٣) المعجم الوسيط، إبراهيم أنيس ورفاقه: مادة (قصت) :٧٣٩

بسيطة وحدث محوري يدور حول جانب من الحياة لا في واقعها العادي والمنطقي؛ وإنما طبقًا لنظرية رمزية لا تنمي أحداثًا وبيئات وشخوصًا؛ وإنما توجز في لحظة واحدة حدثًا ذا معنى كبير"[1].

القصص القرآني: إخباره عن أحوال الأمم الماضية، والنبوات السابقة، والحوادث الواقعة[2].

الفرق بين القصص القرآني والقصص الأدبي

من التعريف "اللغوي" -السابق- للقصة نجد أنَّ منها ما يستمد من الخيال[3]، ومنها ما يستمد من الواقع، ومنها ما يستمد منهما معاً، والقصص القرآني هو كلام الله، منزه عن ذلك التصوير الفني الذي لا يعني فيه بالواقع التاريخي؛ بل حقائق ووقائع وأحداث في سرد تاريخي ثابت لا مرية فيه، تصاغ في صور بديعة من الألفاظ المنتقاة، والأساليب الرائعة؛ فلا مجال للخيال في التصوير والرمزية، مع ما تتحلى به القصة القرآنية من الخصائص الفنية وجمال الذوق والأسلوب في السرد. وهو ما نص الله عليه

---

(١) وهي محاولة من الدكتور الطاهر أحمد مكي أن يلخص تعريفاً شاملاً للقصة من عدة تعريفات، القصة القصيرة، الطاهر أحمد مكي:٦٧

(٢) مباحث في علوم القرآن، مناع القطان:٣١٧

(٣) قدمت في مصر رسالة لنيل درجة "الدكتوراه" سنة ١٣٦٧هـ، بعنوان"الفن القصصي في القرآن" للباحث"محمد أحمد خلف الله" أثارت جدلاً طويلاً، وكتب عنها أحد أعضاء اللجنة وهو الأستاذ"أحمد أمين" تقريراً بين أن أسسها أن القصص في القرآن عمل فني خاضع لما يخضع له الفن من خلق وابتكار من غير التزام لصدق التاريخ، والواقع أن محمداً فنان بهذا المعنى. انظر مباحث في علوم القرآن لمناع:٣٠٨

بقوله تعالى ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ﴾ آل عمران: ٦٢، وقوله تعالى ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ﴾ الكهف: ١٣، وقوله تعالى ﴿ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ ﴾ القصص: ٣، وقوله تعالى: ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾ الأعراف: ٧، وقد وصفه بالحسن فقال: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ يوسف: ٣

فالفارق - بين القصص القرآني وقصص الشعوب واللغات الأخرى من الأساطير والروايات والمسرحيات- شاسع في جميع المجالات والمقاصد والأعراض؛ ويتضح أن الغاية أن يكون ذلك القصص نفسه هادياً للمؤمنين إلى الطريق الصحيح والصراط المستقيم؛ فالله تعالى يقول ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ يوسف: ٣[١].

أنواع القصص في القرآن

للقصص في القرآن ثلاثة أنواع:

النوع الأول: قصص الأنبياء، وقد تضمن دعوتهم إلى قومهم، والمعجزات التي أيدهم الله بها، وموقف المعاندين منهم، ومراحل الدعوة وتطورها وعاقبة المؤمنين والمكذبين.

---

(١) قصص القرآن في مواجهة أدب الرواية والمسرح، أحمد موسى: ٢١٢

النوع الثاني: قصص قرآني يتعلق بحوادث غابرة، وأشخاص لم تثبت نبوتهم، كطالوت وجالوت وذي القرنين، وقارون، وغير ذلك

النوع الثالث: قصص يتعلق بالحوادث التي وقعت في زمن رسول الله ﷺ؛ كغزوة بدر وأحد وحنين، ونحو ذلك[١].

أسرار تكرار قصص القرآن وبيان الحكمة فيها:

يرد القصص القرآني في مواضع ومناسبات، ويحسب أناس أن هنالك تكراراً في القصة؛ لأن القصة الواحدة قد يتكرر عرضها في سور شتى؛ ولكن النظرة الفاحصة تؤكد أنه ما من قصة قد تكررت في صورة واحدة؛ ولذا استخرج العلماء فوائداً وحكماً؛ منها:

- أنَّ في كل موضع زيادة شيء لم يذكر في الذي قبله، أو إبدال كلمة بأخرى لنكتة؛ وهذه عادة البلغاء[٢].
- أنَّ الرجل كان يسمع القصة من القرآن، ثم يعود إلى أهله ثم يهاجر بعده آخرون يحكون عنه ما نزل بعد صدور من تقدمهم؛ فلولا تكرار القصص لوقعت قصة "موسى" إلى قوم آخرين؛ وكذا سائر القصص، فأراد الله اشتراك الجميع فيها، فيكون فيه إفادة لقوم

(١) مباحث في علوم القرآن، مناع القطان:٣٠٦

(٢) مثل قوله تعالى ﴿ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴾ طه: ٢٠ ، فذكر هنا "حية" وفي قوله تعالى ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ الأعراف: ١٠٧ وعبر هنا بأنها "ثعبان".

وزيادة تأكيد لآخرين[١].

- أنَّ في إبراز الكلام الواحد في فنون كثيرة وأساليب مختلفة ما لا يخفى من الفصاحة.
- أنَّ الدواعي لا تتوفر على نقلها كتوفرها على نقل الأحكام؛ فلهذا كررت القصص دون الأحكام.
- أنَّ الله تعالى أنزل هذا القرآن، وعجز القوم عن الإتيان بمثله، بأي نظم جاءوا، ثم أوضح الأمر في عجزهم؛ بأن كرر ذكر القصة في مواضع؛ إعلاماً بأنهم عاجزون عن الإتيان بمثله، أي بأي نظم جاءوا، وبأي عبارة عبروا[٢].
- أنَّه لما تحداهم قال: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ البقرة: ٢٣، فلو ذكرت القصص في موضع واحد واكتفى بها لقال العربي: إيتونا أنتم بسورة من مثله؛ فأنزلها ﷻ في تعداد السور دفعاً لحجتهم من كل وجه.
- أنَّ القصة الواحدة لو كررت كان في ألفاظها في كل موضع زيادة ونقصان وتقديم وتأخير، وأتت على أسلوب غير أسلوب الأخرى؛ فأفاد ذلك ظهور الأمر العجيب في إخراج المعنى الواحد في صور متباينة في النظم، وجذب النفوس إلى سماعها لما جبلت

(١) الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب: ٤/ ٢٤٦٠، البرهان في علوم القرآن، الزركشي:٣/ ٢٦، الإتقان في علوم القرآن، السيوطي:٣/ ٢٠٤

(٢) الإتقان في علوم القرآن، السيوطي:٣/ ٢٠٤-٢٠٥، قال ابن فارس: وهذا هو الصحيح. فقه اللغة:١٧٨

عليه من حب التنقل في الأشياء المتجددة واستلذاذها بها، وإظهار خاصة القرآن حيث لم يحصل مع تكرار ذلك فيه هجنة[١] في اللفظ، ولا ملل عند سماعه؛ فباين ذلك كلام المخلوقين[٢].

- أنَّ الله تعالى ذكر كل قصة في سورة من سور القرآن لغير المعنى الذي ذكر حاله في السورة الأخرى؛ فإن القصة الواحدة تشير إلى معان متعددة؛ فيكون في بعض السور مساق الكلام: صبر النبي ﷺ على إيذاء الكفار، والتسلية له بذكر قصص الأنبياء عليهم السلام، وأنهم صبروا وأوذوا أذى عظيماً، فتساق القصص على هذا المعنى، وفي بعض السور يكون مساق الكلام: الإخبار عن إهلاك المعاندين والظالمين، وأن عاقبة أمرهم الهلاك في الدنيا والخزي في الآخرة؛ فتساق القصص على هذا المعنى. وفي بعض السور يكون مساق الكلام الإخبار عن التوحيد، وتبليغ الرسالة، وإرشاد الخلق إلى الله تعالى فتقص القصص على هذا المساق؛ للإشارة إلى أنهم على وتيرة واحدة، ومنهج واحد داعون إلى توحيد الله تعالى وإرشاد الخلق إلى الله تعالى.
- أنَّ القرآن مشتمل على جملة كتب الله المنزلة على الأنبياء عليهم

(١) الهجنة في اللفظ: العيب والقبح فيه. لسان العرب، ابن منظور: مادة "هجن" :١٣/ ٤٢١، القاموس المحيط، الفيروز آبادي "هجن":٤/ ٢٧٩

(٢) البرهان في علوم القرآن، الزركشي:٣/ ٢٥، الإتقان في علوم القرآن، السيوطي:٣/ ٣٠٥

السلام؛ كما دّل على ذلك جملة من الأحاديث[1]، فعلم أنَّ القرآن اشتمل على التوراة والزبور والإنجيل. ولا شك أنَّ التوراة والإنجيل فيها أخبار الأنبياء وقصصهم؛ فيجب في السور التي هي مكان التوراة أن يذكر فيها قصص الأنبياء الذين ذكروا في التوراة، والسورة التي مكان الإنجيل قصص الأنبياء الذين ذكروا في الإنجيل، لم يكن التكرار حينئذ تكراراً؛ بل هو تلخيص لما في التوراة والإنجيل والزبور، وزيادة خصَّ الله سبحانه وتعالى النبي ﷺ بها وهي المفصل[2].

الحكمة في عدم تكرار قصة يوسف في القرآن:

إنَّ من المعروف عن سمات القصص القرآني ظاهرة التكرار؛ وهو أن تتكرر القصة في أكثر من موضع من القرآن، كما في قصة موسى عليه السلام، وقصة نوح عليه السلام وغيرهم من الأنبياء؛ ولكن نجد أنَّ قصة يوسف عليه السلام لم تتكرر في أي موضع من القرآن؛ فقد جاءت في موضع واحد، والسؤال هنا: ما الحكمة في عدم تكرار قصة يوسف عليه السلام، وسوقها مساقاً واحداً في

(١) منها: ما جاء عن واثلة بن الأسقع أن النبي ﷺ قال: (أعطيت مكان التوراة السبع، وأعطيت مكان الزبور المئين، وأعطيت مكان الإنجيل المثاني، وفضلت بالمفصل) . أخرجه أحمد في مسنده:٤/ ١٠٧، والطحاوي في شرح مشكل الآثار:١٣٧٩، والطبراني في المعجم الكبير:٢٢/ ١٨٦، والبيهقي في دلائل النبوة :٥/ ٤٧٥. وحسن إسناده شعيب الأرنؤوط في تحقيق المسند:٢٨/ ١٨٨

(٢) الزيادة والإحسان في علوم القرآن، ابن عقيلة المكي :٦/ ٣٧١-٣٧٣

موضع واحد دون غيرها من القصص؟، والحكمة في عدم تكرارها كما يراها بعض علمائنا الأجلاء تتجلى فيما يلي: فيها من تشبيب النسوة بيوسف عليه السلام، وتضمنها أخباراً عن حال امرأة ونسوة افتتن بأروع الناس جمالاً، وأرفعهم منالاً؛ فناسب عدم تكرار ما فيها من الإغضاء والستر عن ذلك؛ ولأنها اختصت بحصول الفرج بعد الشدة، بخلاف غيرها من القصص؛ فإنَّ مآلها إلى الوبال كقصة نوح وهود وقوم صالح عليهم السلام وغيرهم؛ فلما اختصت بذلك اتفقت الدواعي على نقلها لخروجها عن سمات القصص.

وفي عدم تكرارها إشارة إلى عجز العرب؛ كأن النبي ﷺ قال لهم : إن كان من تلقاء نفسي تصديره على الفصاحة فافعلوا في قصة يوسف ما فعلت في قصص سائر الأنبياء[1]، وثمة أمر آخر وهو أنَّ سورة يوسف نزلت بسبب طلب الصحابة أن يقص عليهم، فقد روى عن سعد بن أبي وقاص أنَّه قال : " أُنزل القرآن فتلاه رسول الله ﷺ على أصحابه زماناً، فقالوا – أي المسلمون بمكة – يا رسول الله لو قصصت علينا ، فأنزل الله ﴿ الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ يوسف: ١ – ٣ "[2]. فنزلت مبسوطة تامة؛ ليحصل لهم

---

(١) صفوة التفاسير، محمد الصابوني:٥٢

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره:٨/ ٢٨٩(١١٣٢٣) والبزار في مسنده " البحر الزخار ":٣/ ٣١١ (١١٥٢) و (١١٥٣) و أبو يعلى في مسنده:٢/ ٨٧ (٧٤٠) وابن حبان في =

مقصود القصص من استيعاب القصة وترويح النفوس بها، والإحاطة بطرفيها؛ استخلاصاً لعبرها ودلالاتها.

ومن أوجه ما يجاب به أنَّ قصص الأنبياء عليهم السلام إنما تكررت؛ لأن المقصود بها إفادة إهلاك من كذبوا رسلهم وآذوهم؛ والمواقف التي يعيشها النبي ﷺ تستدعي ذلك التكرير؛ ذلك لتكرير تكذيب الكفار لرسول الله ﷺ، فكلما كذبوا أنزلت قصةٌ منذرةٌ بحلول العذاب كما حل على المكذبين؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾الأنفال:٣٨،وقال أيضاً: ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴾ الأنعام: ٦، وقصة يوسف لم يقصد منها ذلك[1].

=

صحيحه:١٤/ ٩٢ (١٧٤٦) والحاكم في المستدرك ٢/ ٣٤٥، وابن جرير في " تفسيره " (١٢/ ٩٠) وصححه الحاكم:٢/ ٣٤٥، ووافقه الذهبي، وحسنه الضياء في المختاره:٢/ ٣٦، وقال ابن حجر في " المطالب العالية "٣/ ٣٤٣:" حديث حسن "، وكذا ابن تيمية في " مجموع الفتاوى" :٥/ ٥٥، وكذلك صحّحه مقبل الوادعي في " الصّحيح المسند من أسباب النّزول " :٨٨.

(١) الإتقان في علوم القرآن، السيوطي:٢/ ١٨٥، الزيادة والإحسان في علوم القرآن، ابن عقيلة المكي :٦/ ٣٧٤

المبحث الأول

جوانب الحديث عن إبراهيم عليه السلام في القصة القرآنية

لم يكن ذكر إبراهيم عليه السلام في كتاب الله تعالى كذكر الأنبياء السابقين؛ بل إنَّ شيخ الحنفاء ذكر في كتاب الله عز وجل من جوانب متعددة؛ ولا عجب فمآثره كثيرة، ومناقبه أجلُّ من أن تعدّ، ولا عجب أن تَرِدَ الإشارات مبكرة حديثاً عن أبي الأنبياء؛ فهذه إشارات نجدها في سورة الأعلى وفي سورة النجم، وفي سورة "ص" ففي سورة الأعلى ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ الأعلى: ١٨ -١٩ ؛ولكن سورة النجم تزيد على ذلك ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ﴾ النجم: ٣٦ – ٣٧ ، ثم تأتي سورة "ص" وهي التي تحدثت لنا عن بعض الأنبياء عليهم السلام فنجد فيها إشارات لإبراهيم وبنيه: ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴾ ص: ٤٥ – ٤٨ ، وبعد هذه الإشارات جاء الحديث عن بعض جوانب من حياته عليه الصلاة والسلام :

أول سورة حدثتنا عن إبراهيم عليه السلام هي سورة مريم، وهي مكية عند الجمهور[1]، وهي سورة نزلت مبكرة، يحدثنا ربنا عز وجل عن زكريا ويحيى ومريم وعيسى ثم ينتقل الحديث عن إبراهيم وبنيه وبعض الأنبياء عليهم

---

(١) التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور:١٦/ ٥ .بتصرف

الصلاة والسلام. وجل ما تحدثت به القصة عن إبراهيم عليه السلام هو في جانب حديث إبراهيم مع أبيه، فقال تعالى ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ﴿٤٧﴾ وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا﴾ مريم: ٤١ – ٤٩، امتدح الله عز وجل إبراهيم عليه السلام قبل النصيحة لأبيه بأنَّه "كان من أهل الصدق في حديثه وأخباره ومواعيده لا يكذب وإضافة إلى هذا فإنَّه نبي أوحى الله إليه ونبَّأه"[١]. وفي النظر في القصة نجد تدرجاً عجيباً في دعوة إبراهيم لأبيه يملأه البر والشفقة والعطف والحنان بأُسلوب النداء: فأولها: ﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا﴾ مريم: ٤٢، وكذا يسلك معه الأسلوب الاستفهامي طريقاً غير مباشر في النهي عن عبادة الأصنام، وهو استفهام إنكاري فيه معنى التوبيخ[٢]. وثانيها: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ﴾ مريم: ٤٣ ، أي: فاعلم أني قد اطلعت على علم من الله لم

(١) جامع البيان، ابن جرير الطبري :١٦/ ٦٨ بتصرف يسير

(٢) فتح القدير، محمد الشوكاني:٣/ ٣٣٥ بتصرف

تعلمه أنت ولا اطلعت عليه، ولا جاءك بعد؛ لذلك أرجو منك اتباعي حتى أدلك على الطريق المستقيم الموصل إلى نيل المطلوب والنجاة من المرهوب[1]. وثالثها: نهيه عن عبادة الشيطان، وفي الكلام تثبيط لأبيه عما هو عليه من الشرك؛ لأنَّه مع خلو ما يعبده من النفع واستلزامه للضر؛ فإنَّه في الحقيقة عبادة للشيطان[2]. ورابعها: الخوف أن يمس أباه عذاب من الرحمن. وهذه هي العاقبة السيئة، إنَّها عذاب من الله الرحمن، وإظهار كلمة الرحمن هنا للإشعار بأنَّ وصف الرحمانية لا يدفع حلول العذاب[3].
خامساً: إكرام الله لنبيه إبراهيم ﷺ، لما اعتزل إبراهيم قومه وما كانوا يعبدون من دون الله؛ أكرمه الله حيث وهب له أبناء أنبياء، وأسبل عليهم نعمه ظاهرة وباطنة.

ولم يورد الله ﷻ ذكر إسماعيل هنا، لعدة وجوه:
الأول: لأنَّ إبراهيم لما اعتزل قومه خرج بزوجه سارة، وهي قد اعتزلت قومها أيضاً إرضاء لربها ولزوجها، فذكر الله الموهبة الشاملة لإبراهيم وزوجه؛ لأنَّ هذه الموهبة لما كانت كفاء لإبراهيم على مفارقته أباه وقومه كانت موهبة من يعاشر إبراهيم ويؤنسه وهما إسحاق ويعقوب، وقد كان

(١) تفسير القرآن العظيم، إسماعيل ابن كثير:٣/ ١٢٣

(٢) تفسير القرآن العظيم، إسماعيل ابن كثير:٣/ ١٢٣، تفسير البيضاوي، عبد الله بن عمر:٤/ ٨

(٣) إرشاد العقل السليم، محمد أبو السعود :٥/ ٢٦٧

إسماعيل ﷺ بعيداً عنه[١].

ثانياً: لبيان أنَّه جعل له نسلاً وعقباً أنبياء أقرَّ الله بهم عينه في حياته ولهذا قال ﴿ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴾ مريم: ٤٩ [٢].

ثالثاً: لعله أراد أن يذكر إسماعيل بفضله على الانفراد[٣].

رابعاً: أنهما خصصا بالذكر؛ لأنهما شجرتا أنبياء بني إسرائيل، والقصد هنا ذكر أنبياء بني إسرائيل وهم بأسرهم أولاد إسحاق ويعقوب، وإسماعيل لم يخرج من صلبه إلا محمداً ﷺ[٤].

وفي سورة الشعراء: قوله تعالى ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ

---

(١) التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور: ١٦/ ١٢٤

(٢) تفسير القرآن العظيم، إسماعيل ابن كثير: ٣/ ١٢٤

(٣) تفسير البيضاوي، عبد الله بن عمر: ٤/ ٩

(٤) فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن، زكريا الأنصاري: ١٧٠

سَلِيمٍ ﴾ الشعراء: ٦٩ – ٨٩

يحكي الله تعالى ما دار بينه وبين قومه من مناقشات وما توجه به إلى خالقه من دعوات.

عقبت قصة موسى مع فرعون وقومه بقصة إبراهيم، وقدمت هنا على قصة نوح على خلاف المعتاد في ترتيب قصصهم في القرآن لشدة الشبه بين قوم إبراهيم وبين مشركي العرب في عبادة الأصنام التي لا تسمع ولا تبصر، وفي تمسكهم بضلال آبائهم، وأن إبراهيم دعاهم إلى الاستدلال على انحطاط الأصنام عن مرتبة استحقاق العبادة؛ ليكون إيمان الناس مستنداً لدليل الفطرة، وفي أنَّ قوم إبراهيم لم يسلط عليهم من عذاب الدنيا مثل ما سلط على قوم نوح وعلى عاد وثمود وقوم لوط وأهل مدين فأشبهوا قريشاً في إمهالهم. فرسالة محمد وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام قائمتان على دعامة الفطرة في العقل والعمل، أي في الاعتقاد والتشريع[1].

أُعطي إبراهيم عليه السلام الحجة القوية الدامغة التي يرد بها على أباطيل قومه، "وما أحسن ما رتب إبراهيم عليه السلام كلامه مع المشركين حين سألهم أولا عما يعبدون، سؤال مقرر لا مستفهم، ثم أنحى على آلهتهم فأبطل أمرها بأنها لا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع على تقليدهم آباءهم الأقدمين فكسره وأخرجه من أن يكون شبهة فضلاً أن يكون حجة، ثم صوَّر المسألة في نفسه دونهم حتى تخلص منها إلى ذكر الله عز وجل؛ فعظم شأنه

(١) التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور:١٩/ ١٤٨

وعدَّد نعمته من لدن خلقه وإنشائه إلى حين وفاته، مع ما يرجى في الآخرة من رحمته، ثم أتبع ذلك أن دعاه بدعوات المخلصين، وابتهل إليه ابتهال الأوابين، ثم وصله بذكر يوم القيامة وثواب الله وعقابه، وما يدفع إليه المشركون يومئذ من الندم والحسرة على ما كانوا فيه من الضلال، وتمنى الكرَّة إلى الدنيا ليؤمنوا ويطيعوا"[1].

وقوله: ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾ الشعراء: ٦٩ ، هو معنى قوله ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾ مريم: ٤١ ، وزاد في الشعراء أنَّ هذا الذي قاله لأبيه من النهي عن عبادة الأوثان قاله أيضاً لسائر قومه[2]. وفي هذا المقدر تذكير للرسول ﷺ بما يسليه عما يلقاه من قومه[3].

وفي سورة هود، قال تعالى ﴿ وَلَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۚ قَالُواْ لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ ﴿٧٠﴾ وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ

---

(١) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٣٢١، تفسير السراج المنير، الشربيني:٣/ ٤١-٤٢، إعراب القرآن وبيانه، محيي الدين درويش:٧/ ٩٢

(٢) أضواء البيان، محمد الشنقيطي:٣/ ٤٢٣

(٣) التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور:١٩/ ١١٨، التفسير المنير، وهبة الزحيلي:١٩/ ١٦٦

وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ﴾هود: ٦٩ – ٧٦ ، تُحدثنا عما كان بينه وبين قومه، وفي الآيات السابقة كان ذلك في البلد الذي نشأ فيه قبل أن يهاجر؛ كما أشارت إليه آيات سورة مريم قال تعالى: ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ﴾ مريم: ٤٨ – ٤٩ ، "لم يُبيِّن هنا ما المراد بهذه البشرى التي جاءت بها رسل الملائكة إبراهيم"[(١)]؛ "فقيل: هي مطلق البشرى المنتظمة للبشارة بالولد من سارة وللبشارة بعدم لحوق الضرر به لقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ ﴾ هود: ٧٤، وقيل: هي البشارة بهلاك قوم لوط ويأباه مجادلته عليه السلام في شأنهم. والأظهر أنها البشارة بالولد"[(٢)]، وكذا الحديث عن طيب الخلال، وشريف الخصال التي يتحلى بها إبراهيم عليه السلام، وما أكرمه الله به، قال تعالى: ﴿قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ﴾ هود: ٦٩، فكانت تحيته أبلغ؛ لأنها جاءت جملة اسمية وليست فعلية، والفرق بين الجملتين: أن الفعلية تدل على الحدوث، بينما الاسمية تدل على الثبوت والدوام، فسلام الملائكة لإبراهيم سلام حادث متجدد، وَرَدُّ إبراهيم عليهم جاء بالثبوت والدوام والاستمرار فكانت تحيته أبلغ[(٣)]، ثم بادر لإكرامهم فجاء

(١) أضواء البيان، محمد الشنقيطي: ٢/ ١٨٥

(٢) إرشاد العقل السليم، محمد أبو السعود: ٤/ ٢٢٤

(٣) البحر المحيط، أبي حيان الأندلسي: ٥/ ٢٤١ بتصرف

بعجل ﴿حَنِيذٍ﴾ هود: ٦٩ مشوي، وفي آية الذاريات بَيَّنَ الله أنَّه عجل ﴿سَمِينٍ﴾ الذاريات: ٢٦، وبهذا فإنَّه قد أتاهم بخير ما عنده وفي أسرع وقت، مما يدل على عدم التكرار؛ وإنما زيادة وصف للعجل، وكذا تقريبه الطعام لهم، ولم يضعه وقال: اقتربوا، وفيه أنَّ للمضيف أن ينظر نظرة لطيفة غير محددة النظر إلى ضيفه، هل يأكل أم لا؟

فهذه الأمور لَتَدِل بوضوح على ما تحلى به الخليل عليه السلام من غاية الإكرام، وفيه لنا خير قدوة[١].

ومما ذكر من صفات خيرة بعد ما بشر بإسحق ويعقوب، وأما موقف سارة تجاه البشارة فقد حكاه الله في سورة هود والذاريات، وهو التعجب: كيف ألد وأنا عجوز؟! وقد كنت في حال الصبا والشباب لا أحبل[٢]، وزيد هنا قولها "يا ويلتى" مع بيان حالتها تلك، وهي كلمة أصلها "يا ويلي" وتقال عندما يفجؤ الإنسانَ أمرٌ مهم من بلية أو فجيعة أو فضيحة تعجباً منه أو استنكاراً له أو شكوى منه[٣].وكذا عَرَّفَتْ بحال زوجها الشيخ المسن فأشارت إليه قائلة ﴿وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾هود: ٧٢ أي كبيراً لا يولد لمثله، وكما يظهر من السياق أنَّ قصة إبراهيم عليه السلام جاءت مقدمة لقصة لوط عليه السلام قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ هود: ٧٠،

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي:٩/ ٦٥-٦٦، تفسير القرآن العظيم، إسماعيل ابن كثير:٤/ ٢٣٥ بتصرف

(٢) تفسير القرآن العظيم، إسماعيل ابن كثير:٤/ ٢٣٦

(٣) تفسير المنار، محمد رشيد رضا:١٢/ ١٢٩

يجادل الملائكة في شأن قوم لوط، وقد وصفه الله بأنَّه حليم أواه منيب، فإذا جمعت هذه الصفات التي جمعها الله لخليله عليه السلام إلى ما سبق من الصفات نجد أنَّ إبراهيم عليه السلام جمع من الصفات ما لم يجتمع لغيره.

ثم تأتي سورة الحجر: ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾ الحجر: ٥١ – ٥٧، تذكر قصة إبراهيم بعد قصة آدم، وهي مبدوءة بأمرٍ إلى النبي محمد ﷺ بقوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ الحجر: ٤٩ – ٥١، والقصة تحدثنا عما كان بين إبراهيم والملائكة عليهم السلام؛ فتحدثنا عن ضيف إبراهيم وقت دخولهم عليه محيين مسلِّمين؛ وقد طوي ذكر رده السلام عليهم إيجازاً لظهوره[1]؛ ولكن إبراهيم عليه السلام يجد في نفسه منهم مقدمات الخوف، وهو الوجل، فيؤانسونه بأن لا داعي لهذا الوجل، فنحن نبشرك بغلام عليم، ونلاحظ هنا أنَّ الله عز وجل بَيَّنَ موقف إبراهيم عليه السلام من هذه البشارة، بخلاف سورة الذاريات فلم يأت التفصيل، ويستفهم –هنا– إبراهيم عليه السلام متعجباً ما هذا الذي تقولون وقد مسني الكبر؛ فبأي شيء تبشرون؟!، فيجيبون بأن هذا هو الحق فلا

(١) التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور:١٣/ ٤٦

تستغرب، وتكن من القانطين، فيرد هذه الصفة عن نفسه بقوله: ﴿ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾الحجر:٥٦، وهو استفهام إنكار في معنى النفي، وأنَّه لم يذهب عنه اجتناب القنوط من رحمة الله؛ ولكنَّه امتلكه المعتاد فتعجب، ومتحققاً للوعد، فصار ذلك كالذهول عن المعلوم فلما نُبِّه تذكر[١]. والمتأمل للآيات الكريمة يجد الجدة وعدم التكرار؛ وإنما في الآيات زيادة معان وبيان ليس فيما سبق.

فأولاً: يسميهم ضيفاً، ثانياً: يطوي فيها ذكر الطعام وما يتصل به، ثالثاً: يطوي فيه ذكر المرأة، رابعاً: يشعرهم إبراهيم هنا بوجله، وهو مقدمات الخوف، وفيما سبق "أوجس منهم خيفة"، خامساً: يوصف الغلام بأنَّه عليم، سادساً: الصورة المعبرة في عبارة "مسني الكبر"، سابعاً: زيادة بيان نفي صفة القنوط عن إبراهيم عليه السلام، ثامناً: أنَّ هذه الصفة "القنوط" لا يتصف بها إلا الضالون، وهو من المهتدين عليه السلام[٢].

ثم تأتي سورة الأنعام، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ

(١) تفسير القرآن العظيم، إسماعيل ابن كثير:٢/ ٦٧٤، التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور:١٤/ ٥٨-٦٠

(٢) خصائص النظم في قصة إبراهيم عليه السلام، الشحات محمد:١٠٣

بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴾ الأنعام: ٧٤ – ٩٠ ، عطف على الجمل السابقة التي أولها: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ الأنعام: ٦٦، المشتملة على الحجج والمجادلة في شأن إثبات التوحيد وإبطال الشرك، فعقب تلك

الحجج بشاهد من أحوال الأنبياء بذكر مجادلة أول رسول أعلن التوحيد وناظر في إبطال الشرك بالحجة الدامغة والناظرة الساطعة[(١)]، وإن كانت في الحديث عن إبراهيم عليه السلام وأبيه وقومه، إلا أنَّ هذا المقطع يختلف عن سابقه فهنا ذكرت قصة إبراهيم من الجهة التي يعالجها موضوع السورة، وهو إقامة الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة، ورَدُّ الشبهات بالحجج الدامغة، كان قومه يعبدون الأصنام والشمس والقمر والكواكب، فأراد أن ينبههم على الخطأ في دينهم، وأن يرشدهم إلى طريق النظر والاستدلال، فَبَيَّنَت هذه الآيات يقين إبراهيم عليه السلام وما أوتي من بصيرة نافذة وقوة في الحجة، قال ذلك على سبيل المجادلة لقومه وإرخاء العنان لهم؛ ليصلوا إلى تلقي الحجة ولا ينفروا من أول وهلة[(٢)]، فبدأ أولاً في الترقي وهو ينفي الألوهية عن الكواكب بدءاً ببعض النجوم ثم القمر ثم الشمس، وهذا دليل الرشد وحسن الاستدلال، ثم يستدل بالأُفول على عدم أهلية هذه الكواكب التي كان يؤلهها قومه، فقال ﴿ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴾ الأنعام: ٧٦، وأنَّ وراءها محدثاً وصانعاً، ومدبراً دبر طلوعها وأفولها وانتقالها ومسيرها وسائر أحوالها، وبعد إبطاله لأكبرها وهي الشمس أعلن براءته منها وصدع بعبودية الله عز وجل. ثم بَيَّنَ ما أكرم به نبيه من أنَّه جعل الأنبياء من ذريته، وجعله هو من ذرية نوح عليه السلام.

وقد صَرَّحَ هنا باسم والده ولم يذكر هذا الاسم في غير هذه الآية،

---

(١) التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور:٦/ ١٦٩

(٢) المصدر السابق:٦/ ١٧٧

وبهذا يكون ذكر اسمه حكاية لخطاب إبراهيم إياه خطاب غلظة، فذلك مقتضى ذكر اسمه العلم.

والظاهر أنَّ المحكي في هذه الآية موقف من مواقف إبراهيم مع أبيه، وهو موقف غلظة، فيتعين أنَّه كان عندما أظهر أبوه تصلباً في الشرك. ويقتضي أن يرى مماثليه في ضلال أيضاً؛ لأنَّ المقام مقام صراحة لا يكتفي فيه بدلالة الالتزام[1]؛ ولينبئه من أول وهلة على أنَّ موافقة جمع عظيم إياه على ضلاله لا تعضد دينه ولا تشكك من ينكر عليه ما هو فيه، ومباشرته إياه بهذا القول الغليظ كانت في بعض مجادلاته لأبيه بعد أن تقدم له بالدعوة بالرفق، كما حكى الله عنه في موضع آخر: ﴿ يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَـٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَـٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴾مريم:٤٢ –٤٧. فلما رأى تصميمه على الكفر سلك معه الغلظة استقصاء لأساليب الموعظة لعل بعضها أن يكون أنجع في نفس أبيه من بعض فإنَّ للنفوس مسالك ولمجال

(١) دلالة الالتزام: هي دلالة اللفظ على خارجٍ عن مسماه لازم له لزوماً ذهنياً أو خارجياً. كدلالة لفظ السقف على الجدار؛ فإنه لا وجود للسقف إذا لم يكن هنالك جدار. انظر المحصول في أصول الفقه، الرازي:١/ ٢١٩، آداب البحث والمناظرة، محمد الشنقيطي :١/ ١٣، معجم مصطلحات أصول الفقه، مصطفى سانو:٢٠٢

أنظارها ميادين متفاوتة[١].

وفي سورة الصافات، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبۡرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٖ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَاذَا تَعۡبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفۡكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظۡرَةٗ فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٞ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ مُدۡبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمۡ فَقَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمۡ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيۡهِمۡ ضَرۡبَۢا بِٱلۡيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقۡبَلُوٓاْ إِلَيۡهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ ٱبۡنُواْ لَهُۥ بُنۡيَٰنٗا فَأَلۡقُوهُ فِي ٱلۡجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ ﴾ الصافات: ٨٣-١١٣ ، تَخْلُصُ هذه الآيات إلى حكاية موقف إبراهيم عليه السلام من قومه في دعوتهم إلى التوحيد وما لاقاه منهم وكيف أيده الله ونجاه منهم، وقع هذا التخلص إليه بوصفه من شيعة نوح؛ ليفيد بهذا الأسلوب الواحد تأكيد الثناء على نوح وابتداء الثناء على إبراهيم؛ وتخليد منقبة لنوح إن كان

(١) التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور:٦/ ١٧٢-١٧٣

إبراهيم الرسول العظيم من شيعته وناهيك به، وكذلك جمع محامد إبراهيم في كلمة كونه من شيعة نوح المقتضي مشاركته له في صفاته، كان الحديث عن إبراهيم عليه السلام بعد الحديث عن نوح عليه السلام؛ فقوله: ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ الصافات: ٨٥ ، استفهام إنكاري على أن تعبدوا ما يعبدونه؛ ولذلك اتبعه باستفهام آخر إنكاري وهو ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ الصافات: ٨٦ ، وهذا الذي اقتضى الإتيان باسم الإشارة بعد "ما" الاستفهامية الذي هو مشرب معنى الموصول المشار إليه؛ فاقتضى أنَّ ما يعبدونه مشاهد لإبراهيم فانصرف الاستفهام بذلك إلى معنى دون الحقيقي وهو معنى الإنكار، بخلاف قوله: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ﴾ الشعراء: ٧٠ ؛ فإنَّه استفهام على معبوداتهم ولذلك أجابوا عنه: ﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَـٰكِفِينَ﴾ الشعراء: ٧١ ، وإنما أراد بالاستفهام هنالك التمهيد للمحاجة؛ فصوره في صورة الاستفهام لسماع جوابهم فينتقل إلى إبطاله، كما هو ظاهر من ترتيب حجاجه هنالك، فذلك حكاية لقول إبراهيم في ابتداء دعوته قومه، وأما ما هنا فحكاية لبعض أقواله في إعادة الدعوة وتأكيدها[١]. وقد أنكر على أبيه وقومه ما يعبدون، وكل هذه الآلهة التي يدعونها من دون الله؛ وتحدث عن يقظة إبراهيم عليه السلام ورجاحة عقله وشدة حرصه على دينه، فأخبرهم أنَّه به سقماً يمنعه من أن يشاركهم مسيرتهم، فأدبروا إلى حيث يريدون، وهنا رأى إبراهيم عليه السلام أنَّ الفرصة قد سنحت، وبكل قوة يأخذ

(١) التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور:٢٣/ ٥٣

بتحطيم الأصنام، ويأتي القوم ليروا ما حلَّ بأصنامهم فَيُقْبِلُون مسرعين إلى إبراهيم؛ ولكنَّ إبراهيم ﷺ يباغتهم فيلزمهم الحجة، فكيف يعبدون هذه الأصنام التي ينحتونها هم بأيديهم مع أنَّ الله تبارك وتعالى هو الذي خلقهم وخلق كل ما يعملون؛ فلما لزمتهم الحجة ورأوا أنَّهم بعيدون عن الحجة لجأوا إلى القوة والبطش، فتواصوا ببنيان يبنونه، وكيد لإبراهيم يريدونه؛ فليسعِّروا ذلك البنيان بالنار حتى تصير جحيماً، فيلقوا فيها إبراهيم ﷺ؛ ولكنَّ الله ﷻ يبطل كيدهم، ولم يُصب إبراهيم ﷺ بسوء. ويسأل إبراهيم ربه أن يهب له من الصالحين ذرية طيبة؛ فيستجيب الله دعاءه ويبشره بغلام حليم ولا عجب فالحلم صفة إبراهيم ﷺ كذلك، ويولد هذا الغلام ويشتد عوده حينما يبلغ مبلغاً يمكنه من أن يسعى مع أبيه في قضاء حوائجه، وحينما أخبر إبراهيم ابنه أنَّه رأى في المنام أنَّه يذبحه، فما كان من الابن إلا أن يعلن لأبيه بأن يفعل ما يؤمر به وسيجده إن شاء الله صابراً، فتحدثنا القصة عن حلم الولد من جهة، وحلم الأب من جهة أخرى، فيبتلى الأب بذبح ابنه؛ فيتغلب على كل عاطفة، وكيف تطيب نفس الابن المذبوح بما يريده أبوه فيذعن لهذا الحكم بكل رضى ومحبة من غير تردد، ويسلم كل من الأب والابن لله خاضعين، وينادى إبراهيم ﷺ بعد أن تلَّ ولده للجبين قد صَدَّقْتَ الرؤيا ويجازى بإحسانه على هذا الابتلاء العظيم، ويكرم إبراهيم ﷺ بالفداء، ويفدى الابن البار بكبش يذبحه الأب مكانه، وهذا امتحان للخضوع والإيمان ونفي الخلة لغير الله ﷻ. ولم يصدر قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ الصافات: ١١٠ بـ"أنا" كما في غيرها من القصص، وكما في

الآيات السابقة في هذا المقطع، للاكتفاء بالتأكيد في الآية السابقة عن التأكيد هنا، والمُجْزَى في الآيتين إبراهيم عليه السلام؛ وللإشارة إلى أنَّ قصة إبراهيم عليه السلام لم تنته بعد، فقوله تعالى: ﴿ وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ ﴾ الصافات: ١١٢ إلخ من تكملتها[١]. وللمغايرة بين النظم في القصة الواحدة[٢]. ويبشره الله عز وجل بولد آخر هو إسحاق نبياً ويبارك عليهما، وأنَّ من ذريتهما المحسن والظالم لنفسه.

ثم جاءت بعد ذلك سورة الزخرف، قال تعالى: ﴿ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾الزخرف:٢٦ –٢٨، لمَّاذكَّرهم الله بالأمم الماضية وشبَّه حالهم بحالهم ساق لهم أمثالاً في ذلك من مواقف الرسل مع أممهم منها قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه[٣]، وفيها إشارة موجزة متلائمة مع موضوع السورة، وسورة الزخرف إحدى الحواميم؛ والمتأمل في موضوعها يجد أنها تضيِّق على المشركين كل مسربٍ يمكن أن يسيروا فيه جَدِلِينَ خَصِمِين؛ فهي تَرُدُّ على شبهاتهم وتبطل ما ادَّعوه من تقليد الآباء، وبعد مناقشتهم فيما ادَّعوه من جعل الملائكة بنات الله، وعبادتهم لها، مدَّعين أنَّ تلك مشيئة الله، قالوا: ﴿ وَقَالُواْ لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُم ﴾الزخرف:

(١) إرشاد العقل السليم، محمد أبو السعود:٧/ ٢٠٢، روح المعاني، محمود الألوسي:١٢/ ١٣٢

(٢) خصائص النظم في قصة إبراهيم عليه السلام، الشحات محمد:١٠٩

(٣) التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور:٢٥/ ١٩١

٢٠، فَيَرُدُّ الله عليهم بأنه لا مستند لهم نقلي ولا عقلي، قال تعالى: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾الزخرف: ٢٠، وهذا نفي للحجة العقلية، فهو خرص وكذب وظن، ثم يقول الله: ﴿ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴾ الزخرف: ٢١، وهذا نفي للحجة النقلية أن يكون عندهم كتاب؛ وإنما جاءوا بذلك من تقليد الآباء المذموم، قال تعالى: ﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾الزخرف:٢٢، ثم تأتي الإشارة إلى إبراهيم عليه السلام، لتبين لهم إن كنتم صادقين في الانتساب إلى إبراهيم فقد تبرأ من أبيه وقومه، وهو من آبائكم فلِمَا لم تتبعوه، وتتبعون ما كان من الآباء باطلاً. وَخُصَّ أبو إبراهيم بالذكر قبل ذكر قومه وما هو إلا واحد منهم اهتماما بذكره؛ لأنَّ براءة إبراهيم مما يعبد أبوه أَدَلُّ على تجنب عبادة الأصنام بحيث لا يتسامح فيها ولو كان الذي يعبدها أقرب الناس إلى موحد الله بالعبادة مثل الأب؛ ولتكون حكاية كلام إبراهيم قدوة لإبطال قول المشركين: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ الزخرف: ٢٢ [(١)]. وزاد جل وعلا في سورة الممتحنة براءته أيضاً من العابدين، وعداوته لهم، وبغضه لهم في الله، وذلك في قوله تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ الممتحنة: ٤ [(٢)].

---

(١) التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور: ٢٥/ ٢٣٧-٢٣٨

(٢) أضواء البيان، محمد الشنقيطي: ٧/ ١٠١

ثم تأتي سورة الذاريات، قال تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ الذاريات: ٢٤ –٣٠، توعد الله ﷻ المكذبين بالعذاب، وما ذكر فيها من قصة إبراهيم فهي كالتوطئة لذكر العذاب الذي حلَّ بقوم لوط ، وإن كان الجانب الذي تناولته السورة قد تقدم في سورتي هود والحجر إلا أننا مع ذلك نجد أن لكل واحدة لوناً خاصاً بها وهدفا يبعد شبهة التكرار في القصتين، وإن كان هناك تشابها في بعض الأحداث، بدأت القصة في سورة هود بقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ﴾ هود: ٦٩ ،وفي سورة الحجر ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ الحجر: ٥١ ؛ لكن هنا بدأت بقوله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾ الذاريات: ٢٤، انتقال بالنبي ﷺ من الجو الذي يعيش فيه مع قومه، وما يفوح منهم من ريح خبيثة، محملة بإفرازات كفرهم وضلالهم، ففي الاستفهام دعوة للنبي الكريم من ربه، إلى أن يخرج من هذا الجو الفاسد، وأن يملأ صدره بشذا هذه الريح الطيبة التي تهب عليه من ذكرى نبي كريم، هو إبراهيم ، وما كان له عند الله من فضل وإحسان[1]، فكان تسلية له ﷺ، والتعبير هنا

(١) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب: ١/ ٩٩

بأنهم ضيوف مكرمون، ثم إنَّ إبراهيم ﵇ قد أنكرهم ، وسواء كان هذا الإنكار من حيث هيئاتهم أم من حيث تحيتهم، إلا أنَّ إبراهيم ﵇ مع ذلك أسرع في خفية عنهم، فجاءهم بعجل سمين[1]، وَبَيَّنَ في موضع أنَّه تعجل القِرَى لقوله: ﴿ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ ﴾هود:٦٩، ولما قربه إليهم أنكر عليهم مرة أخرى عدم أكلهم، فأوجس منهم خيفة فبشروه بغلام عليم، فأقبلت امرأته في صيحة تضرب وجهها لغرابة ما سمعت، كيف وهي عجوز عقيم؟! فأجابوها بأنَّ هذا قضاء الله الحكيم العليم. ومما ذكر في سورة الذاريات ولم يذكر في سورة هود والحجر، مع أن فيهما الكثير مما لم يذكر في سورة الذاريات، ومما ذكر هنا الخوف وهو غير الوجل، وفي سورة هود كان العجب من امرأة إبراهيم ولكنَّها عبرت عن ذلك بما أخبرت به من قول، وتحدثت به من كلام؛ أما في سورة الحجر فلم يرد لامرأة إبراهيم ذكر، وإنما كان العجب من إبراهيم ﵇، وفي هذه السورة بَيَّنَت لنا كيف عبرت المرأة عما في نفسها حينما أقبلت في صرة فصكت وجهها، فهنا ذكرت حركات التعجب، وفي آية هود ذكر لفظ التعجب؛ لتكتمل الصورة بكل ما فيها، ويكون ذلك أبلغ في التعبير. وكذا في تقديم البشارة وتأخيرها في القصة ثم ذهاب الخوف ثم مجادلة إبراهيم ﵇ الملائكة في قوم لوط؛ فلأنَّ السياق يتطلب تقديم الهدف الذي يحرص السياق على إبرازه وجعله المحور الذي من أجله قدم هذا وأخر هذا لمناسبته تقوية للدلالة على المراد،

---

(١) التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور: ٢٧/ ٢٥، خصائص النظم في قصة إبراهيم ﵇، الشحات محمد: ١٥٤-١٥٥

وفي قوله: ﴿ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴾هود: ٧٤، لم يُبيِّن هنا ما جادل به إبراهيم الملائكة في قوم لوط، ولكنَّه أشار إليه في العنكبوت بقوله ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ... ﴾ العنكبوت: ٣١ – ٣٣[1].

ثم تأتي سورة النحل، وتسمى بسورة النعم، ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ النحل: ١٢٠ – ١٢٤، وجاءت الإشارات فيها عن إبراهيم عليه السلام متفقة مع موضوع السورة، لِيُبيِّنَ شكر إبراهيم عليه السلام لما أنعم الله عليه، فزاده وأدام عليه نعمه. والمقصود أنَّهم كانوا في الجاهلية ثم اتبعوا الإسلام، فبعد أن بشرهم بأنَّه غفر لهم ما عملوه من قبل زادهم فضلا ببيان فضل الدين الذي اتبعوه. وجعل الثناء على إبراهيم عليه السلام مقدمة لذلك؛ لبيان أنَّ فضل الإسلام فضل زائد على جميع الأديان بأنَّ مبدأه برسول ومنتهاه رسول، وهذا فضل لم يحظ به دين آخر[2]. وفيه تعريض باليهود الذين خرجوا على شريعة أبيهم إبراهيم خروجاً صارخاً، فكفروا بأنعم

(١) أضواء البيان، محمد الشنقيطي: ٢/ ١٨٧

(٢) التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور: ١٣/ ٢٥٣

الله، ومكروا بآياته، وكذبوا رسله، وتنكبوا طريق الحق، وركبوا طُرُقَ الضلال[1]. وقد وصف الله تعالى إبراهيم ﷺ بتسع صفات هي:

١. أنَّه كان أمة، أي كان وحده أمة من الأمم؛ لكماله في صفات الخير. وأنَّه الإمام الذي يقتدى به.

٢. كونه قانتاً لله، أي خاشعاً مطيعاً لله قائما بأمره.

٣. كونه حنيفاً، أي مائلا عن الشرك والباطل قصداً إلى التوحيد.

٤. أنَّه ما كان من المشركين؛ بل كان من الموحدين في الصغر والكبر، فهو الذي قال لملك زمانه ﴿ رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ ﴾ البقرة: ٢٥٨، وهو الذي أبطل عبادة الأصنام والكواكب بقوله ﴿ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴾ الأنعام: ٧٦ ، ثم كسر الأصنام حتى ألقوه في النار.

٥. شاكراً لأنعم الله عليه، والأنعام وإن كان جمع قلة إلا أنَّ المراد به أنَّه كان شاكرا لجميع نعم الله إن كانت قليلة، فبالأولى الكثيرة، وهذا كما قال تعالى ﴿ وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾ النجم: ٣٧ ، أي قام بجميع ما أمره الله تعالى به. وهذا تعريض بكل من جحد بأنعم الله مثل قريش وغيرهم.

٦. أنَّه اجتباه ربه، أي اختاره واصطفاه للنبوة.

٧. أنَّه هداه إلى صراط مستقيم، أي في الدعوة إلى الله والترغيب في الدين الحق، والتنفير عن الدين الباطل.

---

(١) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب: ١/ ٣٢٦

٨. وآتاه الله في الدنيا حسنة.

٩. وأنَّه في الآخرة لمن الصالحين، أي في زمرتهم.

وبعد تعداد هذه الصفات العالية لإبراهيم عليه السلام، أمر الله نبيه ﷺ باتباعه[(١)].

ثم تأتي سورة إبراهيم عليه السلام، وهي موضوع البحث كما سيأتي مفصلاً.

ثم تأتي سورة الأنبياء، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ

---

(١) التفسير المنير، وهبة الزحيلي: ١٤/ ٢٧٠-٢٧٢

وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴾ الأنبياء: ٥١ – ٧٣ ، ذُكِرَت قصة إبراهيم عليه السلام بعد الحديث عن موسى عليه السلام، وتبدأ القصة بما أكرم الله به إبراهيم عليه السلام من الرشد، "وفي إسناد الإيتاء إلى ضمير الجلالة للتنبيه على تفخيم ذلك الرشد الذي أوتيه. والرشد: الهدى والرأي الحق، وضده: الغي، وزاد تنويهاً وتفخيماً تذييله بالجملة المعترضة قوله تعالى ﴿وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ : أي آتيناه رشداً عظيماً على علم منا بإبراهيم، بكونه أهلا لذلك الرشد، وعلم من سريرته صفات قد رضيها وأحمدها فاستأهل بها اتخاذه خليلاً"[١]، وهي كلمة جامعة تدل على سلامة العقيدة والسلوك الخَيِّر، إنها تَدُلُّ على التوفيق في العلم والعمل، وصدق الظاهر والباطن. والقصة تحدثنا عن محاورة إبراهيم عليه السلام مع قومه، فيأتي التساؤل من إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ الأنبياء: ٥٢ ، يستنكر عكوفهم ولزومهم لهذه التماثيل. وفي هذه التسمية ما يدل على حقارة شأنها؛ لأنَّ التماثيل ما هي إلا أشكال صنعت لتشبه صوراً مخصوصة. وهذا كاف في ضآلتها وكونها غير مستحقة لهذا العكوف، ولا يجد القوم ما يجيبون به عن أحقية هذه التماثيل بعبادتهم وعكوفهم؛ ولكنَّهم يتهربون من الإجابة مُدَّعين أنَّهم إنما قلدوا في عبادتها، والعكوف لها آباءهم دون أن يكون لهم نظر مستقل في شأنها. ويجيبهم عليه السلام أنَّهم هم وآباؤهم

(١) التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور:١٧/ ٦٨

مستغرقون في الضلال، منغمسون فيه؛ وكأنَّه يُبَيِّن لهم أنَّ الباطل لا يمكن أن يصير حقاً مهما كثر أتباعه وتعدد أنصاره، ويردون عليه متجاهلين الحديث عن هذه الأصنام والتماثيل، متسائلين: تُرى أجئتنا بالحق أم أنت لا تزالُ منغمساً في لهوك ولعبك، ويجيبهم ﷺ جواب الداعية الواثق من دعوته الذي لا ينتقم لنفسه، مبلغاً رسالة ربه، بأنَّ ربهم الذي ربَّاهم وأنعم عليهم حري به أن يُعْبَدَ وهو رب السماوات والأرض، وأنَّ هذه عقيدته وهذا هو دينه وهو على ذلك من الشاهدين. وقرر بعد قَسَمِهِ أن يدبر أمراً لأصنامهم بعد أن يذهبوا للهوهم ولعبهم في عيدهم، وقد برَّ بِقَسَمِهِ فحطَّم الأصنام وجعلها جذاذاً وقطعها قطعاً؛ وأبقى كبير هذه الأصنام دون أذى ليرجعوا إليه بعد مجيئهم من عيدهم؛ فتساءلوا من الذي فعل بآلهتهم هذا الفعل، ويقول بعضهم الذين سمعوا ذلك الفتى يذكر أصنامهم بسوء وهو ذلك الذي يقال له: إبراهيم، ويقررون أن يأتوا بإبراهيم ﷺ أمام جموعهم وعلى أعينهم، ويقرر بما فعل: ﴿ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴾ الأنبياء: ٦٢. فَرَدَّ: ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴾ الأنبياء: ٦٣، وهذا ليس كذباً في حقيقته وإنما هو من باب التعريض والتورية، فليسألوه إن كان يستطيع جواباً، فيرجعون إلى أنفسهم ويقروا بأنَّهم على باطل ﴿ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ الأنبياء: ٦٤، كيف تعبدون هذه الأصنام التي لا تستطيع أن تدفع عن نفسها سوءاً ولا ترد ضُرّا، ثم يرجعون إلى غيهم فَيَنْكِسُون على رؤوسهم يطرقونها خجلين مفكرين، كيف نسألهم وأنت تعلم أنَّهم لا يستطيعون نطقاً ولا يحيرون جواباً،

فيلزمهم إبراهيم عليه السلام الحجة فتعبدون ما لا يجلب لكم نفعاً ولا ضراً، إنَّ ذلك يدعو إلى التضجر والتأفف منكم ومما تعبدون، ألا تستعملوا عقولكم، ولما لم يجد القوم ما يدافعون به عن ضلالهم وليس لهم حجة، هرعوا إلى القوة ﴿ قَالُواْ حَرِّقُوهُ ﴾ الأنبياء: ٦٨ ، فتأتي المعجزة من الله عز وجل ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا ﴾ الأنبياء: ٦٩. ونجى الله إبراهيمَ ولوطاً عليهما السلام ووهب إبراهيم إسماعيل وإسحاق عليهم السلام، ولقد أشير إلى هذه القصة في سورة الصافات كما مَرَّ سابقاً؛ ولكن كانت إشارة مجملة بخلاف التفصيل في هذه السورة لا من جهة الموضوع أو دقة التعبير ومن حيث بعض المفردات كذلك، فلكل قصة نسقها والتكرار منتفي[(١)]، وهذا العمل الذي عمله إبراهيم عمله بعد أن جادل أباه وقومه في عبادة الأصنام والكواكب ورأى جماحهم عن الحجة الواضحة كما ذكر في سورة الأنعام[(٢)].

ثم تأتي سورة الحج، وهي مختلف في مكيتها ومدنيتها، فجمهور المفسرين على أنَّها مكية إلا بضع آياتٍ قيل: بأنَّها مدنية[(٣)]، حدثتنا السورة أنَّ الله أكرم إبراهيم فبوأ له مكان البيت، وأمره أن يعبده وحده، وأن يطهر

(١) خصائص النظم في قصة إبراهيم عليه السلام، الشحات محمد:١٦٣ ، التفسير المنير، وهبة الزحيلي:١٧/ ٧٢

(٢) التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور:١٧/ ٧٢

(٣) الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب:٧/ ٤٨٣٣، معالم التنزيل، الحسين البغوي:٣/ ٣٢٢، اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل الحنبلي:١٤/ ٣

بيته للطائفين والقائمين والركع السجود، وأن يؤذن في الناس بالحج. هذه الإشارة التي اكتفت بها سورة الحج ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦) وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ الحج:٢٦ –٢٧، وهي عطف على جملة ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ ﴾ الحج: ٢٥ ، "عطف قصة على قصة، ويعلم منها تعليل الجملة المعطوفة عليها بأنَّ الملحد في المسجد الحرام قد خالف بإلحاده فيه ما أراده الله من تطهيره حين أمر ببنائه، والتخلص من ذلك إلى إثبات ظلم المشركين وكفرانهم نعمة الله في إقامة المسجد الحرام وتشريع الحج"[(١)].

ثم تأتي سورة العنكبوت، قال تعالى: ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٦) إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١٧) وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٨) أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١٩) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ۚ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (٢١) وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ

(١) التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور:١٧/ ١٧٤، التفسير الوسيط، وهبة الزحيلي:٩/ ٢٩٨

﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِن رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِن نَاصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ۞ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ العنكبوت: ١٦ -٢٧، وهي آخر السورة المكية التي تحدثت عن إبراهيم عليه السلام، "فانتقل من خبر نوح إلى خبر إبراهيم عليهما السلام لمناسبة إنجاء إبراهيم من النار كإنجاء نوح من الماء"(١)، وكان الحديث فيها عمَّا كان بينه وبين قومه، "ودعوة إبراهيم عليه السلام لقومه كانت قائمة على أمرين هما دعوة جميع الرسل الكرام عليهم السلام وهما: الدعوة لعبادة الله وحده سبحانه، والدعوة لتقوى الله سبحانه"(٢). والجانب الآخر عن مجيء الرسل من الملائكة، وهو متناسب مع موضوع السورة؛ إذ تُبَيِّن ما تَحَمَّلَه الأنبياء وما ينبغي أن يَتَحَمَّلَه الدعاة ورثتهم تُبَيِّنُ النتائج الطيبة التي يكرم الله بها الأنبياء قدوة العلماء. "ومن المحاجة إقام إبراهيم عليه السلام دليلاً على الرسالة بقوله: ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ العنكبوت: ١٨، وبعد بيان الأصل الأول والاستدلال

(١) التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور: ٢٠/ ١٥٠
(٢) آيات التقوى في القرآن الكريم، حسين الجبوري: ١/ ١٢١

عليه وهو التوحيد، والإشارة إلى الأصل الثاني وهو الرسالة، شرع في بيان الأصل الثالث وهو الحشر أو البعث والنشور، وهذه الأصول الثلاثة متلازمة لا يكاد ينفصل ذكر بعضها عن بعض في البيان الإلهي"[1].

هذا هو ما ذكره الله ﷻ في كتابه مما جاء في السور المكية عن إبراهيم عليه السلام.

وأما السور المدنية ففي مجملها تشمل موضوعات ثلاثة:

الأول: بناء إبراهيم عليه السلام للبيت العتيق، وما يتصل بذلك من دعواته لهذه الأمة.

الثاني: تبرئته عليه السلام من أن يكون يهودياً أو نصرانياً أو مشركاً.

الثالث: براءته عليه السلام صراحة من أبيه، بعد أن تبين أنَّه عدو لله ﷻ.

ونجد أنَّ هذه الموضوعات الثلاثة تقتضيها طبيعة العهد المدني؛ لأنَّها ذات صلة مباشرة بما كان بين المسلمين وبين غيرهم من أهل الكتاب؛ كما أنَّها ذات صلة مباشرة بتحويل القبلة، وهي كذلك ذات صلة مباشرة بالتأكيد على نوع العلاقة التي ينبغي أن تكون بين المؤمنين وبين أقربائهم وذويهم إذا اختار أولئك الأقرباء الكفر على الإيمان، ومع هذا كله نجد أنَّ شائبة التكرار منتفية انتفاءً تاماً.

سورة البقرة، فأمَّا الحديث عن البيت ورفعه والدعاء لأهله فهو موضوع البحث كما سيأتي مفصلاً، وقد جاء في سورة البقرة إشارة إلى قضيتين:

الأولى: الملك الذي حَاجَّ إبراهيم عليه السلام في ربه، وكان حرياً به أن يشكر

(١) التفسير المنير، وهبة الزحيلي: ٢٠/ ٢٢١

نعم الله لا أن يكفر؛ ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ البقرة: ٢٥٨ ، قيل: إنه النمرود، فقال له إبراهيم ﴿ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾ البقرة: ٢٥٨ فأجاب: ﴿ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ﴾ البقرة: ٢٥٨ ، فارتقى إبراهيم عليه السلام إلى ما هو أعلى مقاماً فقال: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ﴾ البقرة: ٢٥٨.

الثانية: في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ البقرة: ٢٦٠ .

وفي هذه الآية نُبيِّن ما يلي:

أولاً: لا يفهم من هذا أنَّ إبراهيم عليه السلام كان شاكاً، فأراد أن يذهب هذا الشك، فأسلوب الآية لا يدل على ذلك ، فإبراهيم عليه السلام يطلب من الله عز وجل أن يريه كيف يحيي الموتى، ويقول ﴿ أَوَلَمْ تُؤْمِن ﴾ البقرة: ٢٦٠ وهو سبحانه يعلم إيمانه، ويقول إبراهيم عليه السلام ﴿ بَلَىٰ ﴾ البقرة: ٢٦٠، وهذه الكلمة تدل على الإيجاب، أي: "بلى قد آمنت" ولكن ليطمئن قلبي.

ثانياً: أنَّ طمأنينة القلب لا تعني الشك والارتياب، وقد جاءت بعض الآيات التي ذكرت فيها الطمأنينة والمخاطبين لم يكونوا شاكين،

كقوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ﴾ آل عمران: ١٢٦ ، وهذا خطاب للرسول ﷺ وللمؤمنين الصادقين.

ثالثاً: أنَّ درجات العلم ثلاثة "علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين"، والذي طلبه إبراهيم عليه السلام أن يرى هذا الدليل معاينة؛ فليس من رأى كمن سمع.

رابعاً: أنَّ النبي ﷺ نفى الشك عن إبراهيم عليه السلام، فقال ﷺ: (نحن أحق بالشك من إبراهيم)[(١)] .[(٢)]

ثم تأتي سورة آل عمران، وقد جاء فيها الإشارة إلى قضيتين:

الأولى: خطاب لليهود والنصارى في منازعتهم ومجادلتهم في إبراهيم عليه السلام؛ حيث يدعي كل منهم أنه عليه السلام كان على دينه؛ فرد الله عليهم ونبه على حماقتهم، وأن أقرب الناس وأخصهم بإبراهيم عليه السلام الذين اتبعوه[(٣)]؛ فقال: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ آل عمران: ٦٥ – ٦٨

(١) سبق تخريجه :١

(٢) خصائص النظم في قصة إبراهيم عليه السلام، الشحات محمد:٤٣٧-٤٤٨ بتصرف

(٣) روح المعاني، محمد الألوسي:٢/ ١٨٧-١٨٨ بتصرف

الثانية: في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ﴾ آل عمران: ٩٦ – ٩٧ جاءت بإشارة موجزة عن أنَّ أول بيت وضع للناس لهو هذا البيت العتيق الذي ببكة مباركاً، وهدى للعالمين، فيه آيات بَيِّنَات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً.

ثم تأتي سورة الممتحنة، ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ الممتحنة: ٤ –٥، وهي التي نهي فيها المؤمنون أن يتخذوا عدو الله وعدوهم أولياء وللسورة سببها وهو ما جرى قبيل فتح مكة من أحد الصحابة رضي الله عنهم، ويأتي ذكر إبراهيم في هذا المقام متسقاً مع ما جاءت السورة من أجله. "والتأسي هنا في ثلاثة أمور:

أولاً: التبرؤ منهم ومما يعبدون من دون الله.

ثانياً: الكفر بهم.

ثالثاً: إبداء العداوة والبغضاء وإعلانها وإظهارها أبداً إلى الغاية المذكورة حتى يؤمنوا بالله وحده، وهذا غاية في القطيعة بينهم وبين قومهم، وزيادة عليها إبداء العداوة والبغضاء أبداً، والسبب في ذلك هو الكفر، فإذا

آمنوا بالله وحده انتفى كل ذلك بينهم"[1].

ثم تأتي سورة براءة، قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾ التوبة: ١١٣ - ١١٤، وهي السورة التي ذكر فيها المنافقون، وما كان من استغفار المؤمنين والنبي ﷺ لهم ، فتذكر السورة نبأ إبراهيم عليه السلام، ونجد ما جاء في سورة براءة ليس هو ما جاء في سورة مريم ولا ما جاء في سورة الممتحنة؛ لأنَّ سورة مريم والممتحنة تُبَيِّن "أنَّ إبراهيم عليه السلام وعد أباه بالاستغفار؛ ولكن سورة براءة بيَّنت أنَّه تبرأ منه بعد أن تبين له عداوته لله عز وجل"[2].

(١) أضواء البيان، محمد الشنقيطي: ٨/ ٨٥

(٢) التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور: ١٠/ ٢١٤-٢١٥

المبحث الثاني

علاقة قصة إبراهيم عليه السلام بمقصود سورتي البقرة وإبراهيم

إن سياق القصص في القرآن بهذا التناسق بينه وبين الموضوع الذي يساق فيه، ويستشهد بالقصة عليه؛ والتناسب بين أهداف القصة والسياق في السورة الواحدة؛ ليشهد بعلاقة وثيقة بين القصة ومقصود السورة وأهدافها.

ويحسن في أول العرض أن نتحدث عن علاقة كل مقطع وسياق نظمه وإدراجه في السورة التي ذكر فيها، بعد ذكر الآيات؛ فنقول:

سورة البقرة:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ

ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ البقرة: ١٢٤ – ١٣٣

"لما استقصى سبحانه وتعالى في شرح وجوه نعمه على بني إسرائيل، ثم في شرح قبائحهم في أديانهم وأعمالهم وختم هذا المقطع بما بدأ به وهو قوله ﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ البقرة: ٤٧ – ٤٨ ، شرع سبحانه ههنا في نوع آخر من البيان وهو أن ذكر قصة إبراهيم عليه السلام وكيفية أحواله، والحكمة فيه أنَّ إبراهيم عليه السلام رسول يعترف بفضله جميع الطوائف والملل، فالمشركون كانوا معترفين بفضله؛ متشرفين بأنهم من أولاده ومن ساكني حرمه وخادمي بيته، وأهل الكتاب من اليهود والنصارى كانوا أيضاً مقرين بفضله متشرفين بأنهم من أولاده، فحكى الله سبحانه وتعالى عن إبراهيم عليه السلام أموراً توجب على المشركين وعلى اليهود والنصارى قبول قول محمد ﷺ والاعتراف بدينه والانقياد لشرعه.

وبيانه من وجوه:

أحدها: أنَّه تعالى لما أمره ببعض التكاليف؛ فوفى بها وخرج عن عهدتها؛ لا جرم نال النبوة والإمامة وهذا مما ينبه اليهود والنصارى والمشركين على أن الخير لا يحصل في الدنيا والآخرة إلا بترك التمرد والعناد

والانقياد لحكم الله تعالى وتكاليفه.

ثانيا: أنَّه تعالى حكى عنه أنَّه طلب الإمامة لأولاده فقال الله تعالى ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ البقرة: ١٢٤ ، فَدَلَّ ذلك على أنَّ منصب الإمامة والرياسة في الدين لا يصل إلى الظالمين، فهؤلاء متى أرادوا وجدان هذا المنصب وجب عليهم ترك اللجاج والتعصب الباطل.

ثالثا: أنَّ الحجج من خصائص دين محمد ﷺ، فحكى الله تعالى ذلك عن إبراهيم ليكون ذلك كالحجة على اليهود والنصارى في وجوب الانقياد لذلك.

رابعا: أنَّ القبلة لما حولت إلى الكعبة شق ذلك على اليهود والنصارى، فَبَيَّنَ الله تعالى أنَّ هذا البيت قبلة إبراهيم الذي يعترفون بتعظيمه ووجوب الاقتداء به فكان ذلك مما يوجب زوال ذلك الغضب عن قلوبهم.

خامسا: أنَّ من المفسرين من فَسَّرَ الكلمات التي ابتلى الله تعالى إبراهيم بها بأمور يرجع حاصلها إلى تنظيف البدن وذلك مما يوجب على المشركين اختيار هذه الطريقة؛ لأنَّهم كانوا معترفين بفضل إبراهيم عليه السلام، ويوجب عليهم ترك ما كانوا عليه من التلطخ بالدماء وترك النظافة.

ومن المفسرين من فَسَّرَ تلك الكلمات بأنَّ إبراهيم عليه السلام صبر على ما ابتلى به في دين الله تعالى وهو النظر في الكواكب والقمر والشمس ومناظرة عبدة الأوثان، ثم الانقياد لأحكام الله تعالى في ذبح الولد والإلقاء في النار وهذا يوجب على هؤلاء اليهود والنصارى والمشركين الذين يعترفون

بفضله أن يتشبهوا به في ذلك ويسلكوا طريقته في ترك الحسد والحمية وكراهة الانقياد لمحمد ﷺ، فهذه الوجوه –وغيرها– التي لأجلها ذكر الله ﷻ قصة إبراهيم عليه السلام.

وما ذكر عن إبراهيم عليه السلام أمور يرجع بعضها إلى الأمور الشاقة التي كلفه بها ، وبعضها يرجع إلى التشريفات العظيمة التي خصه الله بها"[1].

سورة إبراهيم:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ ﴾ إبراهيم: ٣٥ – ٤١

بعد أن ذكر الله سبحانه وتعالى كثيراً من النعم ، وَبَيَّنَ أَنَّ نعمه لا تحصى، وأنَّ الإنسان ظلوم كفار بقوله: ﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ إبراهيم: ٣٤،

---

(١) التفسير الكبير، الرازي: ٤/ ٣٣-٣٤، اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل الحنبلي: ١/ ٣٧٣

وذكر الله تعالى بالأدلة الحسية والسمعية انفراده بالألوهية وأن لا معبود إلا هو، ذكر هنا أبا الأنبياء إبراهيم عليه السلام في حصانته للتوحيد ومبالغته في هدم الشرك والأوثان، ثم ذكر موقف الظالمين يوم الدين وما يعتريهم من الذُلِّ والهوان في يوم الحشر الأكبر.

"والآيات التي تسبقها تشتمل على تعجيب من أمر كفار مكة، الذين بدلوا نعمة الله كفراً، وتذكر بآيات الله ودلائل قدرته ونعمه التي لا تحصى ومقابلة الناس لهم بالكفران والجحود؛ وتأتي عقبها هذه الآيات من قصة إبراهيم لتذكر هؤلاء بأبيهم إبراهيم الذي استقام على أمر الله تعالى، وأنكر عبادة الأوثان، وأعلن شكره وحمده وضراعته لله تعالى على ما أولاه من نعم، وما حباه من كرم، وفي تذكيرهم بهذه المشاهد حث لهم على الاقتداء بأبيهم الذي يفخرون بالانتساب إليه، ودعوة لهم إلى اتباع الرسول ﷺ، وشكر الله تعالى على النعم التي وهبها لهم وأولاهم إياها؛ ومنها نعمة البيت الحرام الذي جعله الله مثابة للناس وأمنا، ورزقهم في رحابه من جميع الثمرات" [1].

---

(١) التفسير الكبير، الرازي:١٩/ ١٣١

المبحث الثالث

أغراض قصة إبراهيم عليه السلام في سورتي البقرة وإبراهيم

ليست القصة القرآنية عملا يقتصر القصد به على السرد والرواية؛ وغرضه المؤانسة وتجديد النشاط؛ وما يحصل من استغراب مبلغ تلك الحوادث من خير أو شر؛ بل هي وسيلة إلى تحقيق أغراض دينية وفوائد جمة، ولذلك نرى القرآن يأخذ من كل قصة أشرف مواضيعها، فيسوقها في مظان الاتعاظ والاعتبار بها؛ وما توافر فيها من الفوائد(١).

أولاً: من أغراض سورة البقرة:

جاء في سورة البقرة اختبار إبراهيم عليه السلام، وخصائص البيت الحرام ، وفضائل مكة (٢).

وَبَيَّنَ بهذه المناسبة فضائل المسجد الحرام، وبانيه، ودعوته لذريته بالهدى، والاحتراز عن إجابتها في الذين كفروا منهم، وأنَّ الإسلام على أساس ملة إبراهيم وهو التوحيد، وأنَّ اليهودية والنصرانية ليستا ملة إبراهيم، وأنَّ من ذلك الرجوع إلى استقبال الكعبة ادَّخره الله للمسلمين آية على أنَّ الإسلام قائم على أساس الحنيفية، وذكر شعائر الله بمكة، وإبكات أهل الكتاب في

---

(١) قال أبو عبيد:" إن القصص التي قصها الله عن الأمم الماضية وما عاقبها به ظاهرها الإخبار بهلاك الأولين؛ إنما هو حديث حدَّث به عن قوم، وباطنها وعظ الآخرين وتحذيرهم أن يفعلوا كفعلهم، فيحل بهم مثل ما حل بهم" الإتقان في علوم القرآن، السيوطي:٤/ ١٩٦

(٢) التفسير المنير، وهبة الزحيلي:١/ ٣٠١

طعنهم على تحويل القبلة[١].

ففي معظمها تدور حول تعداد أمور جليلة كلف بها إبراهيم عليه السلام أو قام بها إثر التكليف، تعلو نبرة التذكير بهذه الأعمال عن طريق "إذ" الذي فيها تذكير بالوقت وما حدث فيه فبداية الآية الأولى ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ﴾ البقرة: ١٢٤، والثانية ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا﴾ البقرة: ١٢٥، والثالثة ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ﴾ البقرة: ١٢٦ ، والرابعة ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ﴾ البقرة: ١٢٧. ويأتي الدعاء فتعلو نبرة الخشوع والخضوع، ثم تعود نبرة التذكير وإن كانت أخف من السابق ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ﴾البقرة: ١٣١، ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى﴾ البقرة: ١٣٣[٢].

ثانياً: من أغراض سورة إبراهيم :

تظهر نبرة الدعاء في سورة إبراهيم ؛ وتعلوها نبرة الخشوع والخضوع والتضرع لله رب العالمين، فتبدأ كل آية فيها بنداء الرب سبحانه وتعالى، فالآية الأولى بعد البداية المذكرة بالوقائع ينادي إبراهيم ربه : ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ إبراهيم: ٣٥، ويستمر في ترديد هذا النداء الخاشع المستجلب للإجابة إلى آخر الحلقة[٣].

---

(١) التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور: ١/ ٢٠٥

(٢) خصائص النظم القرآني في قصة إبراهيم عليه السلام: ٤٢٤

(٣) المرجع السابق

وفي هذه السورة إشارة صريحة إلى تناول موضوع الأصنام ، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ إبراهيم: ٣٥ – ٣٦ [١].

والقصة في سورة إبراهيم هي الحلقة الأولى من الحلقات التي تتصل بالبيت الحرام ودعاء إبراهيم فيه حسب ترتيب النزول، وهي تحكي آيات هذه الحلقة – كما ذكرت – جملة من دعاء إبراهيم عليه السلام، ولعل "ما حكى عنه عليه السلام من الأدعية والأذكار وما يتعلق بها ليس بصادر عنه على الترتيب المحكي، ولا على وجه المعية؛ بل صدر عنه في أزمنة متفرقة حكى مرتبا للدلالة على سوء حال الكفرة بعد ظهور أمره في الملة، وإرشاد الناس إليها، والتضرع إلى الله تعالى لمصالحهم الدينية والدنيوية" [٢].

وفيه تذكير للفريقين بحال إبراهيم عليه السلام ليعلم الفريقان من هو سالك سبيل إبراهيم عليه السلام ومن هو ناكب عنه من ساكني البلد الحرام، وتحذيرهم من كفران النعمة، وإنذارهم أن يحل بهم ما حل بالذين ظلموا من قبل، وتثبيت للنبي ﷺ [٣].

وإن كان بعضهم حاول ترتيب الأحداث والوقائع كما فعل أبو السعود، فقد حاول أن يرتب هذه الحوادث المحكية بناء على الظاهر، وَيُبَيِّنَ

(١) الجانب الفني في قصص القرآن، عمر باحاذق: ٣٦ . بتصرف

(٢) إرشاد العقل السليم ، محمد أبو السعود:٥/ ٥٤

(٣) التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور:٧/ ١٧٩ بتصرف يسير

سِرَّ الترتيب الذي وردت عليه في القرآن الكريم، فقال: واعلم أنَّ الظاهر ما جرى من الأمور المحكية هو الابتلاء وما يتبعه، ثم دعاء البلدية والأمن، وما يتعلق به، ثم رفع قواعد البيت وما يتلوه، ثم جعله مثابة للناس، والأمر بتطهيره . ولعل تغيير الترتيب الوقوعي في الحكاية، لنظم الشؤون الصادرة عن جنابه تعالى في سلك مستقل، ونظم الأمور الواقعة من جهة إبراهيم وإسماعيل – عليهما السلام – من الأفعال والأقوال في سلك آخر. وأما قوله تعالى :﴿وَمَن يَكْفُرْ﴾ البقرة: ١٢١ إلخ ؛ فإنما وقع في تضاعيف الأحوال المتعلقة بإبراهيم لاقتضاء المقام ، واستيجاب ما سبق من الكلام ذلك ، بحيث لم يكن بد منه أصلاً ، كما أنَّ وقوع قوله عليه السلام ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ البقرة: ١٢٤، في خلال كلامه سبحانه لذلك [١].

(١) إرشاد العقل السليم ، محمد أبو السعود:١/ ١٦١

المبحث الرابع

أوجه الاتفاق الموضوعية والأسلوبية في سورتي البقرة وإبراهيم

إن الله ﷻ ساق كل قصة، وما تكرر منها، آخذا بأشرف مواضيعها؛ فلا يؤثر تفرقها بين السور؛ فكل قصة في القرآن الكريم يراعى فيها المناسبة الموضوعية التي تحدد القدر الذي يعرض من القصة في كل موضع ، كما تحدد طريقة العرض وخصائص الأداء، في الأسلوب الذي صيغت فيه، ومن ذلك ما جاء في الموضعين –هنا– من قصة إبراهيم عليه السلام:

١. **الحوار بين الله ﷻ وإبراهيم عليه السلام**:

افتتحت القصة في السورتين بـ"إذ" الظرفية، المنصوب على المفعولية لفعل محذوف تقديره : اذكر[1].

ففي ﴿ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ ﴾ البقرة: ١٢٤ ، حيث فصل بين قال وما قبلها؛ لأنها جاءت عن سؤال مقدر. والخطاب موجه إلى النبي ﷺ حيث أنزل القرآن عليه، فإبراهيم عليه السلام هو القدوة، سواء لأمة محمد ﷺ كما في سورة إبراهيم، أم لأهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين يدعون اقتداءهم بإبراهيم عليه السلام كما في سورة البقرة.

كلا الحوارين جاء بتكرار لفظ الربوبية "رب"، وفي إيثار الرب المشعر بتربيته والعناية به، مع إضافته إلى ضميره إيذان بإجابة دعاءه وتحقق

(١) المرجع السابق:١/ ٧٩

رجائه[١]. والإشارة إلى أن كل دعوة من هذه الدعوات مقصود بالذات، ومستقلة في مضمونها عن الدعوات الأخرى، وأنَّ الدعاء من لوازم الربوبية لذا يشمل المسلم والكافر. "وكل النداءات السابقة جاءت بلفظ "رب" أو "ربنا " حسب المقامات الواردة فيها، لما في ذلك من استجلاب للإجابة بما يتضمنه اللفظ من دلالة على أنَّ المدعو ﷻ وهو مربيه ، ومتولي أمره، ورحيم به ، ولن يَرُدَّ دعاءه ، أو يرجعه صفر اليدين"[٢].

تنوعت الجمل في القصتين بين الجمل الخبرية والجمل الإنشائية، ومنها: ﴿ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾البقرة: ١٢٤ ، ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ﴾ البقرة: ١٢٧ ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ إبراهيم: ٣٦ ، ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي ﴾ إبراهيم: ٣٧.

ومن الجمل الإنشائية : ﴿ وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَاتِ ﴾ البقرة: ١٢٦ ، ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا ﴾ إبراهيم: ٣٥ ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ إبراهيم: ٤١ ، ﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ البقرة: ١٢٥ ففي الآية الأخيرة جاءت على قراءة الأمر بكسر الخاء عند ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وحمزة و الكسائي، وقرأ نافع وابن عامر بفتح الخاء؛ على أنَّه فعل ماضٍ معطوف على جعلنا فيكون خبراً[٣] [٤].

(١) خصائص النظم القرآن في قصة إبراهيم ﷺ، الشحات محمد:٣٤٥

(٢) المرجع السابق:٥٦٨.

(٣) كتاب السبعة في القراءات، أحمد ابن مجاهد:١٧٠، الحجة في القراءات السبع، الحسين بن خالوية:٨٧

(٤) أضواء البيان، محمد الشنقيطي : ٤/ ٤١٠.

وفي قراءة الأمر استحضارا لصورة المأمورين حاضرين والأمر يوجه إليهم، فهو تصوير للماضي بصورة الحاضر؛ ليقع في نفس المخاطبين بالقرآن أنَّ الأمر يتناولهم، وأنه موجه إليهم كما وجه إلى سلفهم في عهد أبيهم إبراهيم[1].فجملة ﴿وَٱتَّخِذُواْ﴾ البقرة: ١٢٥ ، إنشائية لفظا خبرية في المعنى[2].

٢. **دعاء إبراهيم** عليه السلام:

اتفق أسلوبا السورتين في الدعاء من خلال :حذف ياء النداء من "رب " وفي حذف النداء إشعار بقرب إبراهيم عليه السلام من ربه.

كما حذف ياء المتكلم في "ربي" تخفيفاً. وفي الدعاء جاء لفظ "الجعل" في عدة مواضع: ﴿ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾إبراهيم: ٣٥، وقوله: ﴿وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾البقرة: ١٢٨، وفي سورة إبراهيم ﴿ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾إبراهيم: ٣٥، وقوله: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾إبراهيم: ٣٧ ،وقوله: ﴿ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾إبراهيم: ٤٠ [3].

والنعم التي سألها إبراهيم في هذه الآيات يظهر فيها معنى التحويل من حال إلى حال، والتصيير من شيء إلى شيء، ومن ثم ناسبها لفظ الجعل

(١) تفسير المنار، محمد رشيد رضا: ١/ ٣٧٩.

(٢) مفتاح العلوم، يوسف السكاكي: ٢٦٠.

(٣) خصائص النظم القرآني في قصص إبراهيم عليه السلام ، الشحات محمد: ٥٦١

لما يشعر به من تحويل و تصيير.

وقد جاء من دعائه في موضعين بلفظ التقبل، فقال في البقرة: ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ﴾البقرة: ١٢٧، وفي إبراهيم قال: ﴿ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴾ إبراهيم: ٤٠. والتقبل يشعر بما لا يُشعر به غيره من الاستجابة ونحوه، حيث يشير إلى أنَّ الدعاء عمل جليل مقدم من العبد إلى ربه، وهو يرجو منه أن يقبله.

وقد استهل دعاءه بأمرين لهما شأن عظيم في حياة الناس، أولهما: الأمن والطمأنينة، وثانيهما: العقيدة الصحيحة.

٣. تذييل الآيات باسمين من أسماء الله ﷻ يناسب مضمون الآية:

ختمت الآية في سورة البقرة بقوله تعالى: ﴿ وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ البقرة:١٢٨، "التَّوَّابُ الرَّحِيمُ من صيغ المبالغة، على وزن فعّال وفعيل"[1]. وفي سورة إبراهيم، قال تعالى: ﴿ فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾إبراهيم: ٣٦ ،" تأدب في مقام الدعاء ونفع للعصاة من الناس بقدر ما يستطيعه. والمعنى: ومن عصاني أفوض أمره إلى رحمتك وغفرانك. وليس المقصود الدعاء بالمغفرة لمن عصى. وهذا من غلبة الحلم على إبراهيم عليه السلام"[2]، ﴿ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾إبراهيم: ٣٨–٣٩،

(١) التفسير المنير، وهبة الزحيلي: ١/ ٣١٦.

(٢) التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور: ١٢/ ٢٦٢.

وقال: ﴿ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ إبراهيم: ٣٩، "تعليل لجملة ﴿ وَهَبَ ﴾ إبراهيم: ٣٩ ، أي وهب ذلك لأنَّه سميع الدعاء. والسميع مستعمل في إجابة المطلوب كناية، وصيغ بمثال المبالغة أو الصفة المشبهة ليدل على كثرة ذلك وأنَّ ذلك شأنه، فيفيد أنَّه وصفٌ ذاتي لله تعالى"[1].

٤. الحديث عن البلد الأمين:

جاءت كلمة "بلداً" بصيغة التنكير في سورة البقرة ، "واسم الإشارة في قوله: ﴿ هَٰذَا بَلَدًا ﴾ مراد به الموضع القائم به إبراهيم حين دعائه، وهو المكان الذي جعل به امرأته وابنه وعزم على بناء الكعبة فيه إن كان الدعاء قبل البناء، أو الذي بني فيه الكعبة إن كان الدعاء بعد البناء، فإنَّ الاستحضار بالذات مُغْنٍ عن الإشارة الحسية باليد؛ لأنَّ تمييزه عند المخاطب مُغْنٍ عن الإشارة إليه؛ فإطلاق اسم الإشارة حينئذ واضح...، وقد عدل هنا عن بيان المشار إليه اكتفاء عنه بما هو واقع عند الدعاء؛ فإنَّ إبراهيم دعا دعوته وهو في الموضع الذي بنى فيه الكعبة؛ لأنَّ الغرض ليس تفصيل حالة الدعاء؛ إنما هو بيان استجابة دعائه وفضيلة محل الدعوة، وجعل مكة بلداً آمنا ورزق أهله من الثمرات، وتلك عادة القرآن في الإعراض عما لا تعلق به بالمقصود، ألا ترى أنَّه لَّما جعل البلد مفعولاً ثانياً استغنى عن بيان اسم الإشارة، وفي سورة إبراهيم لَّما جعل ﴿ ءَامِنًا ﴾ مفعولاً ثانياً بَيَّنَ اسم الإشارة بلفظ البلد، فحصل من الآيتين أنَّ

---

(١) المصدر السابق:١٢/ ٢٦٥.

إبراهيم دعا لبلد بأن يكون آمنا. اجعل هذا المكان بلداً آمناً ، أي قرية آمنة فيكون دعاء بأن يصير قرية، وأن تكون آمنة.

وإن كان المشار إليه في وقت دعائه قرية بنى أناس حولها ونزلوا حذوها، وهو الأظهر الذي يشعر به كلام الكشاف[1] هنا، وفي سورة إبراهيم كان دعاء للبلد بحصول الأمن له وأمّا حكاية دعوته في سورة إبراهيم بقوله: ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا ﴾ فتلك دعوة له بعد أن صار بلداً"[2].

وذكر في موضوع آخر الفرق بين تنكير "بلداً" في سورة البقرة، وتعريف "البلد" في سورة إبراهيم فقيل :" في قوله تعالى: ﴿ ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا ﴾، وقوله في سورة إبراهيم : ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا ﴾ ما يشعر بأنَّ بين « البلد » و «بلداً » فرقا، وهذا ما يحدّث عنه التاريخ ، من أنَّ إبراهيم كانت له عودة إلى البلد الحرام بعد أن ترك إسماعيل وأمه فيها ، فحين تركهما لأول مرة كانت غير معمورة، فهي «بلد »لم يكتمل بعد، فلما عاد إليها بعد مدة

---

(١) قال الزمخشري: "أي اجعل هذا البلد أو هذا المكان "بلداً آمناً" ذا أمن كقوله (عيشة راضية) ، أو آمنا من فيه كقوله: ليل نائم".الكشاف:١/ ١٢١. وهو ما بينه بقوله"فإن قلت : أي فرق بين قوله : (اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا) وبين قوله : (اجْعَلْ هَـذَا الْبَلَدَ آمِنًا) ؟ قلت : قد سأل في الأوّل أن يجعله من جملة البلاد التي يأمن أهلها ولا يخافون ، وفي الثاني أن يخرجه من صفة كان عليها من الخوف إلى ضدها من الأمن، كأنه قال : هو بلد مخوف، فاجعله آمناً) تفسير الكشاف:٢/ ٥٢٣

(٢) التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور:١/ ٧١٣-٧١٤

كانت قد أخذت تعمر فهي« البلد » "[1].

وجاء في ملاك التأويل ما يسند القول السابق، إذ يقول: " قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا ﴾البقرة: ١٢٦ ، وفى سورة إبراهيم : ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا ﴾إبراهيم: ٣٥ ، فنَكَّرَ في سورة البقرة وعَرَّفَ في سورة إبراهيم بأداة العهد فيسأل عن ذلك. ووجهه والله أعلم أنَّ اسم الإشارة الذى هو "هذا "في سورة البقرة لم يقصد تبعيته اكتفاء بالواقع قبله من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ البقرة: ١٢٥ ، وتعريف البيت حاصل منه تعريف البلد؛ لا سيما بما تقدم من قول إبراهيم عند نزوله بولده بحرم الله ودعائه أولاً بقوله : "﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾إبراهيم: ٣٧ ، فتعريف البيت تعريف للبلد، فورد اسم الإشارة غير مفتقر إلى التابع المبين جنسه؛ كالجاري في أسماء الإشارة اكتفاء بما تقدمه مما يحصل منه مقصود البيان ، فانتصب بلداً مفعولاً ثانياً، وآمناً نعتاً له، واسم الإشارة مفعولاً أولاً غير محتاج إلى تابع لقيام ما تقدم مقامه، ولو تَعَرَّف لفظ بلد بالألف واللام وجرى على اسم الإشارة لم يكن ليحرز بياناً زائداً على ما تحصل مما تقدم؛ بل كان يكون كالتكرار.

---

(١) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب:١/ ١٣٥ .

فورد الكلام على ما هو أحرز للإيجاز وأبلغ في المقصود مع حصول ما كانت التبعية تعطيه فجاء على ما يجب. وأمَّا سورة إبراهيم فلم يتقدم فيها ما يقوم لاسم الإشارة مقام التابع المعرف بجنس ما يشار إليه، فلم يكن بد من إجراء البلد عليه تابعاً له بالألف واللام على المعهود الجاري في أسماء الإشارة من تعيين جنس المشار إليه باسم جامد في الغالب عطف بيان على قول الخليل، أو نعتاً على الظاهر من كلام سيبويه، وانتصب اسم الإشارة المتبع على أنَّه مفعول أول و "آمناً " على أنَّه مفعول ثان ولم يكن عكس الوارد ليحسن ولا ليناسب، وقيل في الوارد في سورة البقرة أنه أشار إليه قبل استقراره ﴿بَلَدًا﴾ فأراد جعل هذا الموضع أو هذا المكان بلداً آمناً واكتفى عن ذكر الموضع بالإشارة إليه"[1].

وأضاف الخطيب الإسكافي[2]: "والجواب الثاني : أن تكون الدعوتان واقعتين بعد ما صار المكان بلداً، وإنما طلب من الله تعالى أن يجعله آمناً...، فيجوز أن يكون المراد: اجعل هذا البلد بلداً آمناً، فيدعو له بالأمن بعد ما قد صار بلداً على ما مثَّلت، ويكون مثل قوله: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾، وتكون الدعوة واحدة قد أخبر الله تعالى عنها في الموضعين".

وهذا من المتشابه اللفظي بين كلمتي "بلداً " و "البلد " ما يشتبه

(١) ملاك التأويل، أحمد ابن الزبير :١/ ٢٣٥، وينظر: التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور:١/ ٦٩٤،وحاشية القونوي على تفسير البيضاوي، إسماعيل محمد:٤/ ٢٢٥.
(٢) درة التنزيل وغرة التأويل، محمد الأصبهاني:١/ ٢٨٤-٢٨٥.

بالتعريف والتنكير[١].

٥. الحديث عن البيت الحرام:

في سورة إبراهيم قال تعالى: ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ ﴾ إبراهيم: ٣٧ ، وسمي البيت الحرام بيتاً ولم يكن له بناء وقت الدعاء من قبيل المجاز المرسل؛ باعتبار ما كان عليه من قبل؛ فإنَّ تعدد بناء الكعبة المعظمة مما لا ريب فيه، أو باعتبار ما سيؤول إليه الأمر من بنائه عليه السلام، واختار أبو السعود التوجيه الأول[٢].

والقولان مبنيان على أنَّ دعاء إبراهيم عليه السلام كان وقت إسكانه إسماعيل وأمه هاجر بهذا الوادي قبل بنائه البيت.

ويرى ابن عاشور:" أنَّ هذا الدعاء صدر بعد زمان من بناء الكعبة وتقري مكة"[٣].

وفي سورة البقرة قال تعالى: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ ﴾ البقرة: ١٢٥، المقصود به: البيت الحرام.

وفي قوله: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ ﴾البقرة: ١٢٧، ذكر في هَذِهِ الآية رَفعُ إِبرَاهِيمَ وإسَاعِيلَ لِقَوَاعِدِ البَيتِ، وَبَيَّنَ في سُورَةِ "الحَجِّ" أَنَّهُ أَرَاهُ مَوضِعَهُ بقولِهِ: ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ ﴾

(١) البلاغة القرآنية في الآيات المتشابهات من خلال كتاب "ملاك التأويل "، إبراهيم الزيد:١/ ٣٥

(٢) إرشاد العقل السليم ، محمد أبو السعود:٥/ ٥٢

(٣) التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور:١٢/ ٢٦٣

الحج: ٢٦، أَي: عَيَّنَّا لَهُ مَحِلَّهُ وَعَرَّفناهُ بِهِ. وقد عُرِفَت الكعبة باسمِ البيتِ من عهدِ الجاهلية، والمقصود بالبيت هنا: الكعبة وَعُرِفَت بالبيت تغليباً[1].

٦. طلب إبراهيم عليه السلام من الله عز وجل أن يجنبه وبنيه عبادة الأصنام وأن يكونوا مسلمين:

لما كان نزول سورة إبراهيم مكية، ومن خصائص السورة المكية تقرير الألوهية ونبذ عبادة غير الله عز وجل، جاء السياق صريحا بطلب إبراهيم باجتناب الأصنام وتوحيد العبادة لله[2]، فقال: ﴿ وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾ إبراهيم: ٣٥، والمراد بالدعاء بالنسبة لإبراهيم عليه السلام طلب الثبات والدوام على التوحيد ودين الإسلام والبعد عن عبادة الأصنام، والمراد ببنيه أبناء صلبه، وقيل المراد: جميع نسله. فاستجيب له في البعض[3].

وجاء في سورة البقرة: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ البقرة: ١٢٥ ، والمراد بتطهير البيت : تنظيفه من ما لا يليق به من الأوثان الحسية والمعنوية، والإضافة في "بيتي" للتشريف والتكريم، وفي الأسلوب إيضاح بعد إبهام، وتفسير بعد إجمال، وهو من ألوان الإطناب، وفيه تشويق للنفس وإثارتها للوقوف على تفسير العهد[4].

---

(١) المرجع السابق:١/ ٦٨١

(٢) الجانب الفني في قصص القرآن، عمر باحاذق:٦٦.

(٣) روح المعاني، محمود الألوسي:٧/ ١٣،٢٣٤، التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور:١٣/ ٢٣٨

(٤) فتح القدير، محمد الشوكاني:١/ ٢١٥، نيل المرام من تفسير آيات الأحكام، محمد =

٧. **طلب إبراهيم عليه السلام الرزق لأهله:**

وقد جاء الدعاء بطلب الرزق في سورة إبراهيم بعد أن دعا ربه أن يجنبه وبنيه عبادة الأصنام، وذكر إبراهيم عليه السلام أنَّه أسكن ذريته بوادي غير ذي زرع عند البيت المحرم الذي لم ترفع قواعده بعد، ثم دعا بعد تحقيق الألوهية أن يقيموا الصلاة وسأل ربه أن يجعل أفئدة من الناس تهوي لهذا البيت، تهوي : فيه استعارة؛ لأنَّ حقيقة الهويّ النزول من علو إلى انخفاض، كالهبوط، والمراد : تُسْرِعُ إليهم شوقاً وحباً من مكان بعيد ، بعكس " تحنّ " فهو قد يكون من المقيم بالمكان.

ثم سأل الله أن يرزقهم من هذه الثمرات، وذكر إبراهيم لذلك مع علم الله الواسع الذي لا تخفى عليه خافية؛ إنما هو من باب التذلل والالتجاء لله عز وجل.

في حين أنَّه في سورة البقرة سأل الله أن يجعل هذا بلداً أمناً وعقب هذا السؤال بطلب الرزق من الثمرات لأهله، وخَصَّ من آمن منهم بالله واليوم الآخر؛ لأنَّهم في هذا الموضع وكون السورة مدنية قد رسخ التوحيد ووضح، استجاب الله دعا إبراهيم عليه السلام في سورة إبراهيم قدَّم الدعاء برزق أهله من الثمرات.

واللام في الثمرات : للاستغراق العرفي، أي من جميع الثمرات

=

القنوجي:١/ ٢٢. قال ابن الأنباري: تفسير العهد في اللغة: تقدمة أمر يُعلم ويحفظ من قولك: عهدت فلانا في المكان، أي: عرفته، وشهدته. زاد المسير في علم التفسير، عبد الرحمن ابن الجوزي:٤/ ٢٩٢

المعروفة للناس[١].

وفي كلا الموضعين أتى بلفظ الرزق؛ وطلب ما يختص بالطعام والتفكه ونحو ذلك يناسبه لفظ " الرزق " حيث يدل على عطاء لوقت ، ثم حمل عليه غير الموقوت[٢].

وفي سورة البقرة خَصَّ إبراهيم المؤمنين بدعائه فقال: ﴿مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾ البقرة: ١٢٦، وفي تخصيصهم بالدعاء: إظهار لشرف الإيمان، وإبانة لخطره، واهتمام بشأن أهله...، وفي حكايته ترغيب وترهيب لقريش وغيرهم لكي يؤمنوا وينالوا رزق الله[٣].

وقالوا إنما خَصَّ إبراهيم عليه السلام دعاءه بالمؤمنين؛ لأنَّه لما قال له الله عز وجل ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ البقرة: ١٢٤ ، احترز من الدعاء لمن ليس مرضياً عند الله تعالى، فَقَيَّدَ دعاءه بالمؤمنين؛ ولكنَّ الله تعالى أرشده إلى كرمه الشامل ﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ البقرة: ١٢٦، وفصل هذا عما قبله للاستئناف المبني على سؤال مقدر، كأنَّه قيل: فلماذا قال له ربه عز وجل حين طلب ذلك؟

فقيل: قال ومن كفر ... [٤].

(١) التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور :١/ ٧١٥

(٢) مقاييس اللغة، أحمد ابن فارس : مادة "رزق":١/ ٣٦٢.

(٣) إرشاد العقل السليم ، محمد أبو السعود:١/ ١٥٩

(٤) حاشية الشهاب، أحمد الخفاجي:٢/ ٢٣٧

٨. الحديث عن الصلاة :

جاء الحديث عن الصلاة في سورة إبراهيم صريحاً مرة في كونه علة وسبباً لإسكان إبراهيم عليه السلام من ذريته بواد غير ذي زرع؛ حيث قال: ﴿ لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ إبراهيم: ٣٧ ، واللام في ليقيموا "لام كي"، والأخرى في طلب إبراهيم عليه السلام من الله عز وجل أن يجعله مقيم الصلاة، فقال: ﴿ رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ﴾ إبـــــراهيم: ٤٠، و ﴿ مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ أي: مثابراً عليها، مستمراً في إقامتها، أو معدلاً لها، فيكون مجازاً، من أقمت العود إذا قومته وعدلته[1].

وتخصص الصلاة بالذكر في سورة إبراهيم من بين شعائر الدين لفضلها، وتكررها مع الأوقات؛ ولأنَّ السورة مكية فلم يُقَرَّ كثير من الشرائع فارتكز على الصلاة؛ بخلاف سورة البقرة؛ فإنَّه قال: ﴿ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا ﴾ البقرة: ١٢٨؛ لأنَّ السورة مدنية وقد شرع غيرها.

أمَّا في سورة البقرة فجاءت إشارات دالة لاستجابة الله عز وجل لدعاء إبراهيم عليه السلام حيث كَرَّمَ إبراهيم وَشَرَّفَهُ وَبَيَّنَ علو منزلته بالصلاة خلف مقامه، فقال: ﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾البقرة: ١٢٥ ، وقد سبق الحديث عنه.

وكذا في أمر إبراهيم عليه السلام بتطهير البيت للمصلين لتهيئة البقعة للصلاة فيها؛ حيث قال ﴿ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾

(١) روح المعاني، محمود الألوسي:٧/ ١٣، ٢٤٣

البقرة: ١٢٥ وقد ذكر من الصلاة الركوع والسجود وهو من إطلاق البعض وإرادة الكل.

وفي تقديم الطائفين على غيرهم في الآية لاختصاص البيت الحرام بالطواف، أمَّا العكوف والقيام والركوع والسجود فأمور تؤدى في جميع المساجد وغير المساجد[1].

وفي قوله: ﴿ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ البقرة: ١٢٥ :"التفات من أمر إلى خبر، ليقوّى من شأن الأمر، وليزيد في ظهوره"[2].

٩. ثناء إبراهيم عليه السلام على ربه عز وجل بعلمه الشامل:

وقد أثنى إبراهيم عليه السلام على الله تعالى بوصفه بما يليق بذاته؛ من علمه التام لجميع المعلومات في قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ إبراهيم:٣٨، إشارة إلى أنَّه جل جلاله عليم بما ذكره إبراهيم من ضلال كثير من الناس وبمن اتبعه وبمن عصاه، وبذريته التي أسكنها عند البيت الحرام، وبمراده من إسكانهم في هذا المكان وفي هذا تعليم لأهله وأتباعه بعموم علم الله تعالى حتى يراقبوه في جميع الأحوال، ويخلصوا النية إليه[3].

---

(١) خصائص النظم القرآني في قصص إبراهيم عليه السلام، الشحات محمد:٥٣٥

(٢) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب:١/ ١٣٤.

(٣) التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور:١٣/ ٢٤٣.

ومجيء الجملة في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ إبراهيم: ٣٨، على طريقة نفي الخفاء دون أن يقال: ويعلم ما في السموات و الأرض، تحقيقا لما عناه بقوله: ﴿تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾ إبراهيم: ٣٨، من أن علمه تعالى بذلك ليس على وجه يكون فيه شائبة خفاء بالنسبة إلى علمه تعالى، كما يكون ذلك بالنسبة إلى علوم المخلوقات[1].

ولما في هذه الطريقة من تحقيق التناسق بين نظم هذه الجملة ونظم الجملة السابقة، حيث بنيت الجملة السابقة على إثبات علم الله ﷻ بما يخفون وما يعلنون، وبنيت هذه الجملة على نفي خفاء شيء عن علم الله تعالى.

فجملة ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾تذييل يؤكد علم الله ﷻ بما يخفون وما يعلنون، بجانب ما أثبته من علم الله تعالى بكل شيء في الكون، وهو تذييل جارٍ مجرى المثل لاستقلاله في الإفادة[2].

وفي هذه الآية قَدَّمَ ﴿مَا نُخْفِي ﴾ على ﴿وَمَا نُعْلِنُ ﴾ لتحقيق المساواة بينهما في تعلق العلم بهما على أبلغ وجه، فكأنَّ تعلقه بما يخفى أقدم منه بما يعلن؛ ولأنَّ مرتبة السر والخفاء متقدمة على مرتبة العلم[3].

وفي عدم تقييد الفعلين ﴿نُخْفِي ﴾ و ﴿نُعْلِنُ ﴾ بمتعلق معين إفادة للعموم والشمول[4].

(١) إرشاد العقل السليم ، محمد أبو السعود:٥/ ٥٣. بتصرف

(٢) خصائص النظم القرآني في قصص إبراهيم عليه السلام، الشحات محمد:٥٩٥.

(٣) إرشاد العقل السليم ، محمد أبو السعود:٥/ ٥٣

(٤) روح المعاني، محمود الألوسي:٧/ ١٣، ٢٤١

وقد تقدم ذكر الأرض على السماء – حيث إنَّه خلاف المعتاد – في قوله تعالى: ﴿وَمَا نُعْلِنُۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٖ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ إبراهيم: ٣٨ ، ويذكر ابن الزبير الغرناطي سبب تقديم الأرض على السماء، قائلاً : " فناسب هذا تقديم ذكر الأرض على السماء؛ لأنَّ السماء مصعد الأمر ومحل العلو ومسكن الملائكة وهي مشاهدة لهم ...، فكان العلم بما فيها أجلى وأظهر وكان العلم بها في الأرض أخفى، وهذا بالنظر إلينا، وبحسب متعارف أحوالنا...، فلمَّا كانت الأرض بالنسبة إلى السماء فيما ذكرنا كان أمرها أخفى، وكان أمر السماء أوضح وأقرب ....، فخوطب الخلق على ذلك، فقدم ذكر ما هو عندنا وكأنَّه أخفى، فقيل عند قصد المبالغة في تأكيد الاستغراق والقسم عليه"[(١)].

وأمَّا في سورة البقرة فقد ذيل الدعاء في قوله تعالى ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ البقرة:١٢٧ ، أي السميع لجميع المسموعات التي من جملتها دعاءنا، العليم بكل المعلومات التي من زمرتها نياتنا في جميع أعمالنا، والجملة تعليل لاستدعاء التقبل.

فهما يدعوان ربهما ويقدمان بين يدي دعائهما الثناء الجميل على الله تعالى بصفاته العلى وأسمائه الحسنى، وهذا من دواعي قبول الدعاء.

وتأكيد الجملة بـ "إنَّ" وضمير الفصل "أنت"، يدل على كمال يقينهما بما تضمنته من تخصيصه تعالى بصفتي السمع والعلم، وفي الجملة قصر

(١) ملاك التأويل، أحمد ابن الزبير :١/ ٤٩٨

لهاتين الصفتين على الله تعالى عن طريق تعريف المسند باللام، وتأكد هذا القصر بضمير الفصل "أنت".

وقد أفاد القصر إظهار اختصاص دعائهما بالله ﷻ، وانقطاع رجائهما عما سواه بالكلية[1].

والمبالغة في كمال الوصفين له تعالى بتنزيل سمع غيره وعلم غيره منزلة العدم، فكأنَّه هو المختص بهما دون غيره[2].

وعلى هذا فالقصر على سبيل المبالغة، ويجوز أن يكون قصراً تحقيقياً باعتبار متعلق خاص، أي السميع لدعائنا لا يسمعه غيرك العليم بنياتنا وأعمالنا لا يعلمها غيرك[3].

وفي مجيء صفتي السمع والعلم على صيغة "فعيل" مبالغة في إثبات كمال السمع وتمام العلم لله جل شأنه.

وتقديم صفة السمع مع تأخر التقبل عن العمل للمجاورة، ولإحاطة صفة العلم وشمولها لكل الموجودات من مسموعات ومرئيات وغير ذلك[4].

وفيه يظهر الفرق بين سورة إبراهيم في عرض صفة العلم لله ﷻ،

---

(١) إرشاد العقل السليم ، محمد أبو السعود:٨/ ١٦١

(٢) التفسير الكبير، الرازي:١/ ٤٧٩، التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور:١/ ٧١٩

(٣) التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور:١/ ٧١٩

(٤) إرشاد العقل السليم ، محمد أبو السعود:٤/ ٣٤، روح المعاني، محمود الألوسي:٣/ ٣٤

وتأصيل ذلك في آية مستقلة؛ لكون السورة مكية، وبين عرضه في سورة البقرة؛ حيث رسخت العقيدة وتأصل في النفوس الإيمان بعلم الله ﷻ؛ لكون السورة مدنية.

١٠. حرص إبراهيم عليه السلام على ذريته :

حرص إبراهيم على ذريته حرصاً شديداً؛ ومن صور حرصه عليهم اختصاصهم بالدعاء في سورتي البقرة وإبراهيم، ففي سورة البقرة لما سألا لنفسيهما دوام الإخلاص لله تعالى، طلبا لذريتهما الهداية إلى الإسلام ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾ البقرة: ١٢٨. وسألا الله تعالى أن يبعث فيهم رسولا منهم فقالا: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾البقرة: ١٢٩.

وأمَّا في سورة إبراهيم فقد سأل إبراهيم عليه السلام الله تعالى أن يجنبه وبنيه عبادة الأصنام فقال: ﴿ وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾ إبراهيم: ٣٥، وأن يقيموا الصلاة فقال: ﴿ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ إبراهيم: ٣٧، وقال: ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ﴾ إبراهيم: ٤٠، وأن يجعل أفئدة من الناس تُقْبِل إليهم فقال: ﴿ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ ﴾ إبراهيم:٣٧ ، وكذا طلب الله أن يرزقهم من الثمرات فقال: ﴿ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ إبراهيم:٣٧ ، وأن يجعلهم مجابي الدعاء حيث شركهم في قوله ﴿ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴾ إبراهيم: ٤٠.

وخَصَّا ذريتهما بالدعاء؛ لأنهما أحق بالشفقة والنصيحة؛ ولأنَّ الأنبياء

إذا صلحوا صلح بهم غيرهم، وشايعوهم على الخير[1].

١١. اشتراك المؤمن والكافر في الدنيا، والتفريق بينهما في الآخرة:

جاءت الشركة بين المؤمن والكافر صريحة؛ وإن اختلف اللفظ في حق كل منهما في سورة البقرة لكون السورة مدنية، في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ البقرة: ١٢٦، فكثر الداخلون في الإسلام آنذاك، وفيها تجلت المعاني بوضوح، وعلت لهجة الوعيد، وكذا التفرقة فيما أعد الله ﷻ للمؤمن والكافر في السور المدنية، "فإن قلت: هَلاَّ قِيل: هي للذين آمنوا ولغيرهم؟ قلت: التنبيهُ على أنها خُلِقَتْ للذين آمنوا على طريق الأصالة، وأنَّ الكفرةَ تبعٌ لهم كقوله تعالى: ﴿ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ﴾ البقرة: ١٢٦. وقال التبريزي: "ولم يَذْكر الشركة بينهم وبين الذين أشركوا في الدنيا تنبيهاً أنَّه إنما خَلَقها للذين آمنوا بطريق الأصالة، والكفار تَبَعٌ لهم، ولذلك خاطب المؤمنين بقوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ البقرة: ٢٩ [2].

ثم بَيَّنَ الله ﷻ اختصاص نعيم الآخرة بالمؤمنين في قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ الأعراف: ٣٢، فقوله: ﴿ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى

(١) الكشاف، الزمخشري: ١/ ٣١١

(٢) الدر المصون في علم الكتاب المكنون، أحمد السمين الحلبي: ٤/ ٢٧٣

﴿ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، أي: مشتركة بينهم في الحياة الدنيا، ﴿خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾، أي: خاصة بهم دون الكفار يوم القيامة؛ إذ لا نصيب للكفار البتة في طيبات الآخرة.

وقد بَيَّنَ ﷻ في آيات من كتابه أن إنعامه على الكافرين ليس لكرامتهم عليه، ولكنَّه للاستدراج، كقوله تعالى: ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ القلم:٤٤. وَقَوْلِهِ ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ الأنعام: ٤٤.

وَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ آل عمران: ١٧٨.

ودعوى الكفار أنَّ الله ﷻ ما أعطاهم المال ونعيم الدنيا إلا لكرامتهم عليه واستحقاقهم لذلك، وأنَّه إن كان البعث حقاً أعطاهم خيراً منه في الآخرة، قد رَدَّهَا الله ﷻ عليهم في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ المؤمنون: ٥٥ - ٥٦. وَقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا﴾ سبأ: ٣٧، وغير ذلك من الآيات[1].

وفي سورة إبراهيم كان هذا الاختصاص للمؤمنين ضمناً؛ حيث جاء في سياق الآيات، ما ترتب عليه دعاء إبراهيم عليه السلام، من ابتدائه بالدعوة إلى

(١) أضواء البيان، محمد الشنقيطي:٧/ ١١٦. بتصرف

التوحيد، ونبذ عبادة الأصنام، وأنَّ الانتساب إلى إبراهيم عليه السلام هو من اتبعه في الملة، ومن عصاه فأمره إلى الله عز وجل.

ومن ثم ذكر العبادة، وَنَصَّ على الصلاة؛ تقدمة لطلبه الرزق بالثمرات لهم، وعلل ذلك الإنعام بأن يكونوا شاكرين، وهذا الشكر والاعتراف بالامتنان إلى الله عز وجل لا يكون إلا من المؤمنين.

ولعل الله عز وجل في هذا السياق أراد أن يرغبهم للدخول في دينه، ونبذ عبادة غيره، ويسند هذا دعوة إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ إبراهيم: ٣٦، لا سيما وأنَّ السورة مكية، فاحتيج إلى هذا الأسلوب لاستمالة القلوب واستجلابها. والله أعلم.

الخاتمة

الحمد لله الباري على نعمه، وله الثناء الحسن أولاً وآخراً، بما تفضل وأجزل، فأحمده على أن أتم هذا البحث ووفق، وقد تبين لي أثناء فترة البحث نتائج؛ من أهمها ما يلي :

- أن القصة القرآنية مستمدة من حقائق ووقائع تاريخية؛ ليس منشأها الإسهاب في الخيال، كما ظنه البعض، ورد عليه بالأدلة.
- السمة الغالبة في القصص القرآني أنها إذا تعرضت لمعنى من المعاني في موضع ثم تحدثت عن القصة في موضع آخر؛ فإنها لا تذكر ذلك المعنى فحسب؛ بل تأتي بمعنى جديد لم يكن قد ذكر في القصة من قبل؛ بحيث لو تضامت جميع الجزئيات في القصة في مختلف السورة لأعطتنا صورة متكاملة لجزئيات تفرقت في مواطنها، وفق مقتضى الحال.
- أن التكرار القصصي جاء لمقصد وأغراض متعددة، متضمنا حكماً وفوائداً، وليس مجرد سرد روائي، وأنَّ كل سورة أعيدت فيها قصة فلمعنى ادعي في تلك السورة استدل عليه بتلك القصة غير المعنى الذي سيقت له في السورة الأخرى، ومن هنا اختلفت الألفاظ بحسب تلك الأغراض، وتغيرت النظوم بالتأخير والتقديم والإيجاز والتطويل مع مراعاة المعنى الأصلي للقصة.
- أظهر البحث بعض سمات الإعجاز في القصص القرآني؛ كسمة التناسب بأنواعه وخاصة تناسب موضع القصة في السورة

القرآنية؛ مع الوحدة الموضوعية للسورة. وسمة الترتيب في القصة القرآنية كالتقديم والتأخير، والزيادة والنقص.

- أنَّ القرآن الكريم ليس كتاب تاريخ يقص الحوادث حسب تاريخ وقوعها، إنَّما هو كتاب هداية وتشريعات، وعبر وعظات، وليس بالضرورة أن تحكى الحوادث فيه وفق ترتيب وقوعها.

كما يوصي الباحث بدراسة النظم في القصة القرآنية؛ وإظهار خصائص القصة القرآنية؛ وبلاغة التشابه والتكرار؛ ومناسبة الاستدلال بها، مبرزاً الإعجاز البلاغي في استعراض القصص القرآني.

والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

فهرس المصادر والمراجع

- الإتقان في علوم القرآن، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ
- آداب المحاضرة والمناظرة، محمد الأمين الشنقيطي، شركة المدينة للطباعة والنشر، جدة.
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم : محمد بن محمد العمادي أبو السعود، دار إحياء التراث العربي – بيروت.
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت – لبنان ، ١٤١٥ هـ .
- إعراب القرآن وبيانه، محيي الدين بن أحمد مصطفى درويش، دار الإرشاد للشؤون الجامعية، دار ابن كثير، دمشق، ١٤١٥هـ
- آيات التقوى في القرآن الكريم، حسين علي خليف الجبوري، بحث متعدد الأغراض في التقوى بمعانيها المختلفة كما وردت في القرآن الكريم.
- البحر الزخار، مسند البزار، أبو بكر أحمد بن عمرو عبد الخالق البزار، تحقيق محفوظ الرحمن زين الله، مؤسسة علوم القرآن، مكتبة العلوم والحكم
- البرهان في علوم القرآن، محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي، تحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، ١٣٩١هـ

- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، تحقيق محمد علي النجار وعبد العليم الطحاوي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ١٤١٦هـ
- البلاغة القرآنية في الآيات المتشابهات من خلال كتاب " ملاك التأويل" لابن الزبير الغرناطي ، إبراهيم الزيد ،دار كنوز إشبيليا، ١٣٣١هـ.
- التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور التونسي، الدار التونسية لنشر،١٩٨٤ هـ.
- تفسير البحر المحيط، أبو حيان محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، دار الكتب، لبنان، ١٤٢٢هـ
- تفسير البيضاوي أنوار التنزيل وأسرار التأويل، عبد الله بن عمر البيضاوي، تحقيق محمد صبحي حسن، دار الرشيد، ١٤٢١هـ، بيروت
- تفسير السراج المنير، محمد بن أحمد الشربيني، دار الكتب العلمية، بيروت
- تفسير القرآن الحكيم "تفسير المنار"، محمد رشيد بن علي رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠ م.
- تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، تحقيق سامي بن محمد سلامة، دار طيبة، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ
- التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب، دار الفكر العربي
- التفسير الكبير من القرآن الكريم، محمد بن عمر الشافعي المعروف

بالفخر الرازي ، دار إحياء التراث العربي.
- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، وهبة بن مصطفى الزحيلي، دار الفكر المعاصر ، دمشق، ١٤١٨هـ
- التفسير الوسيط، وهبة بن مصطفى الزحيلي، دار الفكر، دمشق، ١٤٢٢هـ
- جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد أبو جعفر الطبري، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ
- الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق أحمد البردوني، دار الكتب المصرية
- الجانب الفني في قصص القرآن، عمر محمد باحاذق، رسالة ماجستير نوقشت في الجامعة الإسلامية ، دار المأمون للتراث.
- حاشية الشِّهاب على تفسير البيضاوي، أحمد بن محمد الخفاجي المصري الحنفي، دار صادر، بيروت
- حاشية القونوي على تفسير البيضاوي، إسماعيل بن محمد الحنفي، تحقيق عبد الله محمود محمد عمر، دار الكتب العلمية، ١٤٢٢هـ
- الحجة في القراءات السبع، الحسين بن أحمد بن خالويه، تحقيق عبد العال سالم مكرم، دار الشروق، بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠١هـ
- خصائص النظم القرآني في قصة إبراهيم عليه السلام ، الشحات محمد أبو ستيت، مطبعة الأمانة ، مصر ، ١٤١٢هـ
- الدر المصون في علم الكتاب المكنون، أحمد بن يوسف الشهير بالسمين

الحلبي، تحقيق أحمد محمد الخراط، دار القلم ، الطبعة الثانية،١٤٢٤هـ

- درة التنزيل وغرة التأويل، محمد بن عبدالله الأصبهاني ،تحقيق محمد آيدين، ١٤١٨هـ.
- دلائل النبوة، للبيهقي، تحقيق عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، ١٤٠٨هـ
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، محمود الألوسي أبو الفضل ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت.
- زاد المسير في علم التفسير، عبد الرحمن بن علي الجوزي ، المكتب الإسلامي ، الطبعة الرابعة، ١٤٠٧هـ
- الزيادة والإحسان في علوم القرآن، محمد بن أحمد بن عقيلة المكي، مجموعة رسائل جامعية، جامعة الشارقة، ١٤٢٧هـ
- شرح مشكل الآثار، أحمد محمد بن سلامة الطحاوي، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ١٤١٥هـ
- صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، علي بن بلبان الفارسي، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ١٤١٤هـ
- صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، دار السلام، ١٤١٩هـ
- الصحيح المسند من أسباب النزول، مقبل بن هادي الوادعي، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ
- صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج النيسابوري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الكتب العلمية – الطبعة الأولى١٤١٥هـ

- صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم بيروت، ١٤٠١هـ
- فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن، زكريا الأنصاري، تحقيق محمد علي الصابوني، الطبعة الأولى ، بيروت دار القرآن الكريم ، ١٤٠٣هـ
- فتح القدير الجامع بين فن الرواية والدراية، محمد بن علي الشوكاني، تحقيق سيد إبراهيم، دار الحديث ، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ
- فقه اللغة العربية، أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق عمر الطباع، مكتبة المعارف
- القاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة١٤١٣ هـ
- قصص القرآن في مواجهة أدب الرواية والمسرح، أحمد موسى سالم، بيروت دار الجيل
- القصة القصيرة، الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٨٧م
- كتاب السبعة في القراءات، أحمد بن موسى ابن مجاهد، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف القاهرة، الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم محمود ابن عمر الزمخشري الخوارزمي ،دار إحياء التراث العربي ، بيروت.
- اللباب في علوم الكتاب، عمر بن علي بن عادل الحنبلي، تحقيق عادل

عبد الموجود وعلي معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ

- لسان العرب، محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة ١٤١٣هـ
- مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، مؤسسة الرسالة، الطبعة السادسة والعشرون، ١٤١٥ هـ
- المحصول في علم أصول الفقه، محمد بن عمر الرازي، تحقيق طه جابر العلواني، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة ١٤١٨هـ
- المستدرك على الصحيحين، محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ١٤٢٢هـ
- مسند أبي يعلى الموصلي، أحمد بن علي بن المثنى التميمي، تحقيق حسين سليم أسد، دار الثقافة العربية، ١٤١٢هـ
- مسند الإمام أحمد، أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، تحقيق شعيب الأرنؤوط ورفاقه، مؤسسة الرسالة، ١٤١٦هـ
- المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية، أحمد بن حجر العسقلاني، رسائل دكتوراه، مراجعة سعد ناصر الشثري وعبد الله التويجري، دار العاصمة بالرياض،١٤١٩هـ
- معالم التنزيل، الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق محمد النمر وعثمان جمعة وسليمان الحرش، دار طيبة ، الطبعة الثانية ١٤١٤ هـ
- معجم مصطلحات أصول الفقه، مصطفى سانو، دار الفكر، بيروت

لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ

- المعجم الوسيط، إبراهيم أنيس وزملائه، الطبعة الثانية
- مفتاح العلوم ، أبو يعقوب يوسف السكاكي تحقيق نعيم زرزور ، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٩٠٣هـ.
- مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس ،تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ.
- ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل، أحمد بن الزبير الثقفي العاصمي الغرناطي، تحقيق سعيد جمعة الفلاح ،دار الكتب العلمية ، بيروت.
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، إبراهيم بن عمر البقاعي، تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٣٢هـ
- نيل المرام من تفسير آيات الأحكام، محمد صديق حسن خان القنوجي، تحقيق محمد حسن إسماعيل وأحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣م
- الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب القيسي، مجموعة رسائل جامعية، نشر جامعة الشارقة- الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ

السياق وأثره في الترجيح
بين معاني المشترك اللفظي في القرآن الكريم

د. خزامى محمد سلامه العيسى
الأستاذ المشارك بقسم الدراسات الإسلامية
كلية الآداب - جامعة الملك فيصل بالأحساء

ملخص بحث

السياق وأثره في الترجيح بين معاني المشترك اللفظي في القرآن الكريم

يسلك البحث خطا منهجيا يقوم على دراسة قاعدة من قواعد التفسير، – وهي قاعدة السياق – وأثرها في الكشف عن المعنى المحدد المراد من المشترك اللفظي في القرآن الكريم، الذي كثر في تأويله اختلاف المفسرين، ويرجع ذلك إلى خفاء معنى المشترك الذي يقبل الإضافة إلى كل معانيه، ويحاول البحث إبراز أثر الدلالة السياقية في تحقيق الحد الفاصل بين معاني المشترك اللفظي، بما يصب في بيان الالتحام النصي الذي عليه قوام نظرية النظم، مقدما لأحد معاني اللفظ المشترك ومؤخرا للباقي من معانيه، كل ذلك في ضوء السياق الشمولي المشتمل على النظم الحاف بالآية سباقها ولحاقها، والسياق الكلي للقرآن الكريم؛ فخير ما يفسر القرآن الكريم هو القرآن ذاته، ومن هذا المنطلق ركز البحث على البعد التطبيقي في بيان المعنى المراد من اللفظ المشترك في القرآن الكريم، مبينا أن أثر السياق لا ينحصر في وظيفة الكشف عن المعنى وتوضيحه فحسب، بل ينهض السياق بدور جليل ثان وهو الترجيح بين معاني اللفظ المشترك المتعددة، فيرشح المعنى المؤيد من معانيه بالسياق للقبول، ويأتي على الباقي من معانيه بالتأخير أو الإبعاد.

وقد كشف البحث عن مدى الجهد الذي يحتاجه حقل التفسير لأجل ترتيب مضامينه وتهذيب مباحثه، متجاوزا كل عائق يحول دون نمو علم التفسير وتطوره، وذلك بسلوك المنهج العلمي القائم على تحكيم السياق الكلي للقرآن الكريم.

In the Name of Allah, Most Compassionate, Most Merciful

The Role of Context in the Disambiguation of Homonymous Words in the Holy Qur'an

Khusama M. Al-Isa, PhD
Assistant professor, Department of Islamic Studies
College of Arts, King Faisal University
Al-Ahsa, Kingdom of Saudi Arabia

Abstract

This research work follows a systematic approach based on studying one rule of explication; the rule of context, and its role in revealing the intended meaning of homonymous words in the Holy Qur'an, a subject on which many exegesists disagree. The reason of this disagreement is the ambiguity that surrounds homonymous words, which accept adding new meanings to them.

It seeks to highlight the influence of contextual connotation in distinguishing between the meanings of homonymous words, aiming at explaining the textual unity of Stringing Theory (a theory that deals with the way words relate to one another in a sentence), and preferring one meaning over the others. This can be grasped through the comprehensive context that includes what precedes the Qur'anic verse and what follows it, as well as the overall context of the Holy Qur'an, because there is no better evidence in interpreting the Qur'an than the Holy Qur'an itself. Based on this theory, this research focuses on the applied dimension in the process of disambiguating homonymous words in the Holy Qur'an, explaining that the role of context is not limited to revealing the true meaning. Indeed, context plays another significant role; favoring a single meaning out of many possibilities of homonymous words in the Holy Qur'an. It recommends a meaning that fits in a specific context, and downgrades or disregards the rest all together.

It reveals how much the Science of Qur'anic explication needs to organize its content and regulate its methodology, and thus, it overcomes all obstacles in its way towards development and progress of the science of Qur'an explication by adopting a scientific method based on taking the whole context of the Holy Qur'an into consideration.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين، رسولنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فقد اتفقت كلمة اللغويين والمفسرين على أن السياق واحد من أهم المرجحات في فهم النص القرآني، فله أثره الواضح في الكشف عن الإبهام المكتنف للألفاظ المشتركة في القرآن الكريم، لأن سياق الكلام يمثل نتيجة دراسة النص الذي هو متتابع ومتناسق في نظمه ومعناه، باعتبار السابق واللاحق، وقد اعتنى المفسرون بدراسة السياق دراسة فائقة، يجليها الاطلاع على ثلاثة كتب من أمهات كتب التفسير، وهي شاهدة على مسيرة الحركة التفسيرية لكتاب الله تعالى، وهذه التفاسير الثلاثة ممثلة لمراحل زمنية مختلفة:

فأولها: تفسير ابن جرير الطبري المتوفى سنة (٣١٠) هـ للمرحلة الأولى.

ثانيها: تفسير أبي السعود المتوفى سنة (982) هـ للمرحلة الثانية.

ثالثها: تفسير الآلوسي المتوفى سنة (١٢٧٠) هـ للمرحلة الثالثة.

فلا تزال تطالعك عبارات القوم الفخمة في هذا الشأن، مثل قول شيخ الإسلام أبي السعود: هذا قول يخل بفخامة التنزيل، وهذا قول لا يتفق مع جزالة النظم الجليل، وهذا قول يبعد عن السياق بمراحل، بما يؤكد أن المفسرين هم الأرسخ قدما، والأسبق أثرا في الاعتداد بقاعدة السياق، والتنويه بأثرها الفاعل في فهم النص القرآني، وبهذا يظهر أن نظرية السياق نظرية ولدت في

البيئة العربية، وليست نظرية وافدة كما يروج لها بعض المعاصرين.

نال القرآن الكريم من العناية والاهتمام حفظا وتفسيرا ودراسة ما لم ينله كتاب آخر، ولا غرابة في هذا، فالقرآن الكريم كلام الله تعالى، أنزله رحمة للناس كافة، متكفلا بحفظة من الزيادة والنقصان على مدى الزمان، إلى أن وصل إلينا كما نزل على سيد المرسلين عليه أفضل الصلاة والتسليم.

وقد سلك المفسرون منهجين اثنين للكشف عن معاني القرآن الكريم، وأحكامه، ومقاصده هما:

الأول: التفسير بالمأثور.

الثاني: التفسير بالرأي.

وكان لكل منهج من هذين المنهجين سماته الخاصة التي تميزه عن قسيمه، فامتاز منهج التفسير بالمأثور على منهج التفسير بالرأي بتقدمه من حيث الأولوية أولا، والوثوق ثانيا، وذلك لأن التفسير بالمأثور يقوم على شعب ثلاث هي:

الأولى: تفسير القرآن بالقرآن، وهذه الخطوة لا يقدم عليها شيء آخر بالإجماع.

الثانية: تفسير القرآن بالسنة، وهذه الخطوة أيضا لا يجوز تجاوزها البتة إذا صح الحديث عن سيد الخلق ﷺ.

الثالثة: تفسير القرآن بأقوال الصحابة والتابعين رضي الله تعالى عنهم، وفي هذه الخطوة تفصيل ليس هذا موطنه.

أجمعت الأمة على أن أهم وأولى ما يفسر به القرآن الكريم هو القرآن

نفسه وانطلقوا في تقرير هذه الحقيقة الواضحة من مسلمات ثلاث:

الأولى: أن خير من يفسر الكلام قائله، فهو الأعرف بمعانيه ومراميه.

الثانية: من جملة الأوامر الإلهية الواردة في القرآن الكريم أمر المؤمنين بالرد إلى الله تعالى عند التنازع والاختلاف، والرد إلى الله تعالى أول ما يكون بالرد إلى القرآن الكريم.

الثالثة: القرآن الكريم هو مصدر التشريع الأول في دين الإسلام الحنيف.

والتحاكم إلى قاعدة السياق القرآني الجليل هو فرع عن أصل تفسير القرآن بالقرآن، وقد نقل كل من الشيخين الذهبي والزرقاني –رحمهما الله تعالى – عن أهل التفسير قولهم: "إن القرآن يُفسِّر بعضه بعضاَ، وإن أفضل قرينة تقوم على حقيقة معنى اللفظ موافقته لما سيق له من القول، واتفاقه مع جملة المعنى، وائتلافه مع القصد الذى جاء له الكتاب بجملته"[(1)].

إن هذا النقل الصريح عن أهل التفسير يبين أن السياق القرآني على مستويين هما:

الأول: سياق خاص جزئي، وهو السياق القريب المحيط بالنص المفسر كالكلمة في الجملة، والجملة في الآية، والآية في مجموعة الآيات السابقة واللاحقة، ومجموعة الآيات المتعانقة في السورة الواحدة (الوحدة الموضوعية في السورة القرآنية)، والملحوظ في المستوى الأول من السياق القرآني أنه مستوى تكاملي: الكلم ة في الجملة، الجملة في الآية، الآية في المقطع، المقاطع في السورة إلى

(١) التفسير والمفسرون، ج: ١، ص ١٩٢ ـ ١٩٣. انظر مناهل العرفان، ج: ٢، ص ٤٤.

أن يرتقي السياق القرآني إلى المستوى العام الكلي.

الثاني: سياق عام كلي، وهو السياق القرآني العام بأكمله من أوله إلى آخره، حيث إن للقرآن الكريم طريقة في الترتيب والروابط فريدة، حتى قال الإمام الرازي – رحمه الله -: " فما أحسن هذا الترتيب، لأن أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط" [(١)].

هذا النسق القرآني الذي يوازن بين الإجمال والبيان، والإطلاق والتقييد، والعموم والخصوص، والتشابه والإحكام، فلا بد من التنسيق بين هذه الثنائيات حتى تظهر الحقيقة في صورة متكاملة في ضوء السياق الشامل.

أهمية البحث:

١ـ يعد موضوع السياق القرآني من الموضوعات المهمة في مجال الدراسات القرآنية، وذلك لإجماع اللغويين والمفسرين على أن السياق ركيزة مهمة في الكشف عن معاني الكلام ومقاصده.

٢ـ استقراء جميع الألفاظ القرآنية المشتركة الواردة في القرآن الكريم على أظهر الأقوال، وتناولها بالدراسة في ضوء السياق القرآني الجزئي والكلي.

٣ـ الكشف عن الأسرار القرآنية الكامنة في نسقه المعجز مصداقا لقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا

(١) مفاتيح الغيب، ج: ١٠، ص ١٤٥.

كَثِيرًا ﴾[1].

٤ـ محاولة تحديد المعنى المراد من الألفاظ القرآنية المشتركة في ضوء السياق القرآني بقسميه الجزئي والكلي أو الدلالي والمقامي:

الأول: السياق الجزئي (الدلالي)، وهو حصيلة استعمال الكلمة داخل نظام الجملة، عندما تتساوق مع كلمات أخرى، مما يكسبها معنى خاصاً محدداً. فالمعنى في السياق الدلالي مغاير للمعنى الذي تقدمه المعجمات اللغوية، لأن المعنى المعجمي متعدد ومحتمل، في حين أن المعنى الذي يقدّمه السياق الدلالي اللغوي هو معنى معين له حدود واضحة وسمات محددة غير قابلة الاشتراك، أو التعميم.

الثاني: السياق الكلي (المقامي)، وهو حاصل العلاقات الزمانية، والمكانية التي يجري فيها الكلام، وقد أسس علماء المسلمين من المفسرين، والأصوليين، واللغويين لهذا النوع من السياق، فعبَّر عنه البلاغيون بمصطلح (المقام) وقد أضحت كلمتهم: (لكلِّ مقام مقال) مثلاً سائرا.

٤ـ تعد هذه الدراسة إضافة علمية نوعية في مجال الدراسات القرآنية واللغوية، حيث أني لم أقف- في حدود اطلاعي - على دراسة سابقة في الكشف عن أثر السياق القرآني الجزئي والكلي قي تحديد معاني الألفاظ القرآنية المشتركة.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٨٢.

الدراسات السابقة:

هناك عدد من البحوث والرسائل العلمية الجادة في موضوع السياق القرآني، والمشترك اللفظي، غير أني لم أر – في حدود اطلاعي- دراسة تبين أثر السياق – وهو مرجح من المرجحات في علم التفسير – في الكشف عن المعنى المراد من الألفاظ القرآنية المشتركة – وهو نوع من الألفاظ الذي يعد سببا من أسباب الخلاف في التفسير- وللسياق أثر ظاهر في تحديد معناه.

منهج البحث:

اتبعت في هذا البحث المنهج الاستقرائي، والاستنباطي، والنقدي، وذلك بالوقوف على جميع الألفاظ القرآنية المشتركة في أظهر الأقوال، ثم تحليل معانيها في ضوء السياق القرآني الجزئي والكلي في تلك المواضع، وبيان الراجح من المرجوح، وأثر السياق القرآني في ذلك.

حدود البحث:

تقتصر هذه الدراسة على بحث الألفاظ القرآنية المشتركة في أظهر الأقوال، وبيان أثر السياق القرآني الجزئي والكلي في الكشف عن المراد منها.

خطة البحث:

المقدمة: وفيها أهمية البحث وأسباب اختياره ومنهجه وخطته.

المبحث الأول: السياق تعريفه ومكانته وأنواعه.

المطلب الأول: تعريف السياق لغة واصطلاحا.

المطلب الثاني: مكانة السياق وأهميته في التفسير.

المطلب الثالث: أنواع السياق القرآني.

المبحث الثاني: نماذج تطبيقية لتحكيم قاعدة السياق والترجيح بها في الألفاظ القرآنية المشتركة.

المطلب الأول: تعريف المشترك لغة واصطلاحا.

المطلب الثاني: أنواع المشترك اللغوي.

المطلب الثالث: أثر السياق في الترجيح بين معاني المشترك اللفظي في الأسماء.

النموذج الأول: الاشتراك في اسم القرء.

النموذج الثاني: الاشتراك في اسم التأويل.

النموذج الثالث: الاشتراك في الذي بيده عقدة النكاح.

النموذج الرابع: الاشتراك في الوصف بالعتيق.

المطلب الرابع: أثر السياق في الترجيح بين معاني المشترك اللفظي في الأفعال.

النموذج الأول: الاشتراك في فعل عسعس.

النموذج الثاني: الاشتراك في فعل يعدلون.

المطلب الخامس: أثر السياق في الترجيح بين معاني المشترك اللفظي في الحروف.

النموذج الأول: الاشتراك في حرف الواو.

النموذج الثاني: الاشتراك في حرف الجر من.

الخاتمة: وضمنتها نتائج البحث وتوصياته، ثم أتبعتها بقائمة المصادر والمراجع.

والله أسأل أن يوفقنا للسداد والصواب في جميع أقوالنا وأفعالنا إنه خير مسؤول وأجود معط.

المبحث الأول

السياق تعريفه ومكانته وأنواعه

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: تعريف السياق لغة واصطلاحا.

المطلب الثاني: مكانة السياق وأهميته في التفسير.

المطلب الثالث: أنواع السياق القرآني.

المطلب الأول

تعريف السياق لغة واصطلاحاً

أولا: السياق لغة

أصل السياق، سِواق فقلبت الواو ياءً لكسرة السين، سياق الكلام هو تتابعه، وسرده، واطراده، وأصل هذه المادة اللغوية يدور على معنى التتابع، قال ابن فارس رحمه الله تعالى: "(سوق) السين والواو والقاف أصل واحد، وهو حَدْوُ الشَّيء، يقال: ساقه يسوقه سَوقاً، والسَّيِّقة: ما استيق من الدوابّ، ويقال: سقتُ إلى امرأتي صَدَاقها، وأَسَقْتُهُ، والسُّوق مشتقّةٌ من هذا، لما يُساق إليها من كلِّ شيء، والجمع أسواق، والساق للإنسان وغيره، والجمع سُوق، إنّما سمّيت بذلك لأنَّ الماشي ينْساق عليها"[(١)]، وقال الراغب رحمه الله تعالى:"ساق: سوق الإبل جلبها وطردها، وسقت المهر إلى المرأة وذلك أن مهورهم كانت الإبل"[(٢)]، وجاء في المعجم الوسيط: "(ساق) المريض سوقا، وسياقا، وسياقة، ومساقا شرع في نزع الروح، ساق الحديث: سرده، وسلسله، وإليك يساق الحديث يوجه، والمهر إلى المرأة أرسله وحمله إليها... (السياق) المهر، وسياق الكلام تتابعه، وأسلوبه الذي يجري عليه، والنزع يقال هو في سياق الاحتضار"[(٣)].

(١) معجم مقاييس اللغة، مادة (سوق)، ج: ٣، ص: ١١٧.

(٢) المفردات في غريب القرآن، مادة (سوق)، ج: ١، ص ٣٢٨. بتصرف.

(٣) المعجم الوسيط، مادة (ساق)، ج: ١، ص ٤٦٥.

ثانيا: السياق اصطلاحا

للسياق عدة تعاريف مختلفة، أهمها أن السياق هو النظم اللفظي للكلمة وموقعها من ذلك النظم، بجملته، وقد قال اهل التفسير: "إن القرآن يُفسِّر بعضه بعضاَ، وإن أفضل قرينة تقوم على حقيقة معنى اللفظ موافقته لما سيق له من القول، واتفاقه مع جملة المعنى، وائتلافه مع القصد الذى جاء له الكتاب بجملته"(١).

وعلى هذا التعريف فالسياق يتكون من جانبين اثنين مختلفين ومتكاملين هما:

الأول: النظم اللفظي المكون من السابق واللاحق فحسب، بل والقطعة كلها، والكتاب كله، وهو بهذا لا يخرج عن كونه تركيبًا أو نظمًا لغويًا، وهو ما يطلق عليه السياق الدلالي، أو السياق الجزئي، أو السياق الخاص.

الثاني: كل ما يتصل بالكلمة من ظروف وملابسات، وهو خارج عن التركيب اللغوي متجاوز لحدوده، ولكن يبقى رغم كونه ينتظم عناصر غير لغوية لا يقل أهمية عن النظم اللفظي في تحديده معاني الحدث اللغوي، وهذا النظم هو ما سماه المفسرون السياق المقامي، أو السياق الكلي، أو السياق العام، والمقام يتألف من حيثيات عديدة مثل الخطاب، والمخاطِب، والمخاطَب، والزمان، والمكان(٢).

---

(١) التفسير والمفسرون، ج: ١، ص ١٩٢ - ١٩٣. انظر مناهل العرفان، ج: ٢، ص ٤٤.

(٢) الشبكة العربية الأدبية على هذا الرابط: http://ar8i.net/vb/showthread.php

وقد صرح الإمام الشاطبي ببيان مفهوم السياق الشمولي، وأن الكلام الواحد قد يكتنفه الاختلاف بسبب تغاير ظروف الكلام من أحوال، وأوقات، وحوادث وهذه كلها تشكل الصورة الكاملة لتفهم المراد من الكلام، يقول رحمه الله تعالى: "أن المساقات تختلف بإختلاف الأحوال، والأوقات، والنوازل، وهذا معلوم فى علم المعاني والبيان، فالذي يكون على بال من المستمع والمتفهم الالتفات إلى أول الكلام وآخره، بحسب القضية وما اقتضاه الحال فيها، لا ينظر في أولها دون آخرها، ولا في آخرها دون أولها، فإن القضية وإن اشتملت على جمل فبعضها متعلق بالبعض، لأنها قضية واحدة نازلة فى شيء واحد، فلا محيص للمتفهم عن رد آخر الكلام على أوله، وأوله على آخره، وإذ ذاك يحصل مقصود الشارع فى فهم المكلف، فإن فرق النظر فى أجزائه فلا يتوصل به إلى مراده، فلا يصح الاقتصار في النظر على بعض أجزاء الكلام دون بعض، إلا في موطن واحد وهو النظر في فهم الظاهر بحسب اللسان"[1].

(١) الموافقات في أصول الشريعة، ج: ٣، ص ٤١٣.

المطلب الثاني

مكانة السياق وأهميته في التفسير

فقد اتفق العلماء على أن السياق يعد أصلا مهما يؤدي إلى حسن الفهم عن الله ورسوله ﷺ بما يحقق حسن الالتزام بالأوامر الشرعية، وقد باتت هذه حقيقة مسلمة عند اللغويين، والمفسرين وغيرهم، يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: "السياق يرشد إلى تبيين المجمل، وتعيين المحتمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة، وهذا من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم، فمن أهمله غلط في نظره، وغالط في مناظرته، فانظر إلى قوله تعالى: ﴿ ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ﴾ [1] كيف تجد سياقه يدل على أنه الذليل الحقير"[2].

فإذا كان التركيب موجوداً داخل النص، فإن الدلالة توجد داخل السياق، فالكلمتان الواردتان في الآية الكريمة: العزيز، الكريم، تستعمل لمعنى الإكرام في المعجمات اللغوية، في حين أن المقصود بها في هذا السياق القرآني هو ضد الإكرام، ولذلك فإن المراد بها في السياق القرآني المحدد في سورة الدخان هو الإهانة، قال الإمام الطبري رحمه الله تعالى: "فإن قال قائل: وكيف قيل وهو يهان بالعذاب الذي ذكره الله، ويذلّ بالعتل إلى سواء الجحيم: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ﴾ ، قيل: إن قوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ

(١) سورة الدخان، الآية: ٤٩.

(٢) بدائع الفوائد، ج: ٤، ص ١٣١٤.

﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾ ، غير وصف من قائل ذلك له بالعزّة والكرم، ولكنه تقريع منه له بما كان يصف به نفسه في الدنيا، وتوبيخ له بذلك على وجه الحكاية، لأنه كان في الدنيا يقول: إني أنا العزيز الكريم، فقيل له في الآخرة، إذ عذّب بما عُذّب به في النار: ذُق هذا الهوان اليوم، فإنك كنت تزعم إنك أنت العزيز الكريم، وإنك أنت الذليل المهين، فأين الذي كنت تقول وتدّعي من العزّ والكرم، هلا تمتنع من العذاب بعزّتك"[1].

وقال ابن عاشور رحمه الله: "والذوق مستعار للإحساس، وصيغة الأمر مستعملة في الإهانة، وقوله تعالى: ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾[2] خبر مستعمل في التهكم بعلاقة الضدّية. والمقصود عكس مدلوله، أي: أنت الذليل المهان، والتأكيد للمعنى التهكمي"[3].

ويشهد لما ذهب إليه هؤلاء الأعلام سياق الآية الكريمة؛ فسباقها ولحاقها يتكلم عن الكافر الأثيم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ مِيقَٰتُهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوۡمَ لَا يُغۡنِي مَوۡلًى عَن مَّوۡلًى شَيۡـًٔا وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلۡأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلۡمُهۡلِ يَغۡلِي فِي ٱلۡبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلۡيِ ٱلۡحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعۡتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّواْ فَوۡقَ رَأۡسِهِۦ مِنۡ عَذَابِ ٱلۡحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ

---

(١) جامع البيان عن تأويل القرآن، ج: ٢١، ص ٦١ ـ ٦٢.

(٢) سورة الدخان، الآية: ٤٩.

(٣) التحرير والتنوير، ج: ٢٥، ص ٣١٦.

ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴾ [1].

ولعل من أوضح الشواهد القرآنية التي تكشف عن أثر السياق في بيان الأسرار البيانية للمفردات القرآنية التي هي اللبنة الأولى في النظم الجليل ما نبه له العلامة ابن عاشور رحمه الله تعالى وهو يفسر قوله سبحانه: ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ [2]، قال: "والحُطام: الشيء الذي حَطمه حاطم، أي: كَسره ودقّه فهو بمعنى المحطوم، كما تدل عليه زنة فُعال مثل: الفُتات، والجُذاد، والدُقاق، وكذلك المقترن منه بهاء التأنيث كالقُصاصة، والقُلاَمة، والكُناسة، والقُمامة، والمعنى: لو نشاء لجعلنا ما ينبت بعد خروجه من الأرض حُطاماً بأن نسلط عليه ما يحطمه من بَرَد، أو ريح، أو حشرات قبل أن تنتفعوا به، فالمراد جعله حطاماً قبل الانتفاع به، وقوله: ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ تفريع على جملة ﴿لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾ أي: يتفرع على جعله حطاماً أن تصيروا تقولون: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ [3]، ففعل ﴿فَظَلْتُمْ﴾ هنا بمعنى: صرتم، وعلى هذا حَمَله جميع المفسرين، وأعضل وَقْع فعل ﴿تَفَكَّهُونَ﴾ ، فعن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وابن زيد: ﴿تَفَكَّهُونَ﴾ تعجبون، وعن عكرمة: تتلاومون، وعن الحسن وقتادة: تندمون، وقال ابن

(١) سورة الدخان، الآية: ٤٠ - ٥٠.

(٢) سورة الواقعة، الآية: ٦٣ - ٦٥.

(٣) سورة الواقعة، الآية: ٦٦ - ٦٧.

كيسان: تحزنون ، وقال الكسائي : هو تلهف على ما فات، وهو أي: فعل ﴿تَفَكَّهُونَ﴾ من الأضداد تقول العرب: تفكهت، أي: تنعمت، وتفكهتُ، أي حزِنتُ، ذلك أن فعل ﴿تَفَكَّهُونَ﴾ من مادة فكِه، والمشهور أن هذه المادة تدل على المسرة والفرح، ولكن السياق سياق ضد المسرة، وبيانه بقوله: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ يؤيد ذلك، فالفُكاهة : المسرة والانبساط، فتحصل أن معنى الآية يجوز أن يكون جارياً على ظاهر مادة فعل ﴿تَفَكَّهُونَ﴾ ويكون ذلك تهكماً بهم حملاً لهم على معتاد أخلاقهم من الهزْل بآيات الله، وقرينة التهكم ما بعده من قوله ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ ، ويجوز أن يكون محمل الآية على جعل ﴿تَفَكَّهُونَ﴾ بمعنى تندمون، وتحزنون، ولذلك كان لفعل ﴿تَفَكَّهُونَ﴾ هنا وقع لا يعوضه غيره"[(١)].

والذي أجزم به هنا أن مراعاة المقام تجعل المتلقي على قدر كاف من الوعي لإدراك مرامي الكلام الذي قصده صاحبه، فسياق آية سورة الواقعة بسباقها ولحاقها يمنع بتاتا حمل لفظ: ﴿تَفَكَّهُونَ﴾ الذي يعطي معنى المسرة والانبساط على معناه الحقيقي إلا على جهة التهكم والاستهزاء.

ويزيد الإمام الشاطبي رحمه الله تعالى هذا الأصل تقريرا بقوله: "معرفة أسباب التنزيل لازمة لمن أراد علم القرآن، والدليل على ذلك أمران:

أحدهما: أن علم المعاني والبيان الذي يعرف به إعجاز نظم القرآن،

---

(١) التحرير والتنوير، ج: ٢٧، ص ٣٢١ ـ ٣٢٣. بتصرف.

فضلا عن معرفة مقاصد كلام العرب، إنما مداره على معرفة مقتضيات الأحوال، حال الخطاب من جهة نفس الخطاب، أو المخاطِب، أو المخاطَب، أو الجميع، إذ الكلام الواحد يختلف فهمه بحسب حالين، وبحسب مخاطبين، وبحسب غير ذلك، وكالأمر يدخله معنى الإباحة، والتهديد، والتعجيز، وأشباهها، ولا يدل على معناها المراد إلا الأمور الخارجة، وعمدتها مقتضيات الأحوال، وليس كل حال ينقل، ولا كل قرينة تقترن بنفس الكلام المنقول، وإذا فات نقل بعض القرائن الدالة فات فهم الكلام جملة، أو فهم شيء منه، ومعرفة الأسباب رافعة لكل مشكل في هذا النمط، فهي من المهمات في فهم الكتاب بلا بد، ومعنى معرفة السبب هو معنى معرفة مقتضى الحال"[1] .

وانطلاقا من أهمية البحث التفسيري في مجال الدراسات الدينية، إذ غايته صيانة ساحة التنزيل الجليل عن شبه المشبهين، وأباطيل المبطلين، حرص المفسرون منذ الوهلة الأولى على الحيلولة دون العبث بنصوص القرآن الكريم؛ فعمدوا بعد عملية طويلة من الاستقراء والجمع إلى رصد مجموعة من القواعد والمعالم التي تعين على التفسير السليم للنصوص القرآنية الكريمة، ولتكون بمثابة الميزان الذي يعرف به التفسير المقبول من التفسير المردود. وقد كان السياق من أبرز الأصول التي اعتمدها المفسرون بما ينضوي عليه من القواعد والقرائن، فلمفسري القرآن فضل السبق في

(١) الموافقات في أصول الشريعة، ج: ٣، ص ٣٤٧. بتصرف.

الكشف عن دور السياق تأصيلاً، وتفصيلاً، وتطبيقاً، منذ وقت مبكر[(١)].

يقرر ذلك ويؤكده ما أصله الإمام الطبري رحمه الله في تفسيره الجليل – وهو كثير جدا – ومنه كلامه في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾[(٢)]، حيث يقول: "واختلف في معنى قوله تعالى: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾، فقال بعضهم: عني بالطالب: الآلهة، وبالمطلوب: الذباب، ذكر من قال ذلك: حدثنا القاسم، قال: ثنا الحسين، قال: حجاج، عن ابن جُرَيج، قال ابن عباس، في قوله: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ ﴾، قال: آلهتهم ﴿وَالْمطْلُوبُ﴾: الذباب، وكان بعضهم يقول: معنى ذلك ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ ﴾، من بني آدم إلى الصنم حاجته، ﴿وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾، إليه الصنم أن يعطي سائله من بني آدم ما سأله، يقول: ضعف عن ذلك وعجز، والصواب من القول في ذلك عندنا ما ذكرته عن ابن عباس من أن معناه:

(١) فلا يظن أن الإشادة بالسياق، ودوره الريادي من مبتكرات الدراسات اللسانية الحديثة، ومدارس تحليل الخطاب المعاصرة، يقول براون ويول: "إن الفكرة القائلة بإمكان تحليل سلسلة لغوية (جملة مثلاً) تحليلاً كاملاً بدون مراعاة السياق قد أصبحت في السنين الأخيرة محل شك" إذا كان بروز هذا الاهتمام متأخراً عند غير المسلمين ـ كما يفهم من العبارة السابقة ـ فإن عناية علماء الإسلام بالسياق كانت مصاحبة لنزول القرآن الكريم، وكان له استحضار مؤثر في فهم النص القرآني. الشبكة العنكبوتية على هذا الرابط: http://www.alukah.net/Sharia/١٠٤٥/ ٤٣١IuorCdbq٢/#ixzz

(٢) سورة الحج، الآية: ٧٣.

وعجز الطالب وهو الآلهة أن تستنقذ من الذباب ما سلبها إياه، وهو الطيب وما أشبهه؛ والمطلوب: الذباب، وإنما قلت هذا القول أولى بتأويل ذلك، لأن ذلك في سياق الخبر عن الآلهة والذباب، فأن يكون ذلك خبرا عما هو به متصل أشبه من أن يكون خبرا، عما هو عنه منقطع"[(1)].

فابن جرير رحمه الله رجح أن يكون الطالب هو الآلهة والمطلوب الذباب، من دلالة السياق وتتابع نظم الآية برد آخرها على أولها.

ومن الشواهد التفسيرية التي تظهر اعتماد المفسرين على قاعدة السياق في الكشف عن المعنى المقصود من المشترك اللفظي في القرآن الكريم ما أورده الحافظ ابن كثير والمحقق الشنقيطي رحمهما الله تعالى في المراد بالإحصان، وهو من المشترك اللفظي، في قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ۚ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ۚ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[(2)] فقد رجح كلاهما أن المراد بالإحصان في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾

(1) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج: ١٦، ص ٦٣٥ ـ ٦٣٦. انظر البحر المحيط، ج: ٥، ص ٢٩٥.

(2) سورة النساء، الآية: ٢٥.

أنه التزويج لدلالة السياق.

قال ابن كثير: "والأظهر - والله أعلم - أن المراد بالإحصان ها هنا التزوج؛ لأن سياق الآية يدل عليه، حيث يقول الله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾، والآية الكريمة سياقها في الفتيات المؤمنات، فتعين أن المراد بقوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ ﴾ أي: تزوجن كما فسره ابن عباس ومن تبعه".[1]

وقال الشنقيطي: "قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ ﴾ أي: فإذا تزوجن، وقول من قال من العلماء: إن المراد بالإحصان في قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ ﴾ الإسلام خلاف الظاهر من سياق الآية؛ لأن سياق الآية في الفتيات المؤمنات حيث قال ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ "[2].

فلا بد من رد آخر الآية الكريمة على أولها ليتبين المعنى المحدد من الكلم.

(١) تفسير القرآن العظيم، ج: ٣، ص ٤٣٤.

(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ج: ١، ص ٣٧٥-٣٧٦.

المطلب الثالث

أنواع السياق القرآني

يتكون نطاق السياق القرآني من أربعة دوائر بعضها ينضوي في بعض وينبني عليه، وهذا من روافد الإعجاز القرآني المتعدد المتجدد. ودوائر السياق القرآني الأربع هي:

الأولى: سياق الآية المتمثل في أولها وآخرها.

الثانية: سياق الآيات المتمثل بالسباق واللحاق.

الثالثة: سياق السورة كاملة المتمثل في مطلعها وختامها.

الرابعة: سياق القرآن كاملا من أوله إلى آخره.

وهذه الدوائر الأربع متكاملة تكاملاً ينتج عنه خط منهجي ذو معان متعددة وأغراض متنوعة، ويمكن أن يقسم السياق القرآني بدوائره الأربع إلى النوعين الآتيين:

الأول: السياق الدلالي، أو السياق الجزئي، أو السياق الخاص، وهو: حصيلة استعمال الكلمة داخل نظام الآية الواحدة، أو الآيات العديدة بالسباق واللحاق، أو السورة كاملة، أو القرآن الكريم كاملا، مما يكسب المفردة القرآنية معنى خاصاً محدداً. فالمعنى في السياق الدلالي مغاير للمعنى الذي يقدمه المعجم، لأن المعنى المعجمي متعدد ومحتمل، في حين أن المعنى الذي يقدّمه السياق الدلالي هو معنى معين له حدود واضحة وسمات محددة غير قابلة للتعدد أو الاشتراك أو التعميم.

وبالاعتماد على السياق الدلالي في الكشف عن المعنى المراد من

المشترك اللفظي يعلم عدم الحاجة إلى القول بحمل المشترك على محتملاته كما قرر الإمام الزركشي رحمه الله تعالى: "فصل في اشتراك اللفظ بين حقيقتين، أو حقيقة ومجاز، قد يكون اللفظ مشتركا بين حقيقتين، أو حقيقة ومجاز، ويصح حمله عليهما جميعا كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ﴾[1]، قيل المراد يضارر، وقيل يضارر أي: الكاتب، والشهيد لا يضارر، فيكتم الشهادة والخط وهذا أظهر، ويحتمل أن من دعا الكاتب والشهيد لا يضارره عند فيطلبه في وقت فيه ضرر، وكذلك قوله تعالى: ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾[2] فعلى هذا يجوز أن يقال أراد الله بهذا اللفظ كلا المعنيين على القولين، أما إذا قلنا بجواز استعمال المشترك في معنييه فظاهر، وأما إذا قلنا بالمنع فبأن يكون اللفظ قد خوطب به مرتين مرة أريد هذا، ومرة هذا"[3].

الثاني: السياق المقامي، أو السياق الكلي، أو السياق العام، يستوعب هذا النوع العلاقات الزمانية، والمكانية التي نزل فيها القرآن الكريم، وقد أسس مفسرو القرآن الكريم، لهذا النوع من السياق، وقعدوا أصلهم الشهير: (لكلِّ مقام مقال)، فمراعاة المقام تجعل المتلقي على قدر كاف من الوعي لإدراك مرامي الكلام الذي قصده صاحبه، فمن مرتكزات السياق المقامي في القرآن الكريم اعتباره للسياق المقاصدي (الناظم مقاصد القرآن

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٢.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٣٣.

(٣) البرهان في علوم القرآن، ج: ٢، ص: ٢٠٧-٢٠٨.

الكبرى)، ومقاصد القرآن معتبرة في تفسير كلام الله تعالى كله، بل يجب الاعتماد عليها في كل سورة وآية منه حسب ما يقتضي المقام فيها، وقد أجمل ابن عاشور رحمه الله مقاصد القرآن كلها في ثمانية مقاصد: الأول: إصلاح الاعتقاد، الثاني: تهذيب الأخلاق، الثالث: بيان التشريع، الرابع: سياسة الأمة وصلاحها وحفظ نظامها، الخامس: القصص وأخبار الأمم السالفة للتأسي بصالح أحوالهم، السادس: التعليم بما يناسب حاله عصر المخاطبين، وما يؤهلهم إلى تلقي الشريعة ونشرها، السابع: المواعظ والإنذار والتحذير والتبشير، الثامن: الإعجاز بالقرآن ليكون آية دالة على صدق الرسول ﷺ[1].

وقال الشاطبي رحمه الله: "كلام العرب على الإطلاق لا بد فيه من اعتبار معنى المساق في دلالة الصيغ، وإلا صار ضحكة وهزءا، ألا ترى إلى قولهم: فلان أسد، أو عظيم الرماد، أو جبان الكلب، وفلانة بعيدة مهوى القرط، وما لا ينحصر من الأمثلة لو اعتبر اللفظ بمجرده لم يكن له معنى معقول، فما ظنك بكلام الله، وكلام رسوله ﷺ"[2].

(١) التحرير والتنوير، فيما يحق أن يكون غرض المفسر بتصرف، ج: ١، ص ٣٩ ـ ٤٢.

(٢) الموافقات في أصول الشريعة، ج: ٣، ص ١٥٣.

المبحث الثاني

نماذج تطبيقية لتحكيم قاعدة السياق والترجيح بها في الألفاظ القرآنية المشتركة.

وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: تعريف المشترك لغة واصطلاحا

المطلب الثاني: أنواع المشترك اللغوي

المطلب الثالث: أثر السياق في الترجيح بين معاني المشترك اللفظي في الأسماء.

المطلب الرابع: أثر السياق في الترجيح بين معاني المشترك اللفظي في الأفعال.

المطلب الخامس: أثر السياق في الترجيح بين معاني المشترك اللفظي في الحروف.

المطلب الأول
تعريف المشترك لغة واصطلاحا

أولا: المشترك لغة:

تدور المادة اللغوية (ش ر ك) على التعدد، فالطريق المشترك ما يكون الناس فيه سواء، وفي تاج العروس: "واسمٌ مُشْتَرَكٌ: تَشْتَرِكُ فيه مَعان كثيرة كالعَيْنِ ونَحْوِها ؛ فإِنه يَجْمَعُ معانِيَ كثيرةً"[(١)]، وقال ابن فارس: "باب الأسماء كيف تقع على المسميات؟ يسمَّى الشيئان المختلفان بالاسمين المختَلِفين؛ وذلك أكثرُ الكلام؛ كرجلٍ وفرس، وتسمَّى الأشياءُ الكثيرة بالاسم الواحد؛ نحو عين الماء، وعين المال، وعين السحاب، ويسمى الشيء الواحد بالأسماء المختلفة؛ نحو السيف والمُهَنَّد والحسام"[(٢)].

ثانيا: المشترك اصطلاحا:

قال الإمام السيوطي رحمه الله تعالى: "وقد حدَّه أهل الأصول بأنه اللفظُ الواحدُ الدالُّ على معنيين مختلفين فأكثر دلالةً على السواء عند أهل تلك اللغة"[(٣)]، وفي التعريفات للجرجاني: "المشترك ما وضع لمعنى كثير بوضع كثير، كالعين، لاشتراكه بين المعاني، ومعنى الكثرة ما يقابل القلة،

(١) تاج العروس من جواهر القاموس، مادة (شرك)، ج: ٢٧، ص: ٢٢٨.

(٢) الصاحبي في فقه اللغة، ج: ١، ص: ٢٠، موقع الوراق: http://www.alwarraq.com

(٣) المزهر في علوم اللغة، ج: ١، ص: ١١٤، موقع الوراق: http://www.alwarraq.com

فيدخل فيه المشترك بين المعنيين فقط، كالقرء، والشفق، فيكون مشتركاً بالنسبة إلى الجميع، ومجملاً بالنسبة إلى كل واحد"[1].

وقد اختلف أهل اللغة في وقوع المشترك، أهو جائز أو ممتنع؟ فالأكثرون على أنه مُمْكِنُ الوقوع؛ لغرض الإبهام على السامع حيثُ يكونُ التصريح سبباً للمَفْسدة، كما رُوي عن أبي بكر الصديق رضي اللهّ عنه – وقد سأله رجلٌ عن النبي ﷺ وقت ذهابِهما إلى الغار: مَنْ هَذا؟ قال: هذا رجلٌ يَهْديني السبيلَ،[2] ومن أدلة الجمهور على وقوع المشترك بالفعل ما نَقله أهلُ اللغة في كثير من الألفاظ، ولا حلافَ أنَّ الاشتراك على خلاف الأصل[3].

(١) التعريفات، ج: ١، ص: ١١٤، موقع الوراق: http://www.alwarraq.com

(٢) صحيح البخاري كتاب مناقب الأنصار، باب هِجْرَةُ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ، رقم الحديث ٣٩١١، ج: ٣، ص ٧٢.

(٣) المزهر في علوم اللغة، ج: ١، ص: ١١٤.

المطلب الثاني
أنواع المشترك اللغوي

يقسم المشترك عند اللغويين والمفسرين إلى قسمين:

الأول: المشترك اللفظي، وهو اللفظ الموضوع في أصل وضعه لمعنيين أو أكثر على جهة الاستقلال، مثل كلمة: (وراء) فهي تطلق ويراد بها معنيين هما:

أولا: القدام.

ثانيا: الخلف.

وإليه ذهب أبو عبيدة والأزهري فهي من المشتركات اللفظية عندهما، نقله عنهما الآلوسي عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴾ [1].

الثاني: المشترك المعنوي، وهو اللفظ الموضوع في أصل وضعه لأمر عام يصدق على معنيين، ومثاله عند الآمدي وجماعة، كلمة (وراءهم) في قوله تعالى: ﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ [2]، وعند تفسيرها يقول الآلوسي رحمه الله تعالى: "ولا خلاف عند أهل اللغة في مجيء وراء بمعنى أمام، وإنما الخلاف في غير ذلك، وأكثرهم على أنه معنى حقيقي يصح إرادته منها في

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ١٦. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج: ١٣، ص ٢٠٢ ـ ٢٠١.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٧٩.

أي موضع كان، وقالوا: هي من الأضداد، وظاهر كلام البعض أن لها معنى واحداً يشمل الضدين، فقال ابن الكمال نقلاً عن الزمخشري: إنها اسم للجهة التي يواريها الشخص من خلف أو قدام"[١].

ومن الألفاظ القرآنية التي اختلف فيها اللغويون والمفسرون بين احتمالها للمشترك اللفظي، أو المعنوي كلمة عسعس، قال الإمام الآلوسي رحمه الله تعالى: "﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾[٢]، أي: أدبر ظلامه، أو أقبل، وكلاهما مأثوران عن ابن عباس وغيره، وهو من الأضداد عند المبرد، وقال الراغب: العسعسة والعساس رقة الظلام، وذلك في طرفي الليل، فهو من المشترك المعنوي عنده، وليس من الأضداد، وفسر عسعس هنا: بأقبل وأدبر معاً وقال ذلك في مبدأ الليل ومنتهاه"[٣].

والألفاظ التي يقع فيها الاشتراك في القرآن الكريم على نحوين:

الأول: الاشتراك على سبيل التضاد، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكۡتُمۡنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرۡحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤۡمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنۡ أَرَادُوٓاْ إِصۡلَٰحٗاۚ وَلَهُنَّ مِثۡلُ ٱلَّذِي عَلَيۡهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيۡهِنَّ دَرَجَةٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[٤]، فإن القرء موضوع للحيض والطهر، فيكون من الأضداد، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج: ١٦، ص ٩.

(٢) سورة التكوير، الآية:١٧.

(٣) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج: ٣٠، ص ٥٨.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٢٨.

عَسْعَسَ﴾[١]، فإن الفعل عسعس موضوع لأقبل، وأدبر.

الثاني: الاشتراك على سبيل التغاير، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[٢]، فإن الذي بيده عقدة النكاح يحتمل الزوج والولي، فإن كلا منهما بيده عقدة النكاح[٣].

(١) سورة التكوير، الآية:١٧.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٣٧.

(٣) الإتقان في علوم القرآن، ج: ٤، ص: ١٤٢٦ - ١٤٢٧.

المطلب الثالث

أثر السياق في الترجيح بين معاني المشترك اللفظي في الأسماء

وفيه أربعة نماذج:

النموذج الأول: الاشتراك في اسم القرء، في قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [1].

اختلف المفسرون في تحديد المعنى المراد من اسم القروء في الآية الكريمة، وذلك بسبب كون القرء من الألفاظ المشتركة بين معنيين هما:

الأول: الطهر.

الثاني: الحيض.

قال الإمام البغوي رحمه الله تعالى: "وهذا الاختلاف من حيث أن اسم القرء يقع على الطهر، والحيض جميعا، يقال: أقرأت المرأة: إذا حاضت، وأقرأت: إذا طهرت، فهي مقرئ"[2]، وقال الإمام الرازي رحمه الله تعالى: "القروء جمع قرء، وقرء، بفتح القاف وضمها، ولا خلاف أن اسم القرء يقع على الحيض، والطهر، قال أبو عبيدة: الأقراء من الأضداد في كلام العرب، والمشهور أنه حقيقة فيهما كالشفق اسم للحمرة، والبياض

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٢٨.

(٢) معالم التنزيل، ج: ١، ص: ٢٦٦.

جميعاً"[١].

وقد اختلف أهل اللغة في أصل تناول اسم القروء للأطهار، أو الحيضات على منزعين هما:

الأول: أن أصل القرء الوقت، يقال: رجع فلان لقرئه أي: لوقته الذي كان يرجع فيه، فالطهر يأتي لوقت، والحيض يأتي لوقت، هذا قول ابن قتيبة.

الثاني: أن أصل القرء الجمع، وقولهم: قرأت القرآن، أي: لفظت به مجموعاً، والقرء: اجتماع الدم في البدن، وذلك إنما يكون في الطهر، وقد يجوز أن يكون اجتماعه في الرحم، وكلاهما حسن، هذا قول الزجاج[٢].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى: "وقال الشيخ أبو عمر بن عبد البر: لا يختلف أهل العلم بلسان العرب والفقهاء أن القرء يراد به الحيض، ويراد به الطهر، وإنما اختلفوا في المراد من الآية ما هو؟، على قولين"[٣].

وممن ذهب إلى أن المراد بالقرء في الآية الطهر، مالك، والشافعي، وأم المؤمنين عائشة، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن عمر، والفقهاء السبعة، وأبان بن عثمان، والزهري، وعامة فقهاء المدينة، وهو رواية عن أحمد، وممن قال: بأن القروء الحيضات، الخلفاء الراشدون الأربعة، وابن مسعود، وأبو

(١) مفاتيح الغيب، ج: ٦، ص ٩٤.

(٢) زاد المسير في علم التفسير، ج: ١، ص ٢٥٩. النكت والعيون، ج: ١، ص ٢٩٠ ـ ٢٩٢. محاسن التأويل،: ١، ص ٥٨٢.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ج: ٢، ص ٣٣٥.

موسى، وعبادة بن الصامت، وأبو الدرداء، وابن عباس، ومعاذ بن جبل، وجماعة من التابعين وغيرهم، وهو الرواية الصحيحة عن أحمد[1].

واحتج كل من الفريقين بأدلة من القرآن الكريم، ومن السنة الشريفة، وسأبين أي المذهبين أقوى دلالة، وأقرب ملائمة بشهادة السياق القرآني.

أما الذين قالوا: القروء: الحيضات، فاحتجوا بأدلة كثيرة، منها: قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّـٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّـٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ﴾ [2]، فرتبت الآية الكريمة العدة بالأشهر على عدم الحيض يدل على أن أصل العدة بالحيض، والأشهُر بدل من الحيضات عند عدمها، واستدلّوا كذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكۡتُمۡنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرۡحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤۡمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ ﴾ [3]، قالوا: والمقصود به هو الولد، أو الحيض، واحتجوا بما أخرجه النسائي، وأبو داود أن فاطمة ابنة أبي حبيش قالت: يا رسول الله إني امرأة استحاض فلا أطهر أفدع الصلاة؟ فقال ﷺ: (لا، دعي الصلاة أيام أقرائك)[4] قالوا: إنه ﷺ هو مبين الوحي، وقد أطلق القرء على

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ج: ١، ص ١٧٦.

(٢) سورة الطلاق، الآية: ٤.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٢٨.

(٤) سنن أبي داود،كتاب الطهارة، باب مَنْ رَوَى أَنَّ الْحَيْضَةَ إِذَا أَدْبَرَتْ لاَ تَدَعُ الصَّلاَةَ، رقم الحديث ٢٨٥، ج: ١، ص ١٤٢ ـ ١٤٣، والحديث فيه مقال، قال الحافظ البيهقي: =

الحيض، فدل ذلك على أنه المراد في الآية الكريمة، واستدلوا بحديث: اعتداد الأمة بحيضتين[١]، وممن قال بذلك من المفسرين الزمخشري[٢]، والنسفي[٣]، وأبو السعود[٤].

وأما الذين ذهبوا إلى أن القروء هي الأطهار، فاحتجوا بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ﴾[٥]، وقد صرحت الآية الكريمة بأن عدتهن المأمور بطلاقهن لها الطهر لا الحيض، ويزيده إيضاحاً قوله ﷺ في حديث ابن عمر المتفق عليه: (فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهراً قبل أن يمسها، فتلك العدَّة كما أمر الله)[٦] فالنَّبي ﷺ

=

(وهكذا روي عن علي، وعن أبي بن كعب، وأبي موسى الأشعري والذي روي مرفوعا: دعي الصلاة أيام أقرائك لم يثبت إسناده، وروي أنه أمرها أن تدع الصلاة أيام أقرائها، أو أيام حيضها بالشك)سنن البيهقي الصغرى، رقم الحديث ٢٧٧٣، ج: ٣، ص ١٥١.

(١) سنن الترمذي،كتاب الطلاق، باب مَا جَاءَ أَنَّ طَلاَقَ الأَمَةِ تَطْلِيقَتَانِ، رقم الحديث ١١٨٢، ج: ٢، ص ٤٧٤، والحديث فيه مقال فصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وضعفه ابن كثير.

(٢) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دراسة وتحقيق وتعليق، الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، ج: ١، ص ٤٤٠.

(٣) مدارك التنزيل وحقائق التأويل، ج: ١، ص ١١٤، موقع التفاسير: http://www.altafsir.com

(٤) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ج: ١، ص ٣٥٠.

(٥) سورة الطلاق، الآية: ١.

(٦) صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ

=

صرح في هذا الحديث المتفق عليه، بأن الطهر هو العدة التي أمر الله أن يطلق لها النساء، مبيناً أن ذلك هو معنى قوله تعالى: ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾، وهذا نصٌّ من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ في محل النزاع[1].

وممن قال بذلك من المفسرين البيضاوي[2]، والبقاعي[3]، ومحمد رشيد رضا[4]، والشنقيطي[5].

والذي يراه الباحث مرادا من لفظ القروء في الآية القرآنية الكريمة هو الأطهار، لا الحيضات وذلك لأربعة أسباب هي:

الأول: أنه الموافق لنظم الآية وسياقها، حيث دلت قرينة زيادة التاء في قوله تعالى: ﴿ثَلَاثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾[6]، لدلالتها على تذكير المعدود، وهو الأطهار، ولو أراد سبحانه وتعالى الحيضات لقال ثلاث قروء بلا تاء، لأن العرب تقول ثلاثة أطهار، وثلاث حيضات.

الثاني: أنه الموافق لقوله تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ ، فاللام

=

وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ ﴾، سورة الطلاق: الآية ١، رقم الحديث ٥٢٥١، ج: ٣، ص ٤٠٠.

(١) الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، ج: ٤، ص ٤٠. أبو حيان، البحر المحيط، ج: ٢، ص ١٩٧.

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج: ٢، ص ٥٣٤.

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ج: ٣، ص ٢٩٦.

(٤) تفسير القرآن الحكيم الشهير باسم تفسير المنار، ج: ٢، ص ٢٧١.

(٥) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ج: ١، ص ١٨٤ ـ ١٧٧.

(٦) سورة البقرة، الآية: ٢٢٨.

للتوقيت، ووقت الطلاق المأمور به في الآية الكريمة هو الطهر، لا الحيض.

الثالث: أن هذا المفهوم من لام التوقيت في الطهر في آية سورة الطلاق هو الصريح جدا كما بينه الرسول ﷺ في حديث ابن عمر المتفق عليه: (فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهراً قبل أن يمسها، فتلك العدَّة كما أمر الله)[١]، فالنَّبي ﷺ صرح في هذا الحديث المتفق عليه، بأن الطهر هو العدة التي أمر الله أن يطلق لها النساء، وهذا الحديث فصل في محل النزاع، لأن مدار الخلاف هل القروء الحيضات أو الأطهار؟ وهذه الآية، وهذا الحديث، دلا على أنها الأطهار.

الرابع: أن الطلاق المشروع لا يكون في الحيض، وقصة ابن عمر رضي الله تعالى عنهما في الصحيحين مشهورة[٢].

قال الشنقيطي رحمه الله تعالى: "ولا يوجد في كتاب الله، ولا سنة نبيه ﷺ شيء يقاوم هذا الدليل، لا من جهة الصحة، ولا من جهة الصراحة في محل النزاع، لأنه حديث متفق عليه مذكور في معرض بيان معنى آية من كتاب الله تعالى، وقد صرح فيه النَّبي ﷺ بأن الطهر هو العدة مبيناً أن ذلك هو مراد الله جل وعلا، بقوله تعالى: ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾، فالإشارة في قوله ﷺ: (فتلك العدة) راجعة إلى حال الطهر الواقع فيه الطلاق، لأن معنى قوله: (فليطلقها طاهراً) أي: في حال كونها طاهراً، ثم بين أن ذلك

---

(١) صحيح البخاري كتاب النكاح، باب ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾، سورة الطلاق: الآية ١، رقم الحديث ٥٢٥١، ج: ٣، ص ٤٠٠.

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج: ٢، ص ٥٣٤.

الحال الذي هو الطهر هو العدة مصرحاً بأن ذلك هو مراد الله في كتابه العزيز، وهذا نص صريح في أن العدة بالطهر[1].

وبعد هذا تتبين عدم الحاجة إلى ما قاله الشوكاني من محاولته الجمع بين المذهبين في الآية الكريمة حيث يقول رحمه الله تعالى: "ويمكن أن يقال: إنها تنقضي العدّة بثلاثة أطهار، أو بثلاث حِيَض، ولا مانع من ذلك، فقد جوز جمع من أهل العلم حمل المشترك على معنييه، وبذلك يجمع بين الأدلة، ويرتفع الخلاف، ويندفع النزاع"[2].

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن،ج: ١، ص ١٧٨.

(٢) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم لتفسير، ج: ١، ص ٤١١ ـ ٤١٢.

النموذج الثاني: الاشتراك في اسم التأويل، في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [1].

اختلف المفسرون في تحديد المعنى المراد من اسم التأويل في الآية الكريمة، وذلك بسبب كون التأويل من الألفاظ المشتركة بين معنيين هما:

الأول: التفسير والبيان، ومنه بهذا المعنى قول رَسُولِ اللَّهِ ﷺ في ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: (اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل)[2]، وقول ابن جرير وغيره من العلماء، القول في تأويل قوله تعالى: كذا، أي: تفسيره وبيانه، وقول عائشة رضي الله تعالى عنها الثابت في الصحيح: (كان رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي، يتأول القرآن)[3] تعني: يمتثله ويعمل به، كما في سورة النصر.

الثاني: حقيقة الأمر التي يؤول إليها، وهذا المعنى هو الغالب في

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٧.

(٢) المستدرك على الصحيحين، ذكر عبد الله بن عباس بن عبد المطلب رضي الله عنهما، رقم الحديث: ٦٣٥٩، ج: ٣، ص ٦٥٨. قال أبو عبد الله الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. واحديث صحيح، وأصله في صحيح البخاري كتاب الوضوء، باب وَضْعِ الْمَاءِ عِنْدَ الْخَلاَءِ، ولفظ البخاري: (اللهم فقهه في الدين) رقم الحديث ١٤٣، ج: ١، ص ٦٨.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي، الصلاة، باب مَا يُقَالُ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ، ج: ٤، ص: ٢٠١.

القرآن الكريم، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾(1)، وقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾(2)، وقوله تعالى: ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(3)، وقوله تعالى: ﴿ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾(4)، إلى غيرها من الآيات.

وسبب اختلاف المفسرين في معنى التأويل على هذا النحو هو اختلاف اللغويين في المادة اللغوية التي يدور عليها الجذر اللغوي (أ و ل) حيث أنه يدور عندهم على أصلين هما:

الأول: الكشف والبيان

الثاني: الإيالة، وهي السياسة.

قال الفيروزآبادي رحمه الله تعالى: "واشتقاقه من الأوْل، وهو

(1) سورة يوسف، الآية: ١٠٠.

(2) سورة الأعراف، الآية: ٥٣.

(3) سورة يونس، الآية: ٣٩.

(4) سورة الإسراء، الآية: ٣٥.

الرُّجوع، فيكون التأويل بيان الشىء الَّذى يرجع إِليه معنى الآية ومقصودها، وقيل: التأويل إِبداءُ عاقبة الشىءِ، واشتقاقه من المآل بمعنى المرجِع والعاقِبة، فتأْويل الآية ما تؤول إِليه من معنى وعاقبة، وقيل: اشتقاقه من لفظ الأَوّل. وهو صرف الكلام إِلى أَوَّله، وهذانِ القولانِ متقاربان، ولهذا قيل: أَوَّل غرض الحكيم آخر فعله، وقيل اشتقاقه من الإِيالة بمعنى السياسة، وعلى هذا يكون معنى التأويل أَن يسلِّط المؤوِّل ذهنه وفكره على تتبّع سِرِّ الكلام إِلى أَن يظهر مقصودُ الكلام، ويتَّضح مراد المتكلِّم"[1].

والذي يراه الباحث مرادا من لفظ التأويل في الآية القرآنية الكريمة هو معنى المآل والعاقبة، لا معنى التفسير والبيان، وذلك لأربعة أسباب هي:

الأول: أن تفسير التأويل بالمآل والعاقبة هو المؤيد بدلالة سياق الآية الجاري وفق المقابلة بين

الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون متشابه القرآن ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، وبين الراسخين في العلم الذين يفوضون علم حقيقة المتشابه إلى الله عز وجل سائلينه ألا يزيغ قلوبهم كما فعل سبحانه بأصحاب القلوب المريضة.

الثاني: أن تفسير التأويل بالمآل والعاقبة هو المؤيد بدلالة سياق الآية، حيث صرحت الآية الكريمة بكل وضوح أن علم المتشابه لله تعالى وحده،

(١) بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز، مادة (أول)، ج: ١، ص: ٧٩ ـ ٨٠.

وقد استأثر بعلمه، فالوقف على اسم الجلالة في الآية الكريمة وقف تام: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ ، فمن المعلوم أن الواو في قوله سبحانه: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ محتملة لمعنيين هما:

١ – الاستئناف، فيكون قوله تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ مبتدأ، وخبره ﴿يَقُولُونَ﴾ ، والمعنى: أن المتشابه لا يعلم تأويله إلا الله وحده، وممن قال بذلك عمر، وابن عباس، وعائشة، وعروة بن الزبير، وعمر بن عبد العزيز، وابن مسعود، وأبي بن كعب، نقله عنهم القرطبي، ونقله ابن جرير عن يونس عن أشهب عن مالك بن أنس، وهو مذهب الكسائي، والأخفش، والفراء، وأبي عبيد.

٢ – العطف، فيكون قوله تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ معطوفاً على لفظ الجلالة، وعليه فالمتشابه يعلم تأويله الراسخون في العلم أيضاً، وممن قال بذلك ابن عباس، وبه قال مجاهد، والربيع، ومحمد بن جعفر بن الزبير، والقاسم بن محمد، وغيرهم.

الثالث: وفي الآية إشارات تدل على أن الواو استئنافية لا عاطفة، نص عليها ابن قدامه رحمه الله تعالى حيث يقول: "ولأن في الآية قرائن تدل على أن الله سبحانه منفرد بعلم تأويل المتشابه، وأن الوقف الصحيح عند قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ لفظا ومعنى، أما اللفظ: فلأنه لو أراد عطف الراسخين لقال: ويقولون آمنا به بالواو، وأما المعنى: فلأنه ذم مبتغي التأويل ولو كان ذلك للراسخين معلوما لكان مبتغيه ممدوحا لا

مذموما، ولأن قولهم: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ يدل على نوع تفويض وتسليم لشيء لم يقفوا على معناه، سيما إذا اتبعوه بقولهم: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ فذكرهم ربهم ها هنا يعطي الثقة به والتسليم لأمره، وأنه صدر منه، وجاء من عنده كما جاء من عنده المحكم، ولأن لفظة (أما) لتفصيل الجمل فذكره لها في الذين في قلوبهم زيغ من وصفه إياهم لابتغاء المتشابه وابتغاء تأويله يدل على قسم آخر يخالفهم في هذه الصفة، وهم الراسخون، ولو كانوا يعلمون تأويله لم يخالفوا القسم الأول في ابتغاء التأويل"[١].

قال الشنقيطي رحمه الله تعالى: "ومما يؤيد أن الواو استئنافية لا عاطفة، دلالة الاستقراء في القرآن أنه تعالى إذا نفى عن الخلق شيئاً، وأثبته لنفسه، أنه لا يكون له في ذلك الإثبات شريك كقوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَاۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَۚ ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةًۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَاۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[٤]، فالمطابق لذلك أن يكون قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ معناه: أنه لا يعلمه إلا هو

---

(١) روضة الناظر وجنة المناظر، ص ٦٧ - ٦٨.

(٢) سورة النمل، الآية: ٦٥.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٨٧.

(٤) سورة القصص، الآية: ٨٨.

وحده كما قاله الخطابي، وقال: لو كانت الواو في قوله تعالى: ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ ﴾ للنسق لم يكن لقوله تعالى: ﴿ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ فائدة، والقول بأن الوقف تام على قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ وأن قوله تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ﴾ ابتداء كلام هو قول جمهور العلماء للأدلة القرآنية التي ذكرنا"[1].

الرابع: أن تفسير التأويل بالمآل والعاقبة هو المتفق مع غالب الآيات القرآنية في هذا الباب، ومن المقرر أن الحمل على غالب الاستعمال القرآني أولى.

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن،ج: ١، ص ٣١٧-٣١٨.

النموذج الثالث: الاشتراك في المعنى المراد من اسم الموصول وصلته "الذي بيده عقدة النكاح"، في قوله تعالى: ﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[1].

اختلف المفسرون في تحديد المعنى المراد من الاسم الموصول وصلته، وهو الذي بيده عقدة النكاح في الآية الكريمة، وذلك بسبب اشتراك كل من الزوج وولي الزوجة في امتلاك عقدة النكاح، فالذي بيده عقدة النكاح يحتمل اثنين هما:

الأول: الزوج، وهو المطلق؛ لأن بيده عقد نفسه وهو القبول، ونسب هذا إلى علي، وشريح، وطاووس، ومجاهد، وهو قول أبي حنيفة والشافعي في الجديد، فبيده التصرف في عقدة النكاح بالإبقاء، والطلاق، ومعنى عفوه: تكميله الصداق، أي: إعطاؤه كاملاً، وممن اختاره الشوكاني[2].

الثاني: ولي الزوجة، وبه قال النخعي، وعلقمة، والحسن، وطاوس، وعطاء، وأبو الزناد، وزيد بن أسلم، وربيعة، والزهري، والأسود بن يزيد، والشعبي، وقتادة، ومالك، والشافعي في قوله القديم، وممن اختاره الزمخشري حيث قال: " يعني إلا أن تعفو المطلقات عن أزواجهن فلا يطالبنهم بنصف المهر، وتقول المرأة: ما رآني، ولا خدمته، ولا استمتع بي

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٣٧.

(٢) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم لتفسير، ج: ١، ص ٤٣٩.

فكيف آخذ منه شيئاً، أو يعفو الولي الذي يلي عقد نكاحهن، وهو مذهب الشافعي، وقيل: هو الزوج، وعفوه أن يسوق إليها المهر كاملاً، وهو مذهب أبي حنيفة، والأوّل ظاهر الصحة، وتسمية الزيادة على الحق عفواً فيها نظر"[1].

والذي يراه الباحث مرادا من الاسم الموصول وصلته، وهو الذي بيده عقدة النكاح في الآية الكريمة، هو الزوج، لا ولي الزوجة، وذلك لثلاثة أسباب هي:

الأول: أنه الموافق لنظم الآية وسياقها، حيث دلت قرينة التصريح بعفو النساء المطلقات في الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ ﴾[2]، ومعناه: أن المطلقات يتركن النصف الذي يجب لهنّ على الأزواج، ولم تسقط النون مع حرف النصب (أن) لأن جمع المؤنث في المضارع على حالة واحدة في الرفع، والنصب، والجزم لكون النون ضميراً، وليست بعلامة إعراب كما في المذكر في قولك: الرجال يعفون، وهذا عليه جمهور المفسرين، فالراجح بدلالة المقابلة بين الطرفين أن المراد من التركيب المشترك هو الزوج، الذي قوبل عفوه بعفو المطلقات، وهذ من إيماءات السياق الدلالي.

الثاني: أنه الموافق للشائع من الإطلاق اللغوي، فالزوج هو الذي بيده عقدة النكاح حقيقة.

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، ج: ١، ص ٤٦٤ ـ ٤٦٣.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٢٨.

الثالث: أن عفو الزوج بإكمال المهر هو صادر عن المالك مطلق التصرف بخلاف الولي، وتسمية الزيادة عفواً سائغ لغة وقرآنا، فهو إما من باب المشاكلة، أو أن العفو هو الزيادة والفضل كما نطق به قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ﴾ (١).

وبهذا يعلم تأخر ما قرره ابن عطية رحمه الله تعالى من الجمع بين القولين حملا للمشترك على معنييه حيث يقول: "فعلى القول الأول: الندب لهما هو في النصف الذي يجب للمرأة فإما أن تعفو هي، وإما أن يعفو وليها، وعلى القول الثاني: فالندب في الجهتين إما أن تعفو هي عن نصفها فلا تأخذ من الزوج شيئاً، وإما أن يعفو الزوج عن النصف الذي يحط فيؤدي جميع المهر، وهذا هو الفضل منهما، وبحسب حال الزوجين يحسن التحمل والتجمل"(٢).

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٩.

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج: ١، ص ٣٢٠ ـ ٣٢١.

النموذج الرابع: الاشتراك في الوصف بالعتيق، في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ [(١)].

اختلف المفسرون في تحديد المعنى المراد من وصف البيت الحرام بالعتيق، وذلك بسبب اشتراك كلمة العتيق الذي يحتمل ثلاثة معان هي:

الأول: أن المراد بالعتيق القديم، لأنه أقدم مواضع التعبد، فالبيت العتيق هو البيت العريق.

الثاني: أن الله أعتق البيت الحرام من الجبابرة، والعتق من الجبابرة كالعتق من الرق، فهو البيت المحرر، وقصده بالحج والطواف من أعظم أسباب العتق من النار.

الثالث: أن المراد بالعتق فيه الكرم، والعرب تسمي القديم عتيقاً[(٢)].

والذي يراه الباحث مقصودا من وصف الكعبة شرفها الله بالعتيق في الآية الكريمة هو المعنى الأول والثاني وهما: القديم، والمحرر، وذلك لسببين هما:

الأول: أن تفسير العتيق بالقديم هو الموافق لمنطوق آية قرآنية كريمة وهي قوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾[(٣)]، وهذ من إيماءات السياق الدلالي للآيات القرآنية الكريمة.

الثاني: أن تفسير العتيق بالمحرر من الرق للبشرية هو الملائم لسياق

---

(١) سورة الحج، الآية: ٢٩.

(٢) زاد المسير في علم التفسير، ج: ٥، ص ٤٢٧ ـ ٤٢٨.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٩٦.

الآية نفسه في طواف الركن في الحج وهو طواف الإفاضة، فالكعبة هي البيت المحرر، وقصده بالحج والطواف من أعظم أسباب العتق من النار، ووصف البيت بالمحرر تومئ إليه سورة الفيل بكمالها، والمعاني الثلاثة حق في وصف الكعبة المشرفة، ولكن القرآن دل على المعنيين المذكورين بدلالة السياق القريب والبعيد، وخير ما يفسر به القرآن القرآن عينه.

المطلب الرابع

أثر السياق في الترجيح بين معاني المشترك اللفظي في الأفعال.

وفيه نموذجان:

النموذج الأول: الاشتراك في فعل عسعس، في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾[(1)].

اختلف المفسرون في تحديد المعنى المراد من **فعل عسعس** في الآية الكريمة، وذلك بسبب كون **عسعس** من الألفاظ المشتركة بين معنيين هما:

الأول: أقبل.

الثاني: أدبر.

قال الإمام الآلوسي رحمه الله تعالى: "﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾[(2)]، أي: أدبر ظلامه، أو أقبل، وكلاهما مأثوران عن ابن عباس وغيره، وهو من الأضداد عند المبرد، وقال الراغب: العسعسة والعساس رقة الظلام، وذلك في طرفي الليل، فهو من المشترك المعنوي عنده، وليس من الأضداد، وفسر عسعس هنا: بأقبل وأدبر معاً وقال ذلك في مبدأ الليل ومنتهاه"[(3)].

ويؤيد المعنى الأول وهو أن الفعل ﴿عَسۡعَسَ﴾ في سورة التكوير بمعنى أقبل الليل وظلامه، أنه الغالب في القرآن الكريم، فالله تعالى يقسم

---

(1) سورة التكوير، الآية:١٧.

(2) سورة التكوير، الآية:١٧.

(3) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج: ٣٠، ص ٥٨.

بالليل وظلامه إذا أقبل، وبالفجر وضيائه إذا أشرق، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾[3]، كما يشهد للمعنى الثاني قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ۝٣٣ وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ﴾[4]، فيكون الفعل ﴿عَسۡعَسَ﴾ في سورة التكوير بمعنى أدبر ظلامه مطابقا لمعنى آية المدثر.

والذي يراه الباحث مقدما من معنيي الفعل عسعس هو المعنى الأول، وذلك لسببين هما:

أولا: أن تفسير عسعس بأقبل الليل بظلامه هو المؤيد بدلالة السياق القريب الجاري وفق المقابلة بين إقبال الليل بظلامه، وإقبال النهار بضيائه، وهو اختيار الإمام الآلوسي[5].

ثانيا: أن تفسير عسعس بأقبل الليل بظلامه هو المتفق مع غالب الآيات القرآنية في هذا الباب، ومن المقرر أن الحمل على غالب القرآن الكريم أولى، وهو اختيار الحافظ ابن كثير خلافا لابن جرير رحمهما الله[6].

---

(١) سورة الليل، الآية: ١ ـ ٢.

(٢) سورة الشمس، الآية: ٣ ـ ٤.

(٣) سورة الضحى، الآية: ١ ـ ٢.

(٤) سورة المدثر، الآية: ٣٣ ـ ٣٤.

(٥) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج: ٣٠، ص ٥٨.

(٦) تفسير القرآن العظيم، ج: ١٤، ص ٢٦٩ ـ ٢٧٠.

النموذج الثاني: الاشتراك في فعل يعدلون، في قوله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [1].

اختلف المفسرون في تحديد المعنى المراد من **فعل يعدلون** في الآية الكريمة، وذلك بسبب كون **يعدلون** مشترك بين معنيين هما:

الأول: عدل به غيره إذا ساواه به، والمعنى أن العرب يجعلون لله سبحانه نظيراً وعديلاً.

الثاني: عدل بمعنى مال وصد فهو من العدول عن الشيء بمعنى الانحراف والميل عنه، فالمعنى: إن الذين كفروا بربهم يميلون وينحرفون عن طريق الحق إلى الكفر والضلال.

والذي يراه الباحث مقدما من معنيي الفعل يعدلون لموافقته لقاعدة السياق هو المعنى الأول، وذلك أن تفسير العدل بالمساواة هو الغالب في الاستعمال القرآني لهذه المادة اللغوية في هذا الباب، كقوله تعالى: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [2]، وقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴾ [3]، وقد أشار الله تعالى في آيات كثيرة إلى أن الكفار ساووا بين المخلوق

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١.

(٢) سورة الشعراء، الآية: ٩٧ ـ ٩٨.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٦٥.

والخالق، كقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[4]، إلى غيرها من الآيات، ومن المقرر أن الحمل على غالب القرآن الكريم أولى، وهو اختيار الحافظ ابن كثير رحمه الله[5].

(١) سورة الرعد، الآية: ١٦.

(٢) سورة الرعد، الآية: ٣٣.

(٣) سورة النحل، الآية: ١٧.

(٤) سورة الروم، الآية: ٢٨.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ج: ٦، ص ٨.

المطلب الخامس

أثر السياق في الترجيح بين معاني المشترك اللفظي في الحروف.

وفيه نموذجان:

النموذج الأول: الاشتراك في حرف الواو، في قوله تعالى: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[1].

لا يخفى أن الواو في قوله سبحانه: ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ﴾ محتملة في الحرفين أن تكون عاطفة على ما قبلها، وأن تكون استئنافية، ولم يبين ذلك في هذا الموضع، ولكن بين في موضع آخر أن قوله سبحانه: ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ معطوف على قوله تعالى: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾، فالواو في هذه الجملة واو العطف، وأن قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ ﴾ استئناف، والجار والمجرور خبر المبتدأ الذي هو﴿غِشَـٰوَةٌ ﴾، فالواو في هذه الجملة واو الاستئناف، والمعنى على هذين الوجهين في معنى الواو: هو أن الختم على القلوب والأسماع، وأن الغشاوة على الأبصار، وذلك في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[2]، والختم: الاستيثاق من الشيء حتى لا يخرج منه داخل فيه، ولا يدخل فيه خارج عنه، والغشاوة:

---

(١) سورة البقرة، الآية:٧.

(٢) سورة الجاثية، الآية:٢٣.

الغطاء على العين يمنعها من الرؤية.

والذي يراه الباحث أن يكون حرف الواو في جملة الأسماع عاطفة، وفي جملة الأبصار استئنافية راجح لسببين هما:

الأول: لأن الختم يناسب الأسماع كما يناسب القلوب إذ كلاهما يشبه بالوعاء، ويتخيل فيه معنى الغلق والسد، فإن العرب تقول: استكَّ سمعه، ووقر سمعه، كما يشهد له قوله تعالى: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴾[2].

الثاني: لأن الغشاوة تناسب الأبصار لا الأسماع[3]، وهذا ما قصدته من الترجيح بالسياق الدلالي للآية القرآنية الكريمة، يقول الشنقيطي رحمه الله تعالى: "فإن قيل: قد يكون الطبع على الأبصار أيضاً، كما في قوله تعالى في سورة النحل: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾[4]، فالجواب: أن الطبع على الأبصار المذكور في آية النحل: هو الغشاوة المذكورة في سورة البقرة والجاثية، والعلم عند الله تعالى"[5].

(١) سورة البقرة، الآية:١٩.

(٢) سورة نوح، الآية:٧.

(٣) التحرير والتنوير، ج: ١، ص ٢٥٥.

(٤) سورة النحل، الآية:١٠٨.

(٥) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن،ج: ١، ص ٥٧ ـ ٥٩.

النموذج الثاني: الاشتراك في حرف الجر (من)، في كلمة: (منه)، في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾[1].

اختلف الفقهاء فيما يتيمم به، أهو متعين بالتراب وما له غبار، أو هو جائز بكل صعيد طيب؟ وهذا الخلاف مبني على الاختلاف في معنى حرف الجر (من) في قوله تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُ ﴾ فإنها محتملة لمعنيين هما:

الأول: التبعيض، وعليه فيتعين في التيمم التراب الذي له غبار يعلق باليد، وبه قال الإمامان الشافعي، وأحمد رحمهما الله تعالى، قال الإمام الشافعي: "وَكُلُّ مَا وَقَعَ عَلَيْهِ اسْمُ صَعِيدٍ لَمْ يُخَالِطْهُ نَجَاسَةٌ، فَهُوَ: صَعِيدٌ طَيِّبٌ يُتَيَمَّمُ بِهِ وَلَا يَقَعُ اسْمُ صَعِيدٍ إلَّا عَلَى تُرَابٍ ذِي غُبَارٍ ؛ فَأَمَّا الْبَطْحَاءُ الْغَلِيظَةُ، وَالرَّقِيقَةُ، وَالْكَثِيبُ الْغَلِيظُ فَلَا يَقَعُ عَلَيْهِ اسْمُ صَعِيدٍ"[2].

الثاني: لابتداء الغاية، أي مبدأ ذلك المسح كائن من الصعيد الطيِّب، فلا يتعين ما له غبار، وبه قال الإمامان أبو حنيفة، ومالك رحمهما الله تعالى،

(١) سورة المائدة، الآية:٦.

(٢) أحكام القرآن للشافعي، ص: ٣٨، موقع الإسلام: http://www.al-islam.com

قال الجصاص: "وَرَوَى الْحَسَنُ بْنُ زِيَادٍ عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ: أَنَّهُ يُجْزِيهِ إذَا تَرَكَ الْيَسِيرَ مِنْهُ؛ وَهَذَا أَوْلَى بِمَذْهَبِهِ؛ لِأَنَّ مِنْ أَصْلِهِ جَوَازَ التَّيَمُّمِ بِالْحِجَارَةِ الَّتِي لَا غُبَارَ عَلَيْهَا وَلَيْسَ عَلَيْهِ تَخْلِيلُ أَصَابِعِهِ بِالْحِجَارَةِ"[1].

والذي يراه الباحث أن يكون حرف الجر (من) في قوله تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُ﴾ لابتداء الغاية، وذلك لثلاثة أسباب هي:

الأول: أن تفسير حرف الجر (من) في الآية الكريمة بابتداء الغاية، هو المؤيد بدلالة سياق الآية، وذلك في قوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ﴾، فقوله تعالى: ﴿مِّنۡ حَرَجٖ﴾ نكرة في سياق النفي زيدت قبلها ﴿مِّنۡ﴾ والنكرة في سياق النفي نص في العموم، كما تقرر في الأصول، فالآية تدل على عموم النفي في كل أنواع الحرج، والمناسب لذلك كون (من) لابتداء الغاية، لأن كثيراً من البلاد ليس فيه إلا الرمال، أو الجبال، فالتكليف بخصوص ما فيه غبار يعلق باليد، لا يخلو من حرج في الجملة.

الثاني: أن تفسير حرف الجر (من) في الآية الكريمة بابتداء الغاية، هو المؤيد بسنة سيد الورى رَسُولِ اللهَّ ﷺ فيما أخرجه الشيخان في صحيحيهما من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: (أعطيت خمساً لم يعطهن أحدٌ من قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر،

(١) أحكام القرآن للجصاص، ج: ٥، ص ٤٣٨، موقع الإسلام:
http://www.al-islam.com

وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة، فليصلِّ)[1]، وفي لفظ: (فعنده مسجده وطهوره) [2]، قال الشنقيطي رحمه الله تعالى: "فهذا نص صحيح صريح في أن من أدركته الصلاة في محل ليس فيه إلا الجبال أو الرمال أن ذلك الصعيد الطيب الذي هو الحجارة، أو الرمل طهور له ومسجد، وبه تعلم أن ما ذكره الزمخشري من تعين كون (من) للتبعيض غير صحيح"[3] .

الثالث: أن تفسير حرف الجر (من) في الآية الكريمة بابتداء الغاية، هو المتفق مع السياق القرآني كافة، وذلك في رفع الحرج عن المكلفين، وهو مقصد من مقاصد الشريعة الغراء، كما في قوله تعالى: ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾[4]، هذا هو السياق المقاصدي للقرآن الكريم، ومن المقرر أن الحمل على ما تشهد له مقاصد القرآن الكريم مقدم على ما سواها.

---

(١) صحيح البخاري كتاب التيمم، باب: ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُ ﴾، سورة المائدة: الآية ٦، رقم الحديث ٣٣٥، ج: ١، ص ١٢٦.

(٢) السنن الكبرى، للبيهقي، كتاب الطهارة، باب التَّيَمُّمِ بَعْدَ دُخُولِ وَقْتِ الصَّلاَةِ، رقم الحديث ١٠٩٨، ج: ١، ص ٣٣٦، والحديث صحيح.

(٣) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ج: ٢، ص ٤٦.

(٤) سورة الحج، الآية: ٧٨.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وقد أتم علي نعمته بتمام هذا البحث، لأقف به على موضوع هو غاية في الأهمية لمعرفة أثر السياق الريادي في تحديد المعنى الخاص في النظم القرآني

الجليل من خلال تطبيق السياق بنوعيه الدلالي والمقامي على الألفاظ المشتركة في القرآن الكريم، ويحسن بي وقد انتهيت من هذه الدراسة أن أذكر أهم نتائجها وتوصياتها.

وقد تمخضت الدراسة عن النتائج الآتية:

أولا: أدرك المفسرون مفهوم السياق بِمعناه الاصطلاحي الدقيق، وقدَّموا أفكاراً وممارسات سياقية متميزة، أكَّدها البحث التفسيري وأثبت جدواها في التنظير والتطبيق، وهذا يبين أنّ المفسرين هم رواد نظرية السياق باعتبارهم قد سبقوا علماء اللغة المعاصرين الذين تُنسب إليهم نظرية السياق بأكثر من أربعة عشر قرنا.

ثانيا: أثبت البحث أن مصطلح السياق من وجهة نظر الدراسات التفسيرية يشتمل على مستويين:السياق الدلالي، والسياق المقامي الحاوي لكلّ ما يحيط باللفظ، أو النص من ملابسات، وأرادوا به سياق الحال، ومن المصطلحات التي استعملها علماء المسلمين قديما، والتي تصب في مفهوم السياق حديثا، مصطلح "المقام، والحال، ومقتضى الحال، والقرائن: لفظية" وغير لفظية).

ثالثا: أثبت البحث أنّ لدلالة السياق أهميةً كبرى في تعليل اختيار

المفردات، والصيغ، فلكلٍّ مفردة، أو صيغةٍ في القرآن الكريم دلالة خاصة يقتضيها السياق.

رابعا: أكد البحث على المعاني المرادة من الألفاظ المشتركة في القرآن الكريم بدلالة السياق الدلالي والمقامي، وأن القول بجواز حمل المشترك القرآني على معنييه، أو معانيه في النظم القرآني دائما غير سديد.

خامسا: أثبت البحث أن اللفظ المشترك لا يدلُّ في السياق إلا على معنى محدد، فالمشترك القرآني قد يدل على معنيين، أو أكثر خارج السياق، لكنها لا تدلُّ في السياق إلا على المعنى الذي يريده المتكلم، ويفهمه المخاطَب بمعونة القرائن السياقية.

سادسا: توصل البحث إلى أن القرآن لا يمكن أن تُسبر أغواره، أو تنكشف دلالاتُه على الوجه الأمثل إلا بِمراعاة المناسبة والعلاقات المتعددة بين آيات القرآن الكريم، وهذا لا يتأتَّى إلا بمراعاة السياق، وقد قال الإمام فخر الدين الرازي في تفسيره: "أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط" مفاتيح الغيب، ج: ١٠، ص ١٤٥.

سابعا: برهن البحث على امتياز المنهج السياقي بميزات تجعله يتبوأ مكانة رفيعة بين المناهج التفسيرية، منها: أن يجعل المعنى سهل الانقياد للدراسة والتحليل، كما أنه لم يخرج مع ذلك في التحليل اللغوي عن دائرة اللغة، ولذلك فإنه ناج من النقد المصوب نحو مناهج تفسيرية كالمنهج الإشاري وغيره.

وأما التوصيات فهي:

أولاً: ينبغي للمؤسسات التعليمية خاصة العليا منها لفت الأنظار إلى سبق مفسري القرآن الكريم في مجال الدلالات السياقية، في ضوء ما يسطره علماء الغرب حول نظرية السياق الحديثة، وتوظيف ذلك الإسهام الكبير في دور الأمة المسلمة في الإنتاج الحضاري ضمن المجالات العلمية الساخنة اليوم، والتي يدعي فيها الغربيون أنهم من حقق السبق فيها.

ثانياً: تكثيف الدراسات التطبيقية في مجال المنهج السياقي، خاصة في أبواب المجمل القرآني مما يسهم في تنقية النتاج التفسيري من الدخيل الذي تسرب إليه بقصد وبغير قصد.

وختاماً أسأل الله تبارك وتعالى التوفيق والتسديد لبلوغ الرؤية الثاقبة وفق منهج سليم وقول سديد، وصلى الله على سيد الخلق، وأول من تنشق عنه الأرض، وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

١. الآلوسي، أبو الثناء شهاب الدين محمود بن شكري البغدادي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، بدون رقم طبعة، ولا تاريخ نشر.

٢. البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل الجعفي، صحيح البخاري، قام بشرحه وتحقيقه محب الدين الخطيب، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه محمد فؤاد عبد الباقي، نشره وراجعه قصي محب الدين الخطيب، المكتبة السلفية، القاهرة، ط ١، ١٤٠٤هـ.

٣. البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود، معالم التنزيل، حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر، عثمان جمعه ضميرية، سليمان مسلم الحرش، دار طيبة، الرياض، بدون رقم طبعة، ١٤٠٩هـ.

٤. البقاعي، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، مصر، بدون رقم طبعة، ولا تاريخ نشر.

٥. البيضاوي، أبو الخير ناصر الدين عبد الله بن عمر، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، إعداد وتقديم محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان، بدون رقم طبعة، ولا تاريخ نشر.

٦. البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي، السنن الصغرى، وثق أصوله، وخرج حديثه، وعلق عليه الدكتور عبد المعطي أمين قلعي، دار الوفاء، المنصورة،ط ١٤١٠،١هـ، ١٩٨٩م..

٧. الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى، السنن، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه، الدكتور بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، ط ١، ١٩٩٦.

٨. ابن الجوزي، أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي القرشي، زاد المسير في علم التفسير، المكتب الإسلامي، بدون رقم طبعة، ولا تاريخ نشر.

٩. الحاكم، أبو عبد الله النيسابوري، طبعة متضمنة انتقادات الذهبي رحمه الله، ويليه تتبع أوهام الحاكم التي سكت عليها الذهبي لأبي عبد الرحمن مقبل بن هادي الوادعي، دار الحرمين، القاهرة، مصر، ط ١، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧.

١٠. أبو حيان، محمد بن يوسف الأندلسي، البحر المحيط، دراسة وتحقيق وتعليق، الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، شارك في تحقيقه، د/ زكريا عبد المجيد النوتي، د/ أحمد النجولي الجمل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ١، ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م.

١١. أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، السنن، إعداد وتعليق عزت عيد الدعاس، وعادل السيد، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط

١، ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م.

١٢. الذهبي، أ.د محمد حسين، التفسير والمفسرون، مكتبة وهبة، القاهرة، مصر، ط ٧، ٢٠٠٠م.

١٣. الرازي، محمد بن عمر فخر الدين، مفاتيح الغيب، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط ١، ١٤٠١هـ، ١٩٨١م.

١٤. الراغب، أبو القاسم الحسين بن محمد الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تم التحقيق والإعداد بمركز الدراسات والبحوث بمكتبة نزار مصطفى الباز، مكتبة نزار مصطفى الباز، بدون رقم طبعة، ولا تاريخ نشر.

١٥. رضا، محمد رشيد، تفسير القرآن الحكيم الشهير باسم تفسير المنار، دار المنار، القاهرة، مصر، ط ٢، ١٣٦٦هـ، ١٩٩٧م.

١٦. الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق مصطفى حجازي، سلسلة التراث العربي، مطبعة حكومة الكويت، بدون رقم طبعة، ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م.

١٧. الزرقاني، محمد عبد العظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن، حققه واعتنى به فواز أحمد زمرلي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط ١، ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م.

١٨. الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث، القاهرة، مصر، بدون رقم طبعة، ولا تاريخ نشر.

١٩. الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر الخوارزمي، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دراسة وتحقيق وتعليق، الشيخ عادل أحمد عبد الموجود،
٢٠. الشيخ علي محمد معوض، شارك في تحقيقه، د/ فتحي عبد الرحمن أحمد حجازي، مكتبة العبيكان، الرياض، السعودية، ط١، ١٤١٨هـ، ١٩٩٨م.
٢١. أبو السعود، محمد بن محمد العمادي، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، السعودية، بدون رقم طبعة، ولا تاريخ نشر.
٢٢. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق مركز الدراسات القرآنية، الأمانة العامة للشؤون العلمية، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، بدون رقم طبعة، ولا تاريخ نشر.
٢٣. الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار الجكني،. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، إشراف بكر بن عبد الله أبو زيد، تمويل مؤسسة سليمان بن عبد العزيز الراجحي الخيرية، مطبوعات مجمع الفقه الإسلامي، جدة، السعودية، بدون رقم طبعة، ولا تاريخ نشر.
٢٤. الشوكاني، محمد بن علي، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم لتفسير، حققه وخرج أحاديثه الدكتور عبد الرحمن عميرة،

وضع فهارسه وشارك في تخريج أحاديثه، لجنة البحث والتحقيق العلمي بدار الوفاء بدون رقم طبعة، ولا تاريخ نشر.

٢٥. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل القرآن، تحقيق الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية، دار هجر، القاهرة، مصر، ط١، ١٤٢٢ هـ، ٢٠٠١م.

٢٦. ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، بدون رقم طبعة، ولا تاريخ نشر.

٢٧. ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق وتعليق، الرحالة الفاروق، عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، السيد عبد العال السيد إبراهيم، محمد الشافعي الصادق الحناني، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدوحة، قطر، ط ٢، ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٧م.

٢٨. الفيروزآبادي، أبو الحسين أحمد بن زكَرِيّا، بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز، تحقيق الأستاذ محمد علي النجار، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان، بدون رقم طبعة، ولا تاريخ نشر.

٢٩. القاسمي، جمال الدين محمد، محاسن التأويل، وقف على طبعه، وتصحيحه، ورقمه وخرج آياته وأحاديثه، وعلق عليه، محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، مصر، ط ١، ١٣٧٦هـ، ١٩٥٧م.

٣٠. ابن قدامة، أبو محمد عبد الله بن أحمد المقدسي، روضة الناظر وجنة المناظر، تحقيق الدكتور عبد العزيز عبد الرحمن السعيد جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، بدون رقم طبعة، ١٣٩٩هـ.

٣١. القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، تحقيق عبدالله بن عبد المحسن التركي، شارك في تحقيق هذا الجزء محمد رضوان عرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط ١، ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م.

٣٢. ابن القيم، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر، بدائع الفوائد، تحقيق علي بن محمد العمران، إشراف بكر بن عبد الله أبو زيد، تمويل مؤسسة سليمان بن عبد العزيز الراجحي الخيرية، مطبوعات مجمع الفقه الإسلامي، جدة، السعودية، بدون رقم طبعة، ولا تاريخ نشر.

٣٣. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمرو القرشي. تفسير القرآن العظيم، أول طبعة مقابلة على النسخة الأزهرية، وعلى نسخة كاملة بدار الكتب المصرية، تحقيق مصطفى السيد أحمد، محمد السيد رشاد، محمد فضل العجماوي، علي أحمد عبد الباقي، حسن عباس قطب، مؤسسة قرطبة، مكتبة أولاد الشيخ للتراث، القاهرة، مصر، ط ١، ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م.

٣٤. الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد، النكت والعيون، راجعه وعلق عليه السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، مؤسسة الكتب العلمية، بيروت، لبنان، بدون رقم طبعة، ولا تاريخ

نشر.

٣٥. المجمع اللغوي، المعجم الوسيط، الإدارة العامة للمعجمات إحياء التراث، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط٤، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م.

٣٦. مسلم، أبو الحسين ابن الحجاج القشيري النيسابوري، صحيح مسلم بشرح النووي، المطبعة المصرية بالأزهر، إدارة محمد محمد عبد اللطيف، القاهرة، مصر، ط ١، ١٣٤٧ هـ، ١٩٢٩م.

المواقع الإلكترونية:

١ .الجرجاني، علي بن محمد بن علي. التعريفات، موقع الوراق:
http://www.alwarraq.com

٢ .الجصاص، أحمد بن علي الحنفي. أحكام القرآن، موقع الإسلام:
http://www.al-islam.com

٣ .السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، المزهر في علوم اللغة، موقع الوراق:
http://www.alwarraq.com

٤ .الشافعي، أبو عبد الله محمد بن إدريس القرشي. أحكام القرآن. موقع الإسلام:
http://www.al-islam.com

٥ .الشبكة العربية الأدبية على الرابط:
http://ar8i.net/vb/showthread.php?t=3205

٦ .الشبكة العنكبوتية على الرابط:
http://www.alukah.net/Sharia/1045/431/#ixzz2IuorCdbq

٧ .الشبكة العنكبوتية على الرابط:

IuorCdbq٢/#ixzz٤٣١/١٠٤٥http://www.alukah.net/Sharia/
٨.ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن زكَرِيّا، الصاحبي في فقه اللغة، موقع الوراق:
http://www.alwarraq.com
٩.النسفي، أبو البركات حافظ الدين عبدالله بن أحمد، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، موقع التفاسير: http://www.altafsir.com

مفهوم النسخ عند المتقدمين والمتأخرين

(نظرة تقويمية)

د. مساعد بن سليمان الطيار

الأستاذ بقسم الدراسات القرآنية

كلية التربية - جامعة الملك سعود

ملخص بحث

مفهوم النسخ عند المتقدمين والمتأخرين نظرة تقويمية

يتحدث هذا البحث عن مصطلح النسخ، وما مرَّ به من تغيرات عند العلماء، وأثر هذا التغير على أحكام بعض العلماء على مواضع النسخ عند الصحابة.

وبيَّن أن بعض العلماء قد تنبَّهوا لهذا، فأحكموا التعامل مع هذه المرويات، وخرَّجوها على ما يناسبها من مصطلحات المتأخرين.

كما ذهب البحث إلى التنبيه على أن مصطلح النسخ الأصولي يختص بنوع من أنواع النسخ عند علماء القرآن والتفسير، وذهب إلى اجتهادٍ في تعريف شامل لأنواع النسخ بتعريف واحد جامع.

An Evaluative Review of the Concept of Abrogation of Qur'anic Verses According to Earlier and Later Muslim Scholars

Musa'ad S. Al-Tayyar
Associate professor, Department of Qur'anic Studies
College of Education, King Saud University

Abstract

The present research work deals with the concept of "abrogation", and the changes in its meaning due to the different ways in which scholars have perceived the concept. The paper also studies the impact of these changes on the rulings of some Muslim jurisprudents in situations where abrogation was valid in the era of Prophet Muhammad's companions' era.

The investigation shows that some jurisprudents were aware of this issue, and consequently, they were able to wisely address such narratives and relate them to their appropriate terminology established by later jurisprudents.

Moreover, it is noted in this research that the principle term of *abrogation* pertains to a type of abrogation exercised by scholars of Qur'an and its explication. Therefore,, as an independent reasoning, a single comprehensive definition inclusive of all the types of abrogation, is provided.

المقدمة

الحمد لله المالك للمخلوقين، فلا يكون في ملكه إلا ما أمر هو به، ولا يخرج عن سلطانه أي شيء، ﴿ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[يس: ٨٢]، والصلاة والسلام على السيد الكريم محمد بن عبد الله الذي بلغ ما أُنزِل إليه، وعلى الآل والصحب الذين تلقوه عنه، وبلغوه لمن بعدهم حتى وصلنا نقيًّا لم يُشَب.

أما بعد:

فإن شأن المصطلح وتحريره في العلوم من الشؤون المهمة التي قد يغفل عنها بعض الباحثين، وتظهر بعض المشكلات في العلوم إذا ساد تعريف المصطلح وانتشر بدون توجيه نقد له أو تقويم حتى يمرَّ عليه الزمن دونما تغيير إلا في بعض كلمات لا تؤثر على أصل التعريف.

ومن هذه المصطلحات مصطلح (النسخ) الذي لا يخفى على الدارسين في علوم الشريعة، فهو موجود في علم الفقه، وفي علم أصول الفقه، وفي علم الحديث، وفي التفسير وفي علوم القرآن، ولا يختلف مدلول المصطلح بين هؤلاء، وإن كان فيه تفصيل من جهة المفسرين سيأتي بيانه.

ومن المشكلات التي في هذا المصطلح أمران:

الأول: التطور الذي حصل له حتى انحسر في مصطلح ضيِّق .

الثاني: مدى انطباق المصطلح المتأخر الذي شاع على أنواع النسخ في التفسير وعلوم القرآن.

وبهذا سأبني البحث على مقدمة وفصلين وخاتمة، على النحو الآتي:

المقدمة، وفيها ذكر أهمية الموضوع .

الفصل الأول: نظرة تاريخية في مصطلح النسخ.

المبحث الأول: النسخ في اللغة والقرآن.

المبحث الثاني: مصطلح النسخ بين المتقدمين والمتأخرين.

أولًا: تطبيقات عبارة النسخ عند الصحابة والتابعين وأتباعهم.

ثانيًا: مصطلح النسخ عند المتأخرين (الأصوليين ومن تبعهم من المفسرين).

ثالثًا: بيان المحققين لعبارة النسخ عند السلف

رابعًا: الفرق بين المصطلحين، وما ينتج عنه.

الفصل الثاني: أنواع النسخ، وعلاقتها بما استقر عليه مصطلح النسخ.

المبحث الأول: أنواع النسخ.

المبحث الثاني: علاقة أنواع النسخ بمصطلح النسخ.

المبحث الثالث: التعريف الجامع لأنواع النسخ.

الخاتمة، وفيها أهم النتائج والتوصيات.

وأسأل الله أن يبارك لي فيما أكتب، وأن يريني الحق حقًا ويرزقني اتِّبَاعه، وأن يجعل الصواب حليفي، إنه سميع مجيب.

الفصل الأول: نظرة تاريخية في مصطلح النسخ

المبحث الأول: النسخ في اللغة والقرآن

وردت مادة (نسخ) مفردةً قرآنية لها مدلولها في سياقاتها التي وردت فيها، ولها ألفاظ مقاربة؛ كالمحو والنسيان والتبديل[1]، في مثل قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ١٠١][2].

والآيات التي وردت فيها مفردة النسخ ما يأتي:

١ - قوله تعالى: ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ١٠٦].

٢ - قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ

---

(١) هذه الألفاظ القرآنية، وما تحمله من دلالات = محل بحث مستقلٍّ، ولم أعرِّج عليه في هذا البحث، لخروجه عن الهدف المقصود به.

(٢) قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: وإذا نسخنا حكم آية فأبدلنا مكانه حكم أخرى، ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ﴾ [النحل: ١٠١] يقول: والله أعلم بالذي هو أصلح لخلقه فيما يبدل ويغير من أحكامه، ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ﴾ [النحل: ١٠١] يقول: قال المشركون بالله المكذبو رسوله لرسوله: إنما أنت يا محمد مفتر، أي مكذب تخرص بتقول الباطل على الله يقول الله تعالى: بل أكثر هؤلاء القائلين لك يا محمد إنما أنت مفتر جهال بأن الذي تأتيهم به من عند الله ناسخه ومنسوخه لا يعلمون حقيقة صحته. وبنحو الذي قلنا في تأويل قوله: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ﴾ [النحل: ١٠١] قال أهل التأويل ...» تفسير الطبري (١٤: ٣٦٢).

أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [الحج:٥٢].

٣ـ قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجاثية:٢٩].

٤ـ قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٤].

وأما مدلول لفظ (نسخ) في لغة العرب:

فقال صاحب كتاب العين: «نسخ: النَّسْخُ والانتساخُ: اكتتابك في كتابٍ عن معارِضه، والنَّسْخُ: إزالتك أمراً كان يعمل به ثم تَنْسَخُهُ بحادثٍ غيره، كالآية تنزل في أمر ثم يخفف فتُنْسَخُ بأخرى، فالأولى منسوخة والثانية ناسخة، وتناسُخُ الورثة، وهو موت ورثةٍ بعد ورثةٍ والميراث لم يقسم، وكذلك تَناسُخُ الأزمنة، والقرن بعد القرن»[1].

وقال الفراء (ت:٢٠٧هـ): «مسَخه الله قرداً؛ ونَسَخه قرداً؛ بمعنىً واحد»[2].

وقال ابن الأعرابي (ت:٢٣١هـ): «النسخ: تبديل الشيء من الشيء وهو غيره، والنسخ: نقل الشيء من مكان إلى مكان وهو هو»[3].

وقال العجّاج في إحدى أراجيزه:

---

(١) كتاب العين، للخليل، تحقيق الدكتور مهدي مخزومي والدكتور إبراهيم السامرائي (٤: ٢٠١).

(٢) تهذيب اللغة للأزهري (٧: ١٨٢).

(٣) تهذيب اللغة للأزهري (٧: ١٨٢).

«إذا الأعادي حَسَبُونا بـَخْبَخُوا * بالجد والقبص الذي لا يُنْسَخُ»[1].

قال الأصمعي (ت: ٢١٦): «وقوله: لا يُنْسَخ، يقول: لا يُحَوَّل»[2].

وقال أبوحاتم السجستاني(ت:٢٥٥هـ): «النسخ: أن تحوِّل ما في الخلية من العسل والنحل في أخرى، ومنه: نَسْخُ الكتابِ»[3].

وقال الجوهري (ت:٣٩٨هـ): «نَسَخَتِ الشمسُ الظلَّ وانْتَسَخَتْهُ: أزالته، ونَسَخَتِ الريحُ آثارَ الدارِ: غَيَّرتها، ونَسَخْتُ الكتاب؛ وانْتَسَخْتُهُ؛ واسْتنسختُهُ؛ كلُّه بمعنًى، والنُسْخَةُ بالضم: اسم المُنْتَسَخِ منه، ونَسْخُ الآيةِ بالآيةِ: إزالة مِثل حكْمها؛ فالثانية ناسِخَةٌ والأولى منسوخةٌ، والتَناسُخُ في الميراث: أن يموت ورثةٌ بعد ورثةٍ واصل الميراث قائمٌ لم يقسَّم»[4].

ومن خلال ماتقدم –وغيره مما ذكره اللغويون– يتبيّن أنّ للفظ (النسخ) في لغة العرب مدلوين[5]:

١ ـ الإزالة والإبطال: ومنه قول العرب: نسختِ الشمسُ الظِّلَّ، أي:

---

(١) ديوان العجاج برواية وشرح الأصمعي (ص: ٤٠٢).

(٢) المصدر السابق.

(٣) مقاييس اللغة لابن فارس (٥: ٤٢٥)، مجمل اللغة لابن فارس ص(٨٦٧)، شمس العلوم لنشوان الحميري (١٠: ٦٥٨٥)، الإحكام للآمدي (٣: ١٠٢).

(٤) الصحاح للجوهري (١: ٤٣٣).

(٥) انظر: أدب الكتاب للصولي (ص:١٦٨)، الناسخ والمنسوخ للنحاس (١: ٤٢٤)، الأفعال لابن القوطية (ص:٢٦٠)، مختصر العين لأبي بكر الزبيدي (١: ٤٣٦)، التلخيص في معرفة أسماء الأشياء لأبي هلال العسكري (٢: ٧٠٧-٧٠٨)، شمس العلوم للحميري (١٠: ٦٥٨٥).

أزالتـه، ومـن هـذا المعنـى قولـه تعـالى: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ﴾ (الحج:٥٢)، عن ابن عباس: «﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ﴾ : فيبطل الله ما ألقى الشيطان»[١]، وقال الكسائي (ت:١٨٩هـ): «﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ﴾ : يزيله فلا يتلى ولا يثبت في المصحف»[٢] .

٢ ـ التحويل والنقل: ومنه قولهم: نَسَخْتُ الكتاب، إذا حَوّلْته ونقلته إلى نسخة أخرى[٣]، ومنه قولهم: «نسَخَه الله قرداً، أي: مَسَخه»[٤]، و«الـمَسْخ: تَحْويل صُورة إِلَى صُورَة»[٥]، ومنه: نَسَخَ مَا فِي الخَلِيَّة؛ أي: حَوَّلَه إِلى غَيْرِهَا[٦]، ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿هَـٰذَا كِتَـٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (الجاثية:٢٩)، عن ابن عباس: « ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ قال: تستنسخ الحفظة من أم الكتاب ما يعمل بنو آدم، فإنما يعمل الإنسان على ما استنسخ الملك من أم الكتاب»[٧]، وفي

---

(١) تفسير الطبري (١٦: ٦١١) .

(٢) الناسخ والمنسوخ للنحاس (١: ٤٢٩) .

(٣) تفسير الطبري (٢: ٣٨٨)، غريب الحديث لإبراهيم الحربي (٣: ١٠٤٤) .

(٤) المحيط في اللغة لابن عباد (٤: ٢٦٦) .

(٥) المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده (٥: ٥٨) .

(٦) تاج العروس للزبيدي (٢: ٣٨٣) .

(٧) تفسير مجاهد (ص: ٦٠٠-٦٠١)، تفسير الطبري (٢١: ١٠٤)، شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي (برقم: ٩٤٤)، المستدرك للحاكم (٢: ٤٥٤) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبي: صحيح، حلية الأولياء لأبي نعيم (٨: ٢٦٢)، الدر المنثور للسيوطي (١٣: ٣٠٦) وعزاه لابن مردويه .

رواية أنه قال: «... أَلَسْتُمْ قَوْمًا عَرَبًا تَسْمَعُونَ الْحَفَظَةَ يَقُولُونَ : ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (الجاثية: ٢٩)، وَهَلْ يَكُونُ الِاسْتِنْسَاخُ إِلَّا مِنْ أَصْلٍ؟!»[1] .

وقد اخْتُلِف في أصل مادة (نَسَخَ) وقياسها، فقيل:

الإزالة والإبطال؛ فكل نسخ فيه معنى الإبطال، قال الزجاج (ت:٣١١هـ): «فأما النسخ في اللغة فإبطال شيء وإقامة آخر، والعرب تقول: نسخت الشمسُ الظِّلَّ، والمعنى: أذهبت الظِّلَّ وحلَّت محلَّه»[2].

وقيل:

التحويل والنقل، قال ابن جرير الطبري (ت:٣١٠هـ): «وأصل النسخ من نسخ أصل الكتاب، وهو نقله من نسخة إلى أخرى غيرها، فكذلك معنى نسخِ الحكم إلى غيره؛ إنما هو تحويله ونقل عباده عنه إلى غيره»[3] .

قال ابن فارس(ت: ٣٩٥): «النون والسين والخاء أصل واحد، إلا أنه مختلف في قياسه.

(١) تفسير الطبري (٢١: ١٠٥)، غريب الحديث للحربي (٣: ١٠٤٥)، والحاكم (٢: ٤٥٤) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبي: صحيح، الدر المنثور للسيوطي (١٣: ٣٠٤-٣٠٧) .

(٢) معاني القرآن للزجاج (١: ١٨٩).

(٣) تفسير الطبري (٢: ٣٨٨) .

قال قوم: قياسه رفع شيء وإثبات غيره مكانه[١]. وقال آخرون: قياسه تحويل شيء إلى شيء»[٢].

وإذا تأمَّلت هذه الدلالات اللغوية فإنك ستقف على أن المعنى الجامع في النسخ هو (الانتقال من حالة إلى حالة)[٣]، يقول ابن دريد (ت٣٢١هـ): «وكل شيء خلف شيئًا فقد انتسخه، انتسخت الشمس الظل، وانتسخ الشيب الشباب، ونسخ أيضاً ينسخ مثل انتسخ»[٤].

وفي خطبة عتبة بن غزوان، قال: «وإنها لم تكن نبوة قط إلا تناسخت، حتى يكون آخر عاقبتها ملكا، فستخبرون وتجربون الأمراء بعدنا»[٥]، «تناسخت» أي: «تحولت من حال إلى حال، يعني أمر الأمة»[٦].

وسواء في هذا أبقي المنسوخ مع وجود الناسخ أو زال بالكلية فانتقل من الوجود إلى العدم، وهذان المعنيان اللغويان مستعملان في القرآن:

- فمن النسخ الذي لا يبقى معه المنسوخ قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا

(١) التعبير بالرفع يشير إلى معنى الإبطال الذي سبق نقله عن الزجاج.

(٢) مقاييس اللغة لابن فارس (٥: ٤٢٤).

(٣) تتوافق خمس كلمات ثلاثية في العربية تنتهي بالسين والخاء، مع هذه الدلالة، ولا سادس لها، وهي: (رسخ، فسخ، مسخ، نسخ، وسخ).

(٤) جمهرة اللغة لابن دريد (ص: ٦٠٠).

(٥) صحيح مسلم ،كتاب الزهد والرقائق حديث رقم (٢٩٦٧).

(٦) الغريبين لأبي عبيد الهروي (٦: ١٨٣٠)، غريب الحديث لابن الجوزي (٢: ٤٠٤)، النهاية في غريب الحديث لابن الأثير (٥: ٤٧).

يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (الحج:٥٢)، وقد تقدم قول ابْنِ عبَّاسٍ: « ﴿ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾(الحج: ٥٢)قال: فَيُبْطِلُ اللهُ مَا أَلْقَى الشَّيْطَانُ»[(١)]، وقول الكسائي (ت: ١٨٩هـ): «يزيله فلا يتلى ولا يثبت في المصحف»[(٢)] .

ومما ورد في كتب اللغة في هذا المعنى؛ ما تقدم من قول الجوهري (ت: ٣٩٨) في الصحاح: «نَسَخَتِ الشمسُ الظلَّ وانْتَسَخَتْهُ: أزالته»[(٣)] .

– ومن النسخ مع بقاء المنسوخ، قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَۖ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ (الأعراف: ١٥٤)، وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (الجاثية:٢٩)، وقد تقدم قول ابْنِ عَبَّاسٍ: «... أَلَسْتُمْ قَوْمًا عَرَبًا تَسْمَعُونَ الْحَفَظَةَ يَقُولُونَ: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٩]، وَهَلْ يَكُونُ الِاسْتِنْسَاخُ إِلَّا مِنْ أَصْلٍ؟!»[(٤)] .

ومما ورد في هذا المعنى في كتب اللغة، ما تقدم من قول صاحب كتاب العين: «النَّسْخُ والانتساخُ: اكتتابك في كتابٍ عن معارضه»[(٥)]، وقول أبي حاتم السجستاني (ت: ٢٥٥هـ): «النسخ: أن تحوِّل ما في الخلية من العسل

---

(١) تفسير الطبري (١٦: ٦١١) .

(٢) الناسخ والمنسوخ للنحاس (١: ٤٢٩) .

(٣) الصحاح للجوهري (١: ٤٣٣) .

(٤) تفسير الطبري (٢١: ١٠٥) .

(٥) كتاب العين (٤: ٢٠١).

والنحل في أخرى. قال: ومنه نَسْخُ الكتابِ»[١].

وفي النسخ دلالتان تابعتان، ويظهر أثرهما في البحث الشرعي أكثر من ظهوره في البحث اللغوي، وهما :

الأولى: وجود المنسوخ من عدمه.

الثانية: بقاء المنسوخ من عدمه بالكلية[٢].

وفي كلتا الحالتين هناك فروع تتفرع على ذلك من النسخ ببدل أو بغير بدل، وبقاء المنسوخ في المصحف أو حكايته في غيره من القراءات الشاذة أو الآثار المروية، وكل هذه تبع للدلالة الأصلية اللغوية.

ولهذا لم يخل حديث اللغويين عن النسخ من تأثر بالتقرير الشرعي، وإن كان الشرع لا يخرج في أصله عن اللغة، وإنما قد يزيد بعض القيود، ومن ذلك:

-قول صاحب كتاب العين: «... والنَّسْخُ: إزالتك أمراً كان يعمل به، ثم تَنْسَخُهُ بحادثٍ غيره، كالآية تنزل في أمر، ثم يخفف فتُنْسَخُ بأخرى، فالأولى منسوخة والثانية ناسخة .. »[٣].

-وقول ابن فارس (ت: ٣٩٥) -الذي يحرص على تأصيل الكلمة-:

(١) مقاييس اللغة لابن فارس (٥: ٤٢٥) .

(٢) ينظر في نقاش مادة نسخ وتأصيلها لغويًا كتاب التحقيق في كلمات القرآن، للمصطفوي (١٢: ١٠٥ ـ ١١٠)، والمعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن، للأستاد الدكتور محمد حسن حسن جبل (٤: ٢٢٥٢).

(٣) كتاب العين (٤: ٢٠١).

«النون والسين والخاء أصل واحد، إلا أنه مختلف في قياسه. قال قوم: قياسه رفع شيء وإثبات غيره مكانه. وقال آخرون: قياسه تحويل شيء إلى شيء. قالوا: النسخ: نسخ الكتاب. والنسخ: أمر كان يعمل به من قبل ثم ينسخ بحادث غيره، كالآية ينزل فيها أمر ثم تنسخ بآية أخرى. وكل شيء خلف شيئا فقد انتسخه. وانتسخت الشمس الظل، والشيب الشباب. وتناسخ الورثة: أن يموت ورثة بعد ورثة وأصل الإرث قائم لم يقسم ...»[(١)].

-وقول الجوهري (ت٣٩٨هـ): «... ونَسْخُ الآيةِ بالآيةِ: إزالة مِثل حكْمها؛ فالثانية ناسِخَةٌ والأولى منسوخةٌ، والتَناسُخُ في الميراث: أن يموت ورثةٌ بعد ورثةٍ واصل الميراث قائمٌ لم يقسَّم»[(٢)] .

---

(١) مقاييس اللغة (٥: ٤٢٥).

(٢) الصحاح (١: ٤٣٣) .

المبحث الثاني: مصطلح النسخ بين المتقدمين والمتأخرين

أولًا: تطبيقات عبارة النسخ عند الصحابة والتابعين وأتباعهم:

لم يكن من معهود هؤلاء السادة الكرام أن يُعرِّفوا بمصطلحاتهم، لذا وجب على القارئ في علمهم أن يتتبع تطبيقاتهم، ويستنبط منها مرادهم في استعمالاتهم لهذه المصطلحات؛ كمصطلح المكي والمدني، ومصطلح النزول، ومصطلح النسخ، وغيرها من مصطلحات علوم القرآن أو غيره من العلوم.

وسأعرض بعض الأمثلة عنهم التي تدلُّ على تنوع استخدامهم لعبارة النسخ في تطبيقاتهم، ومن ذلك:

١- روى الإمام أحمد بسنده عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، قَالَ: «صَلَّى بِنَا النَّبِيُّ ﷺ الْفَجْرَ وَتَرَكَ آيَةً، فَجَاءَ أُبَيٌّ وَقَدْ فَاتَهُ بَعْضُ الصَّلَاةِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ قَالَ: يَا رَسُولَ الله، نُسِخَتْ هَذِهِ الْآيَةُ أَوْ أُنْسِيتَهَا؟ قَالَ: "لَا، بَلْ أُنْسِيتُهَا»[1].

وعند ابن حبان بسنده عن المُسَوَّر بن يزيد، قال: «شَهِدْتُ رَسُولَ الله ﷺ قَرأَ فِي الصَّلاَةِ فَتَعَايى فِي آيَةٍ، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ الله إِنكَ تَرَكْتَ آيَةً. قَالَ: "فَهَلاَّ أذْكرْتَنِيهَا؟ ". قَالَ: ظَنَنْتُ أَنَّهَا نُسِخَتْ. قَالَ: فَإِنَّهَا لَمْ تُنْسَخْ»[2].

(١) مسند الإمام أحمد، تحقيق شعيب الأرنؤوط، طبعة الرسالة (٣٥: ٧٧)، وجاء في هامش التحقيق: «إسناده صحيح، جاله ثقات رجال الشيخين غير يحيى بن داود الواسطي، فقد روى له ابن ماجه، وهو ثقة. سفيان: هو الثوري، وذر: هو ابن عبد الله المرهبي».

(٢) صحيح ابن حبان، إصدار وزارة الأوقاف القطرية (٢: ٣٥٦ – ٣٥٧).

وهذان النصَّان يدلاَّن على أنَّ الصحابة كانوا يعلمون بوقوع الرَّفع لبعض الآيات، وأن الرسول ﷺ أقرَّهم على هذا، بل نصَّ عليه في الرواية الثانية، كما يدلُّ على أن الآية التي كان الصحابي يظنُّ أنها قد نُسِخت، كانت محفوظة بالنسبة له، وهذه صورة نسخ اللفظ، وبقاء المتلو محفوظًا في ذاكرتهم.

٢- روى البخاري بسنده عن ابن عباس، قال: قال عمر: «أُبَيٌّ أقرؤنا، وإنا لندع من لحن أُبَيٍّ، وأُبَيٌّ يقول: أخذته من في رسول الله ﷺ فلا أتركه لشيء، قال الله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٦]»[1].

وظاهر الأثر أنَّ أبيًّا يقرأ بكل ما سمعه من رسول الله ﷺ فاحتجَّ عليه عمر بالآية الدالة على وقوع رفع لبعض ما كان يقرأ به أُبَيٌّ.

وهذا يدلُّ على أنه مع رفعه من المصحف لفظًا إلا أنه لا يزال محفوظًا عند أُبَيٍّ.

٣- روى مسلم بسنده عن أبي هريرة قال: «لما نزلت على رسول الله ﷺ: ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، قال: فاشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، فأتوا رسول الله ﷺ ثم بركوا على الركب، فقالوا: أي رسول الله، كلفنا من

(١) رواه البخاري: (٥٠٠٥).

الأعمال ما نطيق، الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد انزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها، قال رسول الله ﷺ: " أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير "، قالوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، فلما اقترأها القوم، ذلَّت بها ألسنتهم، فأنزل الله في إثرها: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى، فأنزل الله عز وجل: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، قال: نعم.

﴿رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] ، قال: نعم.

﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٦] قال: نعم.

﴿وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، قال: نعم»(١).

وفي هذا المثال ترى أن الآية الأولى خبرٌ، والآية الثانية كذلك، ومع ذلك جعل الصحابي أبو هريرة الآية الثانية ناسخة للآية الأولى، فوجب

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، باب بيان قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤]،برقم: (١٢٥).

بذلك النظر في مراده بعبارة النسخ؛ إذ ليس هناك حكمٌ يُرفعُ بحكم، ولا هو خبرٌ مؤوَّل بالحكم، فيجوز دخول النسخ الاصطلاحي عليه.

وبالنظر في ذلك تعلم أن الصحابي استخدم المعنى اللغوي للنسخ، وأبان عن أن الله رفع الإجمال بالمؤآخذة التي ذكرها في الآية الأولى بتبيينه بالآية الثانية، فاتضح أن ما توهَّموه من ظاهرها ليس هو المراد.

قال ابن تيمية: «و" الْمَقْصُودُ هُنَا " أَنَّ قَوْله تَعَالَى: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ﴾ [البقرة: ٢٨٤] حَقٌّ وَالنَّسْخُ فِيهَا هُوَ رَفْعُ فَهْمِ مَنْ فَهِمَ مِنْ الْآيَةِ مَا لَمْ تَدُلَّ عَلَيْهِ فَمَنْ فَهِمَ أَنَّ اللهَّ يُكَلِّفُ نَفْسًا مَا لَا تَسَعُهُ فَقَدْ نَسَخَ اللهُّ فَهْمَهُ وَظَنَّهُ وَمَنْ فَهِمَ مِنْهَا أَنَّ الْمَغْفِرَةَ وَالْعَذَابَ بِلَا حِكْمَةٍ وَعَدْلٍ فَقَدْ نَسَخَ فَهْمَهُ وَظَنَّهُ فَقَوْلُهُ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] رَدٌّ لِلْأَوَّلِ وَقَوْلُهُ: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦] رَدٌّ لِلثَّانِي وَقَوْلُهُ: ﴿فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ﴾»[1].

٤- روى أبو عبيد القاسم بن سلام (ت: ٢٢٤) بسنده عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَـٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةً﴾[المجادلة: ١٢] الْآيَةَ قَالَ: «نَسَخَتْهَا: ﴿ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَـٰتٍۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ﴾ [المجادلة: ١٣] الْآيَة»[2].

(١) مجموع الفتاوى: (١٤/ ١٠٦).

(٢) الناسخ والمنسوخ، لأبي عبيد ، تحقيق الدكتور محمد المديفر (ص: ٢٥٨).

والآية الأولى نزلت في حكم شرعي، وهو أن يقدموا صدقة من مال أو نحوه قبل أن يخاطبوه ﷺ، ثم رفع الله هذا الحكم الشرعي بالآية التي تليها، وقد أبان علي بن ابي طالب رضي الله عنه عن هذا بقوله: « إِنَّ فِي كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَآيَةً مَا عَمِلَ بِهَا أَحَدٌ قَبْلِي وَلَا يَعْمَلُ بِهَا أَحَدٌ بَعْدِي، كَانَ لِي دِينَارٌ فَصَرَفْتُهُ، فَكُنْتُ إِذَا نَاجَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَصَدَّقْتُ بِدِرْهَمٍ حَتَّى نَفِدَ ثُمَّ نُسِخَتْ»(١).

٥- روى البخاري بسنده «أن حذيفة بن اليمان، قدم على عثمان وكان يغازي أهل الشأم في فتح أرمينية، وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين، أدرك هذه الأمة، قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى، فأرسل عثمان إلى حفصة: «أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف، ثم نردها إليك»، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف "، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: «إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم» ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف، رد عثمان الصحف إلى حفصة، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن

(١) أخرجه الطبري في التفسير: (٢٢/ ٤٨٢)، والقاسم بن سلام في الناسخ والمنسوخ: (٢٥٩).

في كل صحيفة أو مصحف، أن يحرق»[1].

والنسخ الوارد هنا في عباراتهم « ننسخها في المصاحف »، « فنسخوها في المصاحف »، «حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف» = تدلُّ على تحويل المكتوب في صحف أبي بكر إلى المصاحف التي كتبتها اللجنة التي اختارها عثمان رضي الله عنه، مع بقاء الأصل البكري كما هو.

٦- روى الطبراني بسنده عَنِ الزُّهْرِيِّ، أَخْبَرَنِي أَبُو أُمَامَةَ بْنُ سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ، أَنَّ رَهْطًا، مِنَ الْأَنْصَارِ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخْبَرُوهُ، أَنَّهُ قَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ يُرِيدُ أَنْ يَفْتَتِحَ بِسُورَةٍ قَدْ كَانَ دَعَاهَا، فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا إِلَّا بِسْمِ اللهَّ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، فَأَتَى بَابَ رَسُولِ اللهَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ أَصْبَحَ رَسُولُ اللهَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ ذَلِكَ؟ ثُمَّ جَاءَ آخَرُ وَآخَرُ حَتَّى اجْتَمَعُوا، فَسَأَلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا: مَا جَمَعَهُمْ؟ فَأَخْبَرَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِشَأْنِ تِلْكَ السُّورَةِ، ثُمَّ أَذِنَ لَهُمْ رَسُولُ اللهَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَخْبَرُوهُ خَبَرُهُمْ، وَسَأَلُوهُ عَنِ السُّورَةِ؟ فَسَكَتَ سَاعَةً لَا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا، ثُمَّ قَالَ: «نُسِخَتِ الْبَارِحَةُ فَنُسِخَتْ مِنْ صُدُورِكُمْ، وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ كَانَتْ فِيهِ»[2].

وهذا الأثر أورده الذهبي (ت: ٧٤٨) في كتابه تاريخ الإسلام تحت عنوان لطيف، قال: (باب في النسخ والمحو من الصدور)، وأعقبه بقوله: «نسخ هذه السورة ومحوُها من صدورهم من براهين النبوة، والحديث

(١) رواه البخاري: (٤٩٨٧).

(٢) مسند الشاميين للطبراني، تحقيق حمدي السلفي، مؤسسة الرسالة: (١٤٠٥).

صحيح»[١].

ومثله ما رواه مسلم بسنده عن أبي حرب بن أبي الأسود، عن أبيه، قال: « بعث أبو موسى الأشعري إلى قراء أهل البصرة، فدخل عليه ثلاثمائة رجل قد قرءوا القرآن، فقال: أنتم خيار أهل البصرة وقراؤهم، فاتلوه، ولا يطولن عليكم الأمد فتقسو قلوبكم، كما قست قلوب من كان قبلكم، وإنا كنا نقرأ سورة، كنا نشبهها في الطول والشدة ببراءة، فأنسيتها، غير أني قد حفظت منها: لو كان لابن آدم واديان من مال، لابتغى واديا ثالثا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، وكنا نقرأ سورة، كنا نشبهها بإحدى المسبحات، فأنسيتها، غير أني حفظت منها: يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون، فتكتب شهادة في أعناقكم، فتسألون عنها يوم القيامة»[٢].

وهذا نوع من المنسوخ ثابت في الآثار، والله الموفق.

ولو تتبعتُ النصوص التي وردت فيها عبارة النسخ في كلام الصحابة والتابعين وأتباعهم لخرجتُ عن المقصود لكثرتها، والمراد هنا التنبيه على بعضها الذي يحقق المراد من هذا البحث.

النتيجة:

من خلال هذه النصوص وأمثالها يتبيَّن أن مصطلح النسخ واسع عند الصحابة والتابعين وأتباعهم، فهو يشمل:

---

(١) تاريخ الإسلام، تحقيق بشار عواد معروف (١: ٧٣٠ – ٧٣١).

(٢) رواه مسلم برقم (١٠٥٠)، وكذا ذكره الذهبي في الباب الآنف الذكر (باب في النسخ والمحو من الصدور) تاريخ الإسلام، تحقيق بشار عواد معروف (١: ٧٣٠).

١ ـ نسخ الحكم الشرعي بحكم شرعي آخر، وقد يبقى اللفظ المنسوخ محفوظًا، وقد لا يبقى.

٢ ـ نسخ الخبر، بعدم إنفاذ الوعيد أو بتقييد مطلق أو تخصيص عام أو ما إلى ذلك.

٣ ـ نسخ اللفظ بالكلية، بحيث لا يبقى له أثر في الصدور ولا في السطور.

٤ ـ نسخ اللفظ في التلاوة وبقاء حكمه أو معناه.

ثانيًا: مصطلح النسخ عند المتأخرين (الأصوليين):

اشتهر تعريف النسخ بأنه «رفع الحكم الثابت بخطاب متقدم بخطاب متراخ عنه»[(١)].

ويظهر – والله أعلم – أن ربط النسخ بالأحكام الشرعية فقط بدأ من كتاب الرسالة للشافعي (ت : ٢٠٤)، أما من كان قبله فيطلق النسخ في الأخبار والأحكام، لكن مراده بالنسخ أوسع من مراد الشافعي ومن جاء بعده، كما سبق بيانه.

وقد عقد الشافعي (ت: ٢٠٤) بابًا تحت عنوان (ابتداء الناسخ والمنسوخ)[(٢)] ، وذكر فيه عدة آيات وأحاديث في الأحكام، ولم يرد فيما ذكره آية من آيات الأخبار، كما ذكر عبارات تدلُّ على أن مراده (رفع الحكم)، ومن ذلك قوله:

---

(١) مذكرة في أصول الفقه لمحمد الأمين الشنقيطي (ص: ٧٩).

(٢) الرسالة (ص: ١٠٦).

«وفرض فيه فرائض أثبتها، وأخرى نسخها»[1].

ثم عقد بابًا بعنوان (الناسخ والمنسوخ الذي يدل كتاب الله على بعضه والسنة على بعضه)، وذكر فيه:

قال الشافعي: «فكان بينا في كتاب الله نسخ قيام الليل ونصفه والنقصان من النصف، والزيادة عليه بقول الله: ﴿فاقرءوا ما تيسر منه﴾ [المزمل: ٢٠].

فاحتمل قول الله: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُ﴾[المزمل: ٢٠] : معنيين:

- أحدهما: أن يكون فرضا ثابتا، لأنه أزيل به فرض غيره.

- والآخر: أن يكون فرضا منسوخا أزيل بغيره، كما أزيل به غيره، وذلك لقول الله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]، فاحتمل قوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾، أن يتهجد بغير الذي فرض عليه، مما تيسر منه.

قال: فكان الواجب طلب الاستدلال بالسنة على أحد المعنيين، فوجدنا سنة رسول الله تدل على ألا واجب من الصلاة إلا الخمس، فصرنا إلى أن الواجب الخمس، وأن ما سواها من واجب من صلاة قبلها، منسوخ بها، استدلالا بقول الله: ﴿فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٩]، وأنها ناسخة لقيام الليل ونصفه وثلثه وما تيسر.

ولسنا نحب لأحد ترك أن يتهجد بما يسره الله عليه من كتابه، مصليا

(١) الرسالة (ص: ١٠٦).

به، وكيف ما أكثر فهو أحب إلينا»[1].

وقال: «وهكذا كلُّ ما نسخ الله، ومعنى (نَسَخَ) : تَرَكَ فَرْضَه: كان حقًّا في وقته، وترْكُه حقًّا إذا نسخه الله، فيكون من أدرك فرضَه مُطيعاً به وبتركه، ومَن لم يُدْرِك فرضَه مُطيعاً باتِّباع الفرْضِ الناسِخ له»[2].

وإذا كان هذا الكلام من الشافعي يدلُّ على بداية حصر مصطلح النسخ بالأحكام، فإن هذا لا يعني أنه الحد الفاصل للانتقال من ذلك المصطلح الواسع عند من تقدمة، بحيث توقف العمل بالمصطلح الواسع.

ومن شواهد ذلك ما ذكره ابن العربي (ت: ٥٤٣) عن عبدالملك بن حبيب المالكي (ت: ٢٣٨)، وهو في طبقة تلاميذ الشافعي (ت: ٢٠٤)، قال: «الآية العاشرة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ ﴾ إلى قوله : ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٥٩ - ١٦٠] قال بعض الغافلين: إن قوله ﴿إن الذين يكتمون﴾ إلى قوله: ﴿ٱللَّٰعِنُونَ﴾ نسخها قوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ ﴾ وهذا باطل من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن هذا وعيد، ولا نسخ في الوعد والوعيد[3]، وإنما تُنسخ الأحكام، كما قد بيَّناه.

---

(١) الرسالة (ص: ١١٥-١١٦).

(٢) الرسالة (ص: ١٢٢ - ١٢٣).

(٣) إخلاف الوعيد من الكريم كرمٌ، وأهل السنة يجيزون إخلاف الوعيد في الكبائر خلافًا للخوارج والمعتزلة ...، لذا يجوز وقوع النسخ في هذا النوع من الأخبار، والله أعلم.

الثاني: أن من شرط الناسخ أن يتأخر عن المنسوخ، فأما إن اتصل به فلا يكون نسخًا

الثالث: أن قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ ﴾ عامٌّ، وقوله: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ ﴾ تخصيص، وهو أمر خارج عن النسخ كما بينّاه، فلا معنى لهذا القول بحال.

ولا يُعجب في هذا من وهم المفسرين، وإنما أعجب من غلط ابن حبيب فيه، وهو من الفقهاء، وظني - والله أعلم - أنه سامح في تسمية التخصيص نسخًا على عادة المفسرين، والله أعلم»[1].

(١) الناسخ والمنسوخ لابن العربي (٢: ٥١ ـ ٥٢).

قلت: لا يخفى أن ابن العربي- رحمه الله تعالى - لم يطبِّق مصطلح المتقدمين في النسخ في تخريج هذا المنقول عن المفسرين، ذلك أنهم يطلقون عبارة النسخ أوسع من إطلاق المتأخرين من الأصوليين والفقهاء، وهو قد أشار في آخر كلامه إلى تسامح المفسرين في هذا الإطلاق، بل اعتذر للإمام مالك في مثل هذا الإطلاق، فقال: «المسألة العاشرة: قوله: ﴿وَعَلَى ٱلۡوَارِثِ مِثۡلُ ذَٰلِكَ ﴾[البقرة: ٢٣٣] قال ابن القاسم عن مالك: هي منسوخة، وهذا كلام تشمئز منه قلوب الغافلين، وتحار فيه ألباب الشادين، والأمر فيه قريب؛ لأنا نقول: لو ثبتت ما نسخها إلا ما كان في مرتبتها، ولكن وجهه أن علماء المتقدمين من الفقهاء والمفسرين كانوا يسمون التخصيص نسخا؛ لأنه رفع لبعض ما يتناوله العموم ومسامحة، وجرى ذلك في ألسنتهم حتى أشكل ذلك على من بعدهم، وهذا يظهر عند من ارتاض بكلام المتقدمين كثيرا» أحكام القرآن (١: ٢٠٥).

ويكفي أن توازن حكمه بين المثالين ليبين لك ما وقع فيه ابن العربي (ت: ٥٤٣) - عفا الله عنه - من إغلاظ في العبارة، مع عدم الاعتذار أو التخريج لأقوال المفسرين كما فعل مع عبارة الإمام مالك.

ولا فرق في ذلك بين أن يكون كلام الإمام مالك في الأحكام، وكلام أولئك في الأخبار؛ لأن عبارة النسخ في الأمرين مدلولها واحدٌ، وهو تخصيص العام، =

وهذا المثال الذي انتقده ابن العربي (ت: ٥٤٣) يوضِح أن مصطلح النسخ عند المتقدمين لا يزال ساريًا في الطبقة التي تلي الإمام الشافعي (ت: ٢٠٤)، وهذا يدل على الانتقال من المصطلح يحصل بالتدريج حتى يستقر المصطلح الجديد، ويختفي المصطلح القديم، فيخفى المصطلح القديم ويغمض على من لم يرتاض بكلام المتقدمين.

والمقصود أن مصطلح النسخ انحصر في باب الأحكام فقط، ولذا ظهرت ضوابط في هذا الموضوع لا تنسجم إلا مع هذا المصطلح المحصور، كقولهم : (لا نسخ في الأخبار)، فهذا لا ينطبق على مصطلح النسخ عند المتقدمين، بل يصلح على مصطلح المتأخرين.

ثالثًا: بيان المحققين لعبارة النسخ عند السلف:

لقد أحدث ظهور المصطلح الأصولي للنسخ على يد الشافعي (ت: ٢٠٤)، ثم استقراره عند المتأخرين بعض المشكلات العلمية؛ منها:

١- غياب مفهوم النسخ عند المتقدمين عن بعض المتأخرين، وكان من أثره وقوع النقد لبعض تطبيقات المتقدمين، وذلك ما لم يخالف فيه الصواب هؤلاء المنتقدين.

٢- تَجَاهُلُ أنواع النسخ الأخرى، وهذا ظاهر في قصر التعريف على (الحكم الشرعي) دون غيره من أنواع النسخ.

وسأذكر في ههنا أمثلة للمشكلة الأولى، ثم أختم بتعريف مختار يحلُّ

=
والتخصيص يدخل على الأحكام والأخبار، والله الموفق.

المشكلة الثانية.

١- قال مكي (ت: ٤٣٧): «قال ابن عباس: قوله: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾[البقرة: ١٨٢]، منسوخة بقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾[البقرة: ١٨٢].

ومعنى قول: إنها منسوخة، أي نزلت على نسختها لأنها خبر، والأخبار لا تنسخ»[1].

وإذا تأملت تخريج مكي وجدته غامضًا غريبًا لا يمكن أن يكون مرادًا لابن عباس، لأن كل آية عُبِّر عنها بأنها (منسوخة) يمكن أن ينطبق عليها هذا التخريج.

ولما لم ينتبه لاتساع عبارة النسخ عند ابن عباس حكم بهذه القاعدة التي لا تنطبق إلا على المصطلح المتأخر.

٢- قال ابن الجوزي (ت: ٥٩٧): «واختلف العلماء في هذه الآية على ثمانية أقوال: أحدها: أنها منسوخة بقوله: ﴿وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾ فأُدخل الأبناء الجَنَّة بصلاح الآباء، قاله ابن عباس، ولا يصح، لأن لفظ الآيتين لفظ خبر، والأخبار لا تُنْسَخ»[2].

ما كان ابن الجوزي ليعترض لو كان أدرك اتساع مصطلح النسخ عند ابن عباس، ولما حكم بعدم الصحة في ذلك.

(١) الهداية إلى بلوغ النهاية، لمكي، نشر جامعة الشارقة (١: ٩٢٩).

(٢) زاد المسير، لابن الجوزي، لابن الجوزي، تحقي: عبدالرزاق مهدي (٤: ١٩٣).

وبعد هذه الأمثلة التي يظهر فيها وقوع مشكلة عند بعض المتأخرين في فهم عبارة النسخ عن السلف يمكن القول بأن العلماء تجاه هذه العبارة الواردة في تفسيرهم ينقسمون إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: هم الذي لم ينتبهوا إلى توسع مصطلح النسخ عند السلف، وراحوا يعترضون عليهم في أحكامهم على بعض الآيات بالنسخ، وقد مرَّ ذكر بعض الأمثلة عنهم عند مكي وابن الجوزي.

القسم الثاني: الذين انتبهوا إلى أن مصطلح النسخ يستخدمه السلف في غير النسخ الاصطلاحي، وعالجوه في بعض أنواعه؛ كالتخصيص، ومنهم الجصاص الجنفي (ت: ٣٧٠)، وابن العربي المالكي (ت: ٥٤٣)، والسخاوي الشافعي (ت: ٦٤٣).

ومن أمثلة ذلك:

١- ما ذكره الجصاص الحنفي (ت: ٣٧٠) في قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَـٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَـٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، قال: «وأما قوله[1]: ونسخ عن الثلاثة قروء امرأتان، وهي الآيسة والصغيرة = فإنه أطلق لفظ النسخ في الآية وأراد به التخصيص.

وكثيرًا ما يوجد عن ابن عباس وعن غيره من أهل التفسير إطلاق لفظ النسخ ومرادهم التخصيص، فإنما أراد قتادة بذكر النسخ في الآيسة التخصيص لا حقيقة النسخ؛ لأنه غير جائز ورود النسخ إلا فيما قد استقر

(١) يعني: قتادة بن دعامة السدوسي

حكمه وثبت، وغير جائز أن تكون الآيسة مرادة بِعِدَّةِ الأقراء مع استحالة وجودها منها، فدلَّ على أنه أراد التخصيص»[(١)].

٢- ابن العربي (ت: ٥٤٣) في كتابه أحكام القرآن: « المسألة العاشرة: قوله: ﴿ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ﴾ [البقرة: ٢٣٣] قال ابن القاسم عن مالك: هي منسوخة، وهذا كلام تشمئز منه قلوب الغافلين، وتحار فيه ألباب الشادين، والأمر فيه قريب؛ لأنا نقول: لو ثبتت ما نسخها إلا ما كان في مرتبتها، ولكن وجهه أن علماء المتقدمين من الفقهاء والمفسرين كانوا يسمون التخصيص نسخا؛ لأنه رفع لبعض ما يتناوله العموم ومسامحة، وجرى ذلك في ألسنتهم حتى أشكل ذلك على من بعدهم، وهذا يظهر عند من ارتاض بكلام المتقدمين كثيرا»[(٢)].

٣ ـ ما ذكره السخاوي (ت: ٦٤٣) ، قال: «فالتخصيص نحو قوله عزوجل: ﴿ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ [المائدة: ٥]، بعد قوله: ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ﴾ [البقرة: ٢٢١]، ولو كان هذا نسخًا لكانت آية البقرة المراد بها الكتابيات.

وقد روي عن ابن عباس – رضي الله عنهما – أنه قال: آية المائدة ناسخة لآية البقرة. وقال قائلون: لا يصحّ هذا إلا أن تكون آية البقرة في المشركات من أهل الكتاب.

(١) أحكام القرآن للجصاص، تحقيق محمد الصادق القمحاوي (٢: ٧١ ـ ٧٢).

(٢) أحكام القرآن، لابن العربي تحقيق البجاوي (١: ٢٠٥).

وأقول: إن هذا الذي قالوه غير مستقيم، فإن قولنا: نسخ، وتخصيص، واستثناء = اصطلاح وقع بعد ابن عباس، وكان ابن عباس يسمي ذلك نسخًا، ولو وقع الاصطلاح على تسمية جميع ذلك نسخًا»[1].

وقال في موطن آخر: «وقالوا في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِن جَـٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡـمَلُونَ﴾ نسخها آية السيف. وقد قلنا: إن آية السيف لا يصح أن تكون ناسخة لشيء من هذا، لأنه صلّى الله عليه وسلّم لم يكن قادرا على القتال منهيا عنه، وإنما تنسخ آية السيف أية يكون فيها نهيه عن القتال، ولا نجد ذلك في القرآن لأن العاجز عن القتال لا ينهى عنه! أفترى أنه بعد آية السيف لا يجوز له أن يقول لهم: اللهُّ أَعْلَمُ بِما تَعْمَلُونَ؟.

وما يروى عن السلف- رحمهم الله- مثل ابن عباس وغيره من إطلاق النسخ في هذا إنما يريدون به: الانتقال من حال الى أخرى، فأطلقوا على ذلك النسخ، ونحن نريد بالنسخ: رفع الحكم الثابت نصا بنص آخر لولاه لكان الأول ثابتا، وابن عباس وغيره لا يريدون بالنسخ هذا »[2].

ومع انتباهه لتوسع ابن عباس والمتقدمين في مفهوم النسخ؛ إلا أنه وقع في الاعتراض على مواطن عندهم، وخصوصًا ما يرد في نسخ الأخبار، قال : «وقالوا في قوله عز وجل: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأَخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِى

(١) جمال القراء وكمال الإقراء، للسخاوي، تحقيق: عبد الحق عبد الدايم سيف القاضي (٢: ٥٠٩).

(٢) جمال القراء وكمال الإقراء، للسخاوي، تحقيق: عبد الحق عبد الدايم سيف القاضي (٢: ٧٦٣).

حَرْثِهِۦ ﴾[الشورى: ٢٠] هو منسوخ بقوله عز وجل: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ﴾[الإسراء: ١٨].

روي ذلك عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وليس بين الآيتين نسخ، وهما محكمتان، وهذا خبر، والخبر من الله عز وجل لا ينسخ.

ولا تعارض بين الآيتين أيضا، لأن معنى قوله عز وجل نزد له في حرثه إن شئنا، لأن من المعلوم أن الأشياء إنما يفعلها بمشيئة الله تعالى لا مكره له عليها فمعنى الآيتين أيضا واحد، فإن (سبحان) نزلت قبل (الشورى) فإن كانت آية ناسخة لآية بعدها فالآية الثانية نزلت منسوخة، وإذا نزلت منسوخة سقطت فائدتها، هذا لو كان ذلك في الأحكام فكيف في الأخبار التي لا يجوز نفسها، وفي هذه الرواية عن ابن عباس- رضي الله عنهما- نظر.

وقال بعض العلماء: معنى قول ابن عباس- رضي الله عنهما- في هذا ونظيره- إن صح قولهم عنه- إنه ناسخ ومنسوخ، أي هو على نسخته، أي مثله في المعنى وإن لم يكن مثله في اللفظ.

ولا يعجبني هذا التأويل»[١].

وقد نبَّه في آخر الكتاب على غلط المتأخرين في التعامل مع عبارة النسخ في كلام المتقدمين فقال: «وإنما وقع الغلط للمتأخرين من قبل عدم

(١) جمال القراء وكمال الإقراء، للسخاوي، تحقيق: عبد الحق عبد الدايم سيف القاضي (٢: ٨١٩-٨٢٠).

المعرفة بمراد المتقدمين، فإنهم كانوا يطلقون على الأحوال المنتقلة: النسخ.

والمتأخرون يريدون بالنسخ: نزول النص ثانيا رافعا لحكم النص الأول ولا يثبت النسخ باجتهاد مجتهد من صحابي ولا غيره ولا بد في ذلك من النقل، والله أعلم»[1].

القسم الثالث: من انتبهوا إلى توسع مصطلح النسخ عند السلف، وأنه أوسع من مصطلح النسخ الأصولي، وأنه يشمل مطلق الرفع الذي يقع على الآية، وطردوا عبارة النسخ على مطلق الرفع، وليس على النسخ الاصطلاحي فحسب، فحكم بأن السلف كانوا يطلقون عليه نسخًا، وابن تيمية (ت: ٧٢٨)[2]، وشرف الدين ابن البارزي الشافعي

---

(١) جمال القراء وكمال الإقراء، للسخاوي، تحقيق: عبد الحق عبد الدايم سيف القاضي (٢: ٩٠٤).

(٢) قال ابن تيمية (ت: ٧٢٨) : « ... وَهَذِه الْحَال يحمد مِنْهَا أن يكون إِحْدَى الْآيَتَيْنِ ناسخة لَهَا أَوْ مفسرة لَهَا بِمَا يُخَالف ظَاهرهَا وَإِن كَانَ السّلف يسمون الْجَمِيع نسخا وَلِهَذَا لم يكن السّلف من الصَّحَابَة وَالتَّابِعِينَ يتركون دلَالَة آيَة من كتاب الله إِلَّا بِمَا يسمونه نسخا وَلم يكن فِي عَهدهم كتب فِي ذَلِك إِلَّا كتب النَّاسِخ والمنسوخ لِأَن ذَلِك غَايَته أَن نجادل فِي آيَات الله بسُلْطَان كجدالنا مَعَ أهل التَّوْرَاة وَالْإِنْجِيل وهما من آيَات الله بِالْقُرْآنِ الَّذِي أنزلهُ الله مُصدقا لما بَين يَدَيْهِ من الْكتاب ومهيمنا عَلَيْهِ

فَأَما مُعَارضَة الْقُرْآن بمعقول أَو قِيَاس فَهَذَا لم يكن يستحله أحد من السّلف وَإِنَّمَا ابتدع ذَلِك لما ظَهرت الْجَهْمِية والمعتزلة وَنَحْوهم مِمَّن بنوا أُصُول دينهم على مَا سموهُ معقولا وردوا الْقُرْآن إِلَيْهِ وَقَالُوا إِذْ تعَارض الْعقل وَالشَّرْع إِمَّا أَن يُفَوض أَو يتَأَوَّل فَهَؤُلَاءِ من أعظم المجادلين فِي آيَات الله بِغَيْر سُلْطَان أَتَاهُم

وَأما تَسْمِيَة الْمُتَأَخِّرين تَخْصِيصًا وتقييدا وَنَحْو ذَلِك مِمَّا فِيهِ صرف الظَّوَاهِر فَهُوَ دَاخل فِي =

(ت: ٧٣٨)[١]، وابن القيم (ت: ٧٥٦)[٢]، وابن رجب (ت: ٧٩٥)[٣]،

=

مُسَمّى النّسخ عِنْد الْمُتَقَدِّمين وعَلى هَذَا الِاصْطِلَاح فَيدْخل النّسخ فِي الْإِخْبَار كَمَا يدْخل فِي الْأَوَامِر وَإِنَّمَا النّسخ الْخَاص الَّذِي هُوَ رفع الحكم فَلَا بُد فِي الْخَبَر عَن أَمر مُسْتَقر.

وَأما مَا يدْخل فِي الْخَبَر عَن إنْشَاء أَمر فَيكون لدُخُوله فِي الْإِنْشَاء إنْشَاء الْأَمر وَالنَّهْي وإنشاء الْوَعيد عِنْد من يجوز النّسخ فِيهِ كآخر الْبَقَرَة على مَا روى عَن جُمْهُور السّلف»، الاستقامة: (١/ ٢٣).

(١) هبة الله بن عبد الرحيم بن إبراهيم أبو القاسم، شرف الدين ابن البارزي الجهني الحموي: قاضي، حافظ للحديث، من أكابر الفقهاء الشافعية.

انظر: الأعلام: (٨/ ٧٣).

(٢) قال: «وإن كان نسخا بالمعنى العام الذي يسميه السلف نسخا وهو رفع الظاهر بتخصيص أو تقييد أو شرط أو مانع؛ فهذا كثير من السلف يسميه نسخا. حتى سمى الاستثناء نسخا، فإن أردتم هذا المعنى فلا مشاحة في الاسم» إعلام الموقعين، تحقيق محمد عبد السلام إبراهيم (٢: ٢٢٧).

(٣) قال: «وقد يكون مرادهم بالنسخ البيان والإيضاح، فإن السَّلف كانوا يطلقون النسخ على مثل ذلك كثيرا، ويكون مقصودهم أن آيات الفرائض والحدود تبين بها توقف دخول الجنة والنجاة من النار على فعل الفرائض واجتناب المحارم، فصارت تلك النصوص منسوخة، أي: مبينة مفسرة، ونصوص الفرائض والحدود ناسخة أي: مفسرة لمعنى تلك، موضحة لها » مجموع رسائل ابن رجب، تحقيق: طلعت فؤاد الحلواني، (٣: ٥٠ ـ ٥١).

وقال: «... ونحو هذا قال قتادة ويزيد بن رومان: وأن هذه القرى مما أخذ بالقتال لكنهم قالوا: نسخ ذلك بآية الأنفال، فإن أرادوا النسخ الاصطلاحي، وهو رفع الحكم، فلا يصح؛ لأن آية الأنفال نزلت عقب بدر قبل بني النضير.

وإن أرادوا أنها بينت أمرها وأن المراد بآية الحشر خمس الغنيمة خاصة، وهذا قول عطاء الخراساني ذكره آدم بن أبي إياس في "تفسيره" عن أبي شيبة عنه على تقدير أن يكون

=

والشاطبي (ت: ٧٩٥)، وأحمد بن عبد الرحيم الدهلوي (ت: ١١٧٦)، وغيرهم ؛ لذا لا حاجة للإطالة في تقرير ذلك أو الاستدلال عليه، وسأكتفي بنقل بعض أقوالهم في ذلك، والله الموفق.

١ - وقال البارزي الشافعي (ت: ٧٣٨): «اعلم أن المتقدمين - كابن عباس رضي الله عنه وغيره - كانوا يطلقون النسخ على التخصيص والاستثناء والأحوال المشكلة؛ كالأمر بالقتال بعد الأمر بالصبر والصفح؛ لاشتراك الجميع في إزالة الحكم المتقدم.

وأما المتأخرون فإنهم لا يسمون ذلك نسخًا؛ لأن النسخ عندهم رفع الحكم الثابت نصًا بنصٍّ آخر لولاه لكان الأول ثابتًا.

وهذا الخلاف إنما هو في الاصطلاح، ولهذا جعل المتقدمون آية السيف ناسخة لمئة وأربع عشرة آية، وخالفهم المتأخرون في ذلك، وقالوا: لا يُنسخ بآية القتال إلا ما فيه نهي عن القتال، وليس في القتال ذلك؛ لأنه قبل الأمر بالقتال لم يكن قادرً عليه، فلا يصحُّ نهيه عنه»[1].

٢ ـ قال الشاطبي (ت: ٧٩٥): « الذي يظهر من كلام المتقدمين أن

=

المراد الخمس خاصة بآية الحشر ـ أنها بينت أن خمس الغنيمة لا يختص بالأصناف الخمس، بل يشترك فيها جميع المسلمين كان متوجها، ويستدل بذلك على أن مصرف الخمس كله مصرف الفيء، وهو مأخذهم في ذلك أنها لما كانت فيئا لجميع المسلمين، وحقا مشتركا بينهم جاز».

(١) ناسخ القرآن العزيز ومنسوخه، للبارزي، ضمن أربع كتب في الناسخ والمنسوخ، تحقيق الدكتور حاتم الضامن (ص: ٦٤).

النسخ عندهم في الإطلاق أعم منه في كلام الأصوليين؛ فقد يطلقون على تقييد المطلق نسخا، وعلى تخصيص العموم بدليل متصل أو منفصل نسخا، وعلى بيان المبهم والمجمل نسخا، كما يطلقون على رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي متأخر نسخا؛ لأن جميع ذلك مشترك في معنى واحدا، وهو أن النسخ في الاصطلاح المتأخر اقتضى أن الأمر المتقدم غير مراد في التكليف، وإنما المراد ما جيء به آخرا؛ فالأول غير معمول به، والثاني هو المعمول به.

وهذا المعنى جار في تقييد المطلق، فإن المطلق متروك الظاهر مع مقيده؛ فلا إعمال له في إطلاقه، بل المعمل هو المقيد، فكأن المطلق لم يفد مع مقيده شيئا؛ فصار مثل الناسخ والمنسوخ، وكذلك العام مع الخاص؛ إذ كان ظاهر العام يقتضي شمول الحكم لجميع ما يتناوله اللفظ، فلما جاء الخاص أخرج حكم ظاهر العام عن الاعتبار؛ فأشبه الناسخ والمنسوخ؛ إلا أن اللفظ العام لم يهمل مدلوله جملة، وإنما أهمل منه ما دل عليه الخاص وبقي السائر على الحكم الأول، والمبين مع المبهم كالمقيد مع المطلق، فلما كان كذلك؛ استهل إطلاق لفظ النسخ في جملة هذه المعاني لرجوعها إلى شيء واحد»[1].

٣ ـ قال ولي الله الدهلوي (ت: ١١٧٦)، قال: « والذي يتضح لنا باستقراء كلام الصحابة والتابعين – رضي الله عنهم أجمعين – في هذا الموضوع أنهم كانوا يستعملون النسخ بمعناه اللغوي المعروف الذي هو

(١) الموافقات للشاطبي، تحقيق مشهور سلمان (٣: ٣٤٤ ـ ٣٥٤).

إزالة شيء لا بمعنى مصطلح الأصوليين الخاص.

- فمعنى النسخ عندهم إزالة بعض الأوصاف في آية بآية أخرى، سواء كان ذلك بياناً لانتهاء مدة العمل بآية من الآيات الكريمة.

- أو صرف الكلام عن المعنى المتبادر إلى غير المتبادر.

- أو بيان أن القيد اتفاق وليس احترازياً، أو تخصيصاً للعموم.

- أو بيان الفارق بين المنصوص والمقيس عليه ظاهراً.

- أو إزالة عادة من العادات الجاهلية.

- أو رفع شريعة من الشرائع السابقة.

وهكذا اتسع باب النسخ عندهم وتوسعوا في موضوعه، وكان للعقل فيه مجال فسيح، وللاختلاف فيه مكان واسع. ولذلك بلغت الآيات المنسوخة إلى خمسمائة آية، بل إذا حققت النظر تجدها غير محصورة بعدد.

أما المنسوخ حسب اصطلاح المتأخرين الأصولين فإنه لا يتجاوز العدد القليل، لا سيما حسب وجهة النظر التي اخترناها»[1].

وكلام ولي الله الدهلوي أشمل ما وقفت عليه في بيان اتساع مصطلح النسخ عند السلف.

والفرق بين القسم الثاني والقسم الثالث: أن أصحاب القسم الثاني لم يطردوا عبارة النسخ عند السلف على مطلق الرفع؛ لذا اعترضوا على بعض الأمثلة التي وقعت فيها هذه العبارة، وأما أصحاب القسم الثالث، فلم

(١) الفوز الكبير في أصول التفسير، للدهلوي، تعريب وتحقيق سلمان الحسني الندوي (ص: ٨٤).

يتوقفوا في طرد الرفع على كل الأمثلة التي وقعت فيها عبارة النسخ عندهم.

رابعًا: الفرق بين المصطلحين، وما ينتج عنه:

لا بد من بيان الفرق بين المصطلحين، وما ينتج عنهما.

فأقول: إن مطلق الرفع الذي يحصل لجزء من معناه أو للحكم الذي يتضمنه أو لأي شيء من متعلقاتهما، فهو نسخ عند المتقدمين:

فرفع الحكم نسخٌ، وهذا يوافق مصطلح المتأخرين.

والتخصيص نسخ للعامِّ سواءٌ في ذلك الأحكام والأخبار عند المتقدمين، وأما المتأخرون فعبروا عنه بالخاص والعام فقط.

والتقييد نسخ للمطلق سواءٌ في ذلك الأحكام والأخبار، وأما المتأخرون فعبَّروا عنه بالمطلق والمقيد فقط.

والتعيين نسخ للإبهام سواءٌ في ذلك الأحكام والأخبار، وأما المتأخرون فعبَّروا عنه بالمبهَم والمعيِّن.

والتبيين نسخ للإجمال سواءٌ في ذلك الأحكام والأخبار، والمتأخرون عبروا عنه بالمجمَل والمبيِّن.

والاستثناء نسخ للمستثنى منه سواءٌ في ذلك الأحكام والأخبار، والمتأخرون عبروا عنه بالمستثنى والمستثنى منه.

وهكذا كل رفع يقع في لفظ الآية، أو في جزء من معنى الآية أو في حكمها، أو أن تبطل حكمًا جاهليًا، أو مما كان عليه أهل الكتاب = فهو نسخٌ عند المتقدمين، وأما عند المتأخرين فالنسخ للأحكام الشرعية، وما

عدا ذلك فله مسميات خاصَّة.

ومن عرف هذا، وتحقق منه، فإنه لا يُثرِّب على مثل هذه العبارات حينما ترد في كلام المتقدمين.

فإن قلت: ما السبيل إلى التحقق من مراد المتقدمين بهذا المصطلح في سياق كلامهم، وكيف يمكن تمييز ما هو نسخ على مصطلح المتأخرين، وما هو ليس كذلك ؟

فالجواب:

أولاً: إن كانت عبارة النسخ واردة في الأخبار، فهي - بلا شكٍّ - من الأبواب الأخرى التي ذكرتها لك من تخصص أو تقييد أو غير ذلك، ولا يمكن تصوُّر أن مرادهم النسخ الاصطلاحي بحالٍ.

مثال:

قال الطبري (ت: ٣١٠): «... عن عمرو بن أبي سلمة، قال: سألت أبا معاذ الخراساني، عن قول الله: ﴿لَّبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابًا﴾ [النبأ: ٢٣] فأخبرنا عن مقاتل بن حيان، قال: منسوخة، نسختها: ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ: ٣٠].

ولا معنى لهذا القول، لأن قوله: ﴿لَّبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابًا﴾ [النبأ: ٢٣] خبر، والأخبار لا يكون فيها نسخ، وإنما النسخ يكون في الأمر والنهي »[1].

(١) تفسير الطبري: (٢٤: ٢٧).

قلت: مقاتل بن حيان[1] (ت: ١٥٠) قبل استقرار مصطلح النسخ على الأمر والنهي، وليس مراده هذا النوع من المصطلح؛ لذا لا يصلح اعتراض الإمام الطبري (ت: ٣١٠)، بل هو على مصطلح المتقدمين الواسع، لذا حكم على الخبر بالنسخِ.

ومن قرأ في تفسير قوله تعالى: ﴿لَّبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابًا﴾ [النبأ: ٢٣]سيجد أن في الآية مشكلًا؛ لأنَّه قد يتبادر للذهن أن هذه الأحقاب تنتهي، فينتهي عذاب النار، فجاء قوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ: ٣٠] مبينًا عن أنَّ هذه النار لا تفنى، بل ينتقلون من عذابٍ إلى عذابٍ آخر.

وفي الآية قولان[2]:

الأول: أنها في الكفار، وكلما انتهى حقب أعقبه حقب آخر بلا انقطاع، ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَا فَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلۡيَذُوقُوهُ حَمِيمٞ وَغَسَّاقٞ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ أَزۡوَٰجٌ﴾ [ص: ٥٥ ـ ٥٨]، وهذا قول الحسن (ت: ١١٠) وقتادة (ت: ١١٧)

---

(١) مُقَاتِلُ بنُ حَيَّانَ بنِ دَوَالَ دُوْزَ أَبُو بِسْطَامَ النَّبْطِيُّ.

الإِمَامُ، العَالِمُ، المُحَدِّثُ، الثِّقَةُ، أَبُو بِسْطَامَ النَّبْطِيُّ، البَلْخِيُّ، الخَزَّازُ، طَوَّفَ وَجَالَ، تُوُفِّيَ فِي حُدُوْدِ الخَمْسِيْنَ وَمائَةٍ.

انظر في ترجمته: طبقات خليفة (٣٢٢) ، تاريخ البخاري: (٨ / ١٣)، الجرح والتعديل: (٨ / ٣٥٣)، مشاهير علماء الأمصار: (١٩٥)، سير أعلام النبلاء: (٦/ ٣٤٠)، طبقات المفسرين: (٢ / ٣٢٩).

(٢) ينظر تفسير الطبري (٢٤: ٢٣ – ٢٧).

والربيع بن أنس (ت: ١٣٩).

ومؤدَّى قول مقاتل بن حيان (ت: ١٥٠) يؤول إلى هذا القول، وإنما عبَّر بالنسخ؛ لأن الآية الأخرى أزالت الاشتباه الذي قد يقع في أن النار تفنى.

القول الثاني: أنها في أهل القبلة، وهذا يشير إلى فناء النار التي يُعذَّبون بها، أما نار الكفار فلا، وهذا محكيٌّ عن خالد بن معدان [1](ت: ١٠٣).

وقول خالد هذا يشير إلى ورود المشكل في هذه الآية في طبقة التابعين، والله أعلم.

ثانيًا: إذا وردت عنهم في الأحكام، فإن الأولى تخريجها على الأبواب الأخرى من تخصيص العامِّ وتقييد المطلق وبيان المجمل وتعيين المبهم وما إلى ذلك؛ ما وُجِد إلى ذلك سبيل، فإن لم يكن، فإنها تُحمل على النسخ الاصطلاحي، وبهذا سترى أن الآيات التي يمكن أن تحتمل مصطلح النسخ عند المتأخرين قليلة جدًا عند المتقدمين.

ويبقى ههنا تنبيهٌ، وهو ما المشكلة في الحكم على آية ما بأنها منسوخة، ما دمنا نجيز النسخ ونراه واقعًا؟

إن النظر إلى الأثر العلمي لهذه المسألة سيخفف ذلك التخوُّف من حمل الآية على النسخ بمصطلح المتأخرين؛ لأنَّ النتيجة واحدة في ذلك؛ إذ

---

(١) خَالِدُ بنُ مَعْدَانَ بنِ أَبِي كَرِبٍ الكَلاَعِيُّ.

الإِمَامُ، شَيْخُ أَهْلِ الشَّامِ، أَبُو عَبْدِ الله الكَلاَعِيُّ، الحِمْصِيُّ.

انظر في ترجمته: طبقات ابن سعد: (٧/ ٤٥٥)، طبقات خليفة: (ت ٢٩٢٨)، تاريخ الإسلام: (٤ / ١٠٩)، سير أعلام النبلاء: (٤/ ٥٣٦)، طبقات السيوطي: (ص ٣٦).

في كلا الأمرين رفع للحكم، سواء سميناه نسخًا أو سميناه باسم آخر، وإليك المثال الذي يوضح ذلك:

قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴾ [النساء: ١٥][1].

(١) لم يقع خلاف عند المتقدمين في أمر النسخ في هذه الآية، وأول من ذُكر عنه صرفها إلى معنى جديد = أبو مسلم الأصفهاني (ينظر قوله عند الرازي في مفاتيح الغيب / ٩: ٥٢٨)، وتبعه من المتأخرين صاحب المنار، قال: «فَالْحَقُّ أَنَّ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ أَبُو مُسْلِمٍ هُوَ الرَّاجِحُ فِي الْآيَتَيْنِ» (المنار: ٤: ٣٦٠)، وقريبٌ منهما ما ذهب إليه عبدالكريم الخطيب (ت: ١٣٩٠)، قال: «يجمع المفسرون على أن هاتين الآيتين منسوختان بالآية الثانية من سورة النور.. وهي قوله تعالى: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖ ﴾ [النور: ٢] وأن حدَّ الزنا كان في أول الإسلام- كما يقولون- هو الإمساك للمرأة الزّانية وحبسها في البيت، على حين أن الرجل يعنّف ويؤنّب باللسان، أو ينال بالأيدى أو النعال، حسب تقدير وليّ الأمر! ونحن ـ على رأينا بألا نسخ في القرآن ـ نرى أن هاتين الآيتين محكمتين وأنهما تنشئان أحكاما لمن يأتون الفاحشة- من الرجال والنساء- غير ما تضمنته آية النور من حكم الزانية والزاني». التفسير القرآني للقرآن ، لعبد الكريم الخطيب (٣ : ٧١٨).

وقد ردَّ عليه محمد بكر إسماعيل (ت: ١٤٢٦)، فقال: «والعجب كل العجب من هذا الأخير ـ يقصد الخطيب، والأول هو محمد رشيد رضا ـ أنه يذكر إجماع المفسرين على أن الآيتين منسوختان بالآية الثانية من سورة النور، ثم ينفر هو برأي يخالف الجمهور ويعظِّم نفسه بقوله: ونحن نرى، وأين هو من هؤلاء المفسِّرين! وأين مكان الثرى من الثريَّا! ولِمَ هذا التنطُّع! ولم هذه المكابرة في إنكار النَّسْخ وقد أقرَّه الجمهور سلفًا وخلفًا، وأين يذهب هؤلاء المنكرون للنَّسْخِ وقد لزمتهم الحجة، ووضحت أمامهم المحجة، =

قال عبد القادر العاني (ت: ١٣٩٨) : «... ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي ٱلْبُيُوتِ﴾ : احبسوهن فيها جزاء لإقدامهن على تلك الفعلة القبيحة حالاً لئلا يكررنه، وإن تبقوهن محبوسات ﴿حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ﴾ فتخلصوا منهن ﴿أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٥] طريقًا آخر، فينزل فيهن حكما آخر قبل أن يَمُتْنَ، وهذا كان موجودا في الجاهلية وفي بداية الإسلام واستمر حتى أنزل الله بيان السبيل الذي ذكره هنا في سورة النور الآتية.

وهذا يعد من المجمل الذي يحتاج إلى البيان فلا تعد هذه الآية منسوخة كما قاله بعض المفسرين»[1].

ومما ورد في الحكم بنسخها، ما رواه ابن أبي حاتم بسنده عن ابن عباس قوله: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي ٱلْبُيُوتِ﴾، قال: «فكان ذلك الفاحشة في هؤلاء الآيات قبل أن تنزل سورة النور في الجلد والرجم، فإن جاءت اليوم بفاحشة بينة، فإنها تخرج وترجم بالحجارة، فنسختها هذه الآية: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور:٢]»، ثم قال ابن أبي حاتم:

=

وإني لتأخذني الدهشة عندما أرى واحدًا من أولئك يقول في الآية برأيه، ويضرب بقول الرسول صلى الله عليه وسلم عرض الحائط، فينكر النَّسْخَ مثلًا في هاتين الآيتين بآية النور، وبالحديث الذي كان منهما بمنزلة البيان والتخصيص والتفصيل، ولو أنصف نفسه لم يظلمها بالقول في كتاب الله بالهوى، ولأَرَاح واستراح، ووقَى نفسه شر العقوبة التي توعَّده الله بها في الدنيا والآخرة» . دراسات في علوم القرآن (ص: ٢٦٨ – ٢٧٠)، ولعل الله ييسر كتابة مستقلة لردِّ مثل هذه الدَّعاوى.

(١) بيان المعاني على حسب ترتيب النزول، لعبد القادر بن ملاَّ حويش العاني (٥: ٥٢٩).

«وروي عن الحسن، وعكرمة، وأبي صالح، وقتادة، وعطاء الخراساني، وزيد بن أسلم، والضحاك أنها منسوخة»[1].

وإذا أجريتَ النظر في الآية، فإنك ستقف على ترتيب الأمر كما يأتي:

١- هناك حكم شرعي نزل أولاً، وهو حبس الزواني في البيوت.

٢- هذا الحكم الشرعي مغيًّا بواحد من أمرين: موت الزانيات، أو أن يجعل الله لهن السبيل الذي ينزله الله فيما بعد.

٣- نزول السبيل من الله بآية الرجم، في قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور:٢] وما يتبعها من تفاصيل في السنة.

والمتفق عليه هنا أن حكمًا كان يُعمل به، ثم انتقل إلى حكم آخر، وترك الحكم الاول.

فإن سميناه (المجمل الذي يحتاج إلى البيان)، أو سميناه (نسخًا) فإنه حكم نزل بفرض الله له، ثمَّ تُرِك هذا الحكم لنزول حكم جديد، وتسمية هذا بالبيان أو النسخ لا يُغيِّر من الحكم شيئًا.

(١) تفسير ابن أبي حاتم، نشر مكتبة نزار الباز (٣: ٨٩٤)، وحكى الإجماع بعض العلماء، ومنهم الطاهر بن عاشور، قال: «أجمع العلماء على أن هاتين الآيتين منسوختان بآية الجلد في سورة النور» التحرير والتنوير (٤: ٢٦٩).

الفصل الثاني

أنواع النسخ، وعلاقتها بما استقر عليه مصطلح النسخ

المبحث الأول: أنواع النسخ:

كان مصطلح النسخ عند المتقدمين واسعًا يشمل الخبر والحكم، وكانت بداية ربط النسخ بالأحكام دون الأخبار في النصف الثاني من القرن الثاني كما سبق النقل عن الإمام الشافعي (ت: ٢٠٤)، ومع انتشار التأليف في أصول الفقه انحسر هذا المصطلح على الأحكام الفقهية دون الأخبار، وصار لفظ (الحكم) هو المتداول في موضوع النسخ، وتكاد تتفق كلمة علماء أصول الفقه ومن تبعهم ممن كتب في النسخ في كتب علوم القرآن = على أن أنواع النسخ ثلاثة(١):

الأول: ما نُسِخت تلاوته وبقِيَ حكمُه.

ومثاله:

حكم الزاني المحصن، ونزل فيها قرآن، ثم رُفع لفظه، وبقي حكمه، وذكروا أنها كانت هكذا: (والشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة

---

(١) ينظر: الفصول في الأصول للجصاص (٢: ٢٥٣ وما بعدها، ٣٥٠)، والمعتمد في أصول الفقه، لأبي الحسن البصري المعتزلي (١: ٣٦٣)، والعدة في أصول الفقه، لأبي يعلى الفراء (٣: ٧٠٢)، وبعضها يفصل هذه الثلاثة، فتصل إلى ستة أقسام كما في فهم القرآن للمحاسبي (ص: ٣٩٨، وما بعدها)، وقواطع الأدلة للسمعاني (١: ٤٢٦).

...)[١].

الثاني: ما نُسِخت تلاوته وحكمه.

ومثاله:

نسخ الرضعات العشر التي تُحَرِّم ما يحرم بالنسب، وذلك في قول عائشة رضي الله عنها: «كَانَ فِيمَا أُنْزِلَ مِنَ الْقُرْآنِ: عَشْرُ رَضَعَاتٍ مَعْلُومَاتٍ يُحَرِّمْنَ، ثُمَّ نُسِخْنَ، بِخَمْسٍ مَعْلُومَاتٍ، فَتُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَهُنَّ فِيمَا يُقْرَأُ مِنَ الْقُرْآنِ»[٢].

فهذه الرضعات لا توجد في القرآن، ولم يبق العمل بها أيضًا.

أما الرضعات الخمس، فهي من النوع الذي قبله، وهو ما نسخت تلاوته، وبقي حكمه.

الثالث: ما نُسِخ حكمه وبقيت تلاوته.

ومثاله:

نسخ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾[المجادلة:١٢] بقوله

(١) أخرجه الطيالسي: (٥٤٠)، وعبد الرزاق: (١٣٣٦٣)، وعبد الله بن الإمام أحمد في الزيادات: (٥/ ١٣٢)، والبيهقي: (٨/ ٢١١)، وغيرهم من طرق عن عاصم، عن زِر، قال: قال لي أُبي بن كعب: «يا زر، كأين تعد، وكأين تقرأ سورة الأحزاب؟ قال: قلت: كذا وكذا آية. قال: إن كانت لتضاهي سورة البقرة، وإن كنّا لنقرأ فيها والشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله ورسوله فرفع فيما رفع».

(٢) أخرجه مسلم، كِتَابُ الرِّضَاعِ، بَابُ التَّحْرِيمِ بِخَمْسِ رَضَعَاتٍ: (١٤٥٢).

تعالى: ﴿ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المجادلة: ١٣].

وتعبيرهم بهذا مع الأمثلة التي يذكرونها يدلُّ على انحسار مصطلح النسخ على الأحكام الفقهية دون الأخبار.

ومن آثار ذلك الانحسار ما يأتي:

١- أن جلَّ البحث في الناسخ والمنسوخ في النوع الثالث، وهو ما نُسِخ حكمه وبقيت تلاوته، وإليه يتَّجه مصطلح النسخ في أغلب الكتب التي عُنونت باسم الناسخ والمنسوخ.

قال السيوطي (ت: ٩١١): «الضرب الثاني: ما نسخ حكمه دون تلاوته وهذا الضرب هو الذي فيه الكتب المؤلفة »[١].

٢- ارتباط النسخ بجزء من القرآن لا يكاد يعدل (١) إلى (١٢) من أجزاء القرآن، وذلك أن عدد آي القرآن على العدِّ الكوفي (٦٢٣٦) آية، وأعلى ما بلغ من تقدير عدد آيات الأحكام أنها (٥٠٠) آية، وهذا العدد هو المشتهر في كتب أهل العلم، وإن كان فيه مقال ليس هذا محلُّه؛ لأن المراد من تأصيل المسألة هنا يقوم بهذا العدد، وإن كان فيه ما فيه.

وإذا قسمنا عدد الآيات (٦٢٣٦) على (٥٠٠) فالنتيجة (١٢,٤٧٢)، وبهذا يتبين أن موضوع النسخ يرتبط بجزء لا يتجاوز في نسبته (١) إلى (١٢) جزءًا من القرآن، فضلًا عن أنه من المعلوم أن النسخ لا

(١) الإتقان (٣/ ٧١).

يدخل كل آيات الأحكام، فيصير الأمر بذلك إلى أقل من هذه النسبة.

٣- ظهور قاعدة : (الأخبار لا تُنسخ)، وتسليطها على تطبيقات المتقدمين الذين يستخدمون النسخ بالمصطلح اللغوي الواسع، فاعترضوا بها على ما ورد عنهم من تعبير عن نسخ بعض الأخبار.

٤- قِلَّة البحث والتحرير في أنواع النسخ الأخرى، مع ذكرهم لها في التقسيم، وذلك أن البحث في هذه الأنواع ليس من مهمة الأصولي ولا الفقيه، وفيها أيضًا من الأخبار المنسوخة ما لا يتناسب مع طبيعة البحث الفقهي المرتبط بالأحكام.

المبحث الثاني: علاقة أنواع النسخ بمصطلح النسخ

إذا نظرت إلى الأنواع الثلاثة السابقة في النسخ، فإنه سيظهر لك أن نوعين يمكن أن يدخلا في تعريف علماء أصول الفقه للنسخ، وذلك أن «رفع الحكم الثابت بخطاب متقدم بخطاب متراخ عنه» ينطبق على (ما نُسِخ حكمه وبقيت تلاوته)، وعلى (ما نسخت تلاوته وحكمه)، وكان له بدل؛ كتحريم بالرضعات العشر، ثم نسخت بخمس رضعات.

أما (ما نسخت تلاوته وبقي حكمه) فبمعزل عن هذا التعريف، ولا ينطبق عليه بحال؛ لأن الحكم لم يقع عليه نسخٌ، وإنما وقع النسخ على التلاوة، وهذا ليس من مباحث الأصوليين، وإنما هو من مباحث علماء القرآن .

وسبب ذلك أن الأمر مرتبط بالحكم، وليس بوجود ألفاظه في القرآن من عدمها، والتعريف يشير إلى ذلك؛ إذ هو يدور مع الحكم، ولا علاقة له بمكان ورود الناسخ؛ إذ خطاب الشارع قد يكون بقرآن أو بسُنَّة.

وبهذا يظهر أن تعريف النسخ الاصطلاحي لا يشمل أنواع النسخ المرتبطة بالأحكام، فضلاً عن المرتبطة بالأخبار على مصطلح المتقدمين.

وإذا نظرنا إلى الآثار، فإن هناك نوعًا من المنسوخ لا يمكن أن ينطبق عليه تعرف النسخ الأصولي كذلك، وهو ما وقع الرفع فيه للفظ والمعنى أو الحكم، كالذي رواه الطحاوي بسنده عَنِ الزُّهْرِيِّ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبُو أُمَامَةَ بْنُ سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ، «أَنَّ رَهْطًا مِنَ الْأَنْصَارِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ أَخْبَرُوهُ أَنَّهُ قَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ يُرِيدُ أَنْ يَفْتَتِحَ سُورَةً قَدْ كَانَ وَعَاهَا، فَلَمْ

يَقْدِرْ مِنْهَا عَلَى شَيْءٍ إِلَّا: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، فَأَتَى بَابَ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ أَصْبَحَ، يَسْأَلُ النَّبِيَّ ﷺ عَنْ ذَلِكَ، ثُمَّ جَاءَ آخَرُ، وَآخَرُ حَتَّى اجْتَمَعُوا، فَسَأَلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا: مَا جَمَعَهُمْ؟ فَأَخْبَرَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِشَأْنِ تِلْكَ السُّورَةِ، ثُمَّ أَذِنَ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ، فَأَخْبَرُوهُ خَبَرَهُمْ، وَسَأَلُوهُ عَنِ السُّورَةِ، فَسَكَتَ سَاعَةً لَا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا، ثُمَّ قَالَ: "نُسِخَتِ الْبَارِحَة" فَنُسِخَتْ مِنْ صُدُورِهِمْ، وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ كَانَتْ فِيهِ»[1].

فهذا النوع من المنسوخ لا يتناسب مع تعريف النسخ الاصطلاحي.

وخلاصة الأمر؛ أن هناك أنوعًا من النسخ في كتب التفسير وعلوم القرآن لا ينطبق عليها النسخ الاصطلاحي، ويمكن إجمالها فيما يأتي:

١ ـ ما يقع من عبارات النسخ عند المتقدمين في الأخبار.

٢ ـ ما نسخت تلاوته وبقي حكمه.

٣ ـ ما رُفع بالكلية، فلا يقع له تذكُّر لا في لفظه، ولا في معناه، وعبَّر عنها أبو عبيد القاسم بن سلام (ت: ٢٢٤) بقوله: «وأما النسخ الثاني: فأن تُرفع الآية المنسوخة بعد نزولها، فتكون خارجة من قلوب الرجال، ومن ثبوت الخطِّ، والشاهد عليه أحاديث عدَّة ... »[2].

(١) أخرجه الطحاوي في مشكل الآثار: (٥/ ٢٧٢) ح (٢٠٣٥)، ط. مؤسسة الرسالة، والطبراني في مسند الشاميين: (٤/ ١٦١)، ح (٣٠٠١).

(٢) الناسخ والمنسوخ، لأبي عبيد، تحقيق الدكتور محمد المديفر (ص: ١٤).

المبحث الثالث: التعريف الجامع لأنواع النسخ

من خلال ما سبق تبيَّن أمران كبيران في موضوع النسخ:

الأول: اختلاف مصطلح النسخ بين المتقدمين والمتأخرين.

الثاني: أن اصطلاح المتأخرين ينطبق على جزء مما يشمله علم الناسخ والمنسوخ، ويخرج عنه أنواع من هذا العلم.

ولما كان الأمر كذلك، فإني اجتهدتُ في إيجاد تعريف يجمع جميع أنواع النسخ الواردة عن المتقدمين والمتأخرين من وقوع النسخ في الأحكام والأخبار، وأجريتُ محاولةً في تعريفٍ يشتمل على الأنواع الثلاثة التي تقع في الأحكام والأخبار.

وقبل التعريف لابدَّ من تصوُّر الأركان التي يقوم عليها النسخ (رفعًا أو إبطالًا)، وهي:

١ – اللفظ.

٢– المعنى الذي يشتمله ذلك اللفظ.

٣– الحكم الذي يتضمنه ذلك اللفظ.

ثم تصورُّ كيفية وقوع النسخ في هذه الثلاثة.

١ – أما اللفظ، فيقع عليه النسخ في رفعه بالكلية، بحيث يُنسى، ولا يبقى منه شيء محفوظ.

ويلحق نسخ اللفظ في هذه الحالة ما يحتمله من معنى، سواءٌ أكان ذلك خبرًا أو حكمًا.

٢- وأما المعنى، فإنه إن لا يخلو من حالين:

الأول: أن يكون خبرًا، والخبر إما أن يكون:

ـ محضًا، وهذا لا يقع فيه نسخٌ بالمعنى الاصطلاحي، بمعنى أن يُبطل المعنى الذي تحتمله الألفاظ، أما أن تُرفع الفاظه بالكلية، فهذا جائز.

ـ وإما أن يكون بمعنى الأمر، كقوله: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾، وهذا يجوز فيه النسخ؛ لأن مآله إلى الأحكام.

ـ وإما أن يتضمن وعيدًا، وهذا مما يُنسخ على قول أهل السنة، أي: أن يتكرَّم الله على عبده المذنب، فلا يُنفذ وعيده فيه.

الثاني: أن يكون حكمًا، وهو ما سيأتي بيانه في الفقرة التالية.

٣- الحكم، وهذا فيه أحوال:

أولًا: أن يكون الحكم المنسوخ ليس من الأحكام التي أنزلها الله على محمد ﷺ، وهذا يصدق عليه معنى الإبطال فحسب، ولا يصدق عليه مصطلح النسخ الأصولي؛ لأن الحكم المنسوخ لم يأمر به الله، ثم يرفعه، فاختلف فيه شرط (الحكم الشرعي الثابت عن الله).

ثانيًا: أن يكون الحكم الشرعي نازلًا من الله سبحانه في شريعة محمد ﷺ، ثمَّ ينزل حكم آخر يرفع هذا الحكم، وهذه الصورة هي التي ينطبق عليها تعريف (النسخ الأصولي الاصطلاحي).

ثالثًا: أن المعنى الذي يتضمنه الحكم ـ في هذا النوع ـ لم يقع فيه نسخ؛ لبقاء ألفاظه في التلاوة، فنحن نفسِّر المعنى الذي يتضمن هذا الحكم، لكننا نقول بنسخ الحكم الذي فيه فقط.

وإليك مثالٌ يوضح ذلك:

وقع خلاف بين العلماء في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ [البقرة: ١٨٤] هل هو محكم أو منسوخ بقوله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥]، فمن قال: إنه منسوخ يذهب إلى أن فرض الصيام أول الأمر كان على التأخير، وكان يحق لمن يقدر على الفدية أن يتصدق ولا يصوم، ثم نُسخ ذلك بقوله: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥].

قال الطبري: « وأولى هذه الأقوال بتأويل الآية قول من قال: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ [البقرة: ١٨٤]، منسوخ بقول الله تعالى ذكره: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥].

لأن"الهاء" التي في قوله: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾، من ذكر الصيام، ومعناه: وعلى الذين يطيقون الصيام فدية طعام مسكين. فإذ كان ذلك كذلك، وكان الجميع من أهل الإسلام مجمعين على أن من كان مطيقا من الرجال الأصحاء المقيمين غير المسافرين صوم شهر رمضان، فغير جائز له الإفطار فيه والافتداء منه بطعام مسكين - كان معلوما أن الآية منسوخة.

هذا، مع ما يؤيد هذا القول من الأخبار التي ذكرناها آنفا عن معاذ ابن جبل[1]، وابن عمر، وسلمة بن

(١) روى الطبري بسنده عن معاذ بن جبل، قال: «إن رسول الله ﷺ قدم المدينة، فصام يوم =

الأكوع[١] من أنهم كانوا بعد نزول هذه الآية على عهد رسول الله ﷺ في صوم شهر رمضان بالخيار بين صومه وسقوط الفدية عنهم، وبين الإفطار والافتداء من إفطاره بإطعام مسكين لكل يوم؛ وأنهم كانوا يفعلون ذلك حتى نزلت: ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾ [البقرة: ١٨٥]، فألزموا فرض صومه، وبطل الخيار والفدية»[٢].

فالمعنى الذي تتضمنه هذه الألفاظ: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ لم يتغيَّر بسبب النسخ، وإنما الذي تغيَّر هو الحكم العملي (الفقهي) الذي تتضمنه تلك الألفاظ وذلك المعنى، وهو هل يُعمل به أو لا يُعمل.

وإذا اتضح من هذا أن النسخ يقع على اللفظ أو المعنى أو الحكم عند السلف، وأنه يقع على الحكم عند المتأخرين، فما التعريف الجامع لأنواع

=

عاشوراء وثلاثة أيام. من كل شهر، ثم إن الله جل وعز فرض شهر رمضان فأنزل الله تعالى ذكره: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣] حتى بلغ: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ [البقرة: ١٨٤] فكان من شاء صام، ومن شاء أفطر، وأطعم مسكينا. ثم إن الله عز وجل أوجب الصيام على الصحيح المقيم، وثبت الإطعام للكبير الذي لا يستطيع الصوم فأنزل الله عز وجل: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ [البقرة: ١٨٥]. إلى آخر الآية».

(١) تفسير الطبري، تحقيق التركي(٣: ١٦١ وما بعدها).

(٢) تفسير الطبري، ط: دار هجر (٣:١٧٨).

النسخ هذه؟

قلت: يمكن أن يُعرَّف النَّسخ بأنه:

«**رفع لفظ الآية أو معناها أو حكمها، جزئيًا أو كليًا، ببدل كان أو بغير بدل**».

فقولي: «رفع» يدل على مطلق الرفع.

وقولي: «رفع لفظ الآية» يدخل فيه رفع ألفاظها بالكلية، بحيث تُنسى، أو رفع ألفاظها من المقروء في المصاحف، وبقاء روايتها في الكتب، وهذا رفع جزئٌ.

وإذا رُفع لفظها من المقروء في المصاحف مع بقائها في الرواية، صارت روايتها رواية الحديث، بحيث يجوز رواية ألفاظها بالمعنى، وبهذا ينتفى فيها شرط الإعجاز.

وقولي «أو معناها» يشمل رفع الخبر، ويدخل فيه رفعه بالكلية أو رفعه جزئيًا.

أما رفع بالكلية فيدخل فيه حالتان:

الأولى: أن تنسى ألفاظ الآية فيتبعها ما تتضمنه من معنى.

الثاني: أن يكون الخبر وعيدًا، فيتفضل الله بعدم إيقاعه.

وأما رفعه جزئيًا فله أنواع:

الأول: أن تبقى ألفاظه خارج المقروء، فهو غير متلوٍ، وإنما يدخل في باب الرواية الحديثية والآثار.

الثاني: أن يقع رفع على المعنى المتضمن في هذه الألفاظ، كتخصيص

عام أو تقييد مطلق أو بيان مجمل أو استثناء، إذ اللفظ العام ـ مثلًا ـ خرج منه بعض معناه، وهو ما وقع عليه التخصيص، وأما ما لم يدخله التخصيص فهو باقٍ على حكمه.

وقولي: «أو حكمها» يشمل الأحكام الفقهية، ولها حالان:

الأولى: أن يكون النسخ للحكم كله، وهذا هو النسخ الاصطلاحي الأصولي.

الثاني: أن يكون النسخ لبعض الحكم؛ كتخصيص العام أو تقييد المطلق أو بيان المجمل او الاستثناء، وهذا يدخل في النسخ الجزئي للحكم.

وقولي: «جزئيًا» يدخل فيه المعنى والحكم إذا كان من باب تخصيص العام أو تقييد المطلق أو ما إلى ذلك، كما سبق بيانه .

وقولي: «أو كليًا» يدخل فيه النسخ الاصطلاحي، ما يرفع من الآيات فينسى بالكلية، وكذا يمكن دخول بعض آيات الوعيد التي يجوز أن يتكرم الله بعدم إيقاع الوعيد فيها على عبده، كما سبق بيانه.

وقولي: «ببدل كان» ليدخل فيه النسخ الاصطلاحي الذي يكون رفع الحكم فيه بخطاب آخر.

وقولي: «أو بغير بدل» يدخل فيه ما يقع من نسخ التلاوة دون الحكم، أو ما يُرفع من القرآن بالكلية.

وإنما أضفت: «ببدل كان أو بغير بدل» لتأكيد ما سبق من الرفع الجزئي والكليِّ، والله أعلم.

الخاتمة

وتحتوي على أهم النتائج والتوصيات

الحمد لله، وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى، وعلى خير بني آدم محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه، أما بعد:

فبعد أن وفقني الله لإتمام هذا البحث، أرجو أن يكون قد تفضَّل علي بالصواب من القول فيه.

وإن كان الأمر كذلك، فإن فيه تنبيهًا إلى أن بعض القضايا العلمية التي يظن بعضهم أنه لا يمكن الإضافة فيها؛ أن ذلك الظنَّ تحجير على البحث العلمي، وأن الميدان والممارسة والتنقيب كفيلة بإظهار الإضافة من عدمها.

لذا أوصي نفسي والباحثين بأن لا يُستعجل في ردٍّ بعض الأفكار بدعوى: «ما الجديد الذي ستقدمه؟!»، وأن يترك الأمر للميدان العلمي، ولقدرة الباحث على الاستقراء والتحرير.

كما أوصي بالنظر في تطبيقات العلماء المتقدمين من الصحابة والتابعين وأتباعهم، ففيها كنوز مدفونة، وهي بحاجة إلى «تجديد»، وتلك هي الصورة الأولى للتجديد التي نُسيت، وهي العود بالأمر إلى أصوله، أخذًا من قوله ﷺ : «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»[1]، إذ معناه يعيدها إلى أول الأمر، وليس أنه يأتي بجديد؛ إذ الجديد قد يكون بدعة وضلالة.

---

(١) رواه أبوداود في سننه، كتاب الملاحم، باب ما يُذكر من قرن المئة، برقم (٤٢٩١).

وكثيرٌ ممن يتكلمون عن التجديد يغفلون عن هذا المعنى ويذهبون إلى أن التجديد الإتيان بجديد، وهذا نوع منه، وليس هو كل مسمَّى التجديد في كلام الشارع، والله أعلم.

وبعد: فإن من نتائج هذا البحث ما يأتي:

١- أن مصطلح النسخ عند السلف كان على المعنى اللغوي، وهو مطلق الرفع؛ لذا كثرت عبارة النسخ في تفسيراتهم.

٢- أن محاكمة المتقدمين إلى مصطلح استقرَّ بعدهم سيظهر ما يظنه المتأخر خطأً من القول، وهو - في حقيقة الأمر - ليس كذلك.

لذا وجب العناية بالتفتيش في مراداتهم، والحرص على معرفتها قبل الاستدراك عليهم.

٣- أن المصطلح المتوسع في مدلول النسخ بقي منه بقية عند بعض المتأخرين، كما هو الحال في تطبيقات البارزي (ت: ٧٣٨) في كتابه (ناسخ القرآن العزيز ومنسوخه).

وأخيرًا: فالسبيل في التعامل مع أقوال السلف أن تبحث العلل والأسباب الموجبة لهم بهذا القول أو ذاك، وعدم الردِّ لها إلا بعد أن تنفذ السبل في قبول رأيهم أو توجيهه، ذلك أنَّ هؤلاء أعلم منا بكتاب الله، وأتقى منا لله، فلا يُشنَّع عليهم بسبب أقوالٍ لم نفهم نحن مرادهم بها، ولا أدركنا فقههم فيها، والاعتذار لهم في أقوالهم، وتخريجها على المخرج الحسن هو السبيل الأمثل الأقوم، والله الموفق.

هذا، والله أعلم وأحكم، والحمد لله رب العالمين.

المراجع

١. الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (المتوفى: ٣٥٤هـ)، ت: شعيب الأرنؤوط.

٢. أحكام القرآن، أحمد بن علي أبو بكر الرازي الجصاص الحنفي (المتوفى: ٣٧٠هـ)، ت: محمد صادق القمحاوي - عضو لجنة مراجعة المصاحف بالأزهر الشريف، ط. دار إحياء التراث العربي - بيروت.

٣. أحكام القرآن، القاضي محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي المعافري الاشبيلي المالكي (المتوفى: ٥٤٣هـ)، ت: محمد عبد القادر عطا، ط. دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الثالثة، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.

٤. الأدب المفرد، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله (المتوفى: ٢٥٦هـ)، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، ط. دار البشائر الإسلامية - بيروت، الثالثة، ١٤٠٩ - ١٩٨٩.

٥. الاستقامة، ابن تيمية (المتوفى: ٧٢٨هـ)، ت: د. محمد رشاد سالم، ط. جامعة الإمام محمد بن سعود - المدينة المنورة، الطبعة: الأولى، ١٤٠٣.

٦. بيان المعاني [مرتب حسب ترتيب النزول]، عبد القادر بن ملّا حويش السيد محمود آل غازي العاني (المتوفى: ١٣٩٨هـ)، ط. مطبعة الترقي - دمشق .

٧. تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير وَالأعلام، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ)، ت: الدكتور بشار عوّاد معروف، ط. دار الغرب الإسلامي.

٨. التحقيق في كلمات القرآن الكريم، حسن المصطفوي، دار الكتب العلمية ببيروت بالتعاون مع مركز نشر آثار العلامة المصطفوي بلندن، ١٤٣٠.

٩. تفسير الطبري = جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ)، ت: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر الدكتور عبد السند حسن يمامة، ط. دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط. الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م.

١٠. التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب (المتوفى: بعد ١٣٩٠هـ)، دار الفكر العربي - القاهرة.

١١. جمال القراء وكمال الإقراء، علي بن محمد بن عبد الصمد الهمداني المصري الشافعي، أبو الحسن، علم الدين السخاوي (المتوفى: ٦٤٣هـ)، ت: عبد الحق عبد الدايم سيف القاضي، ط. مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت.

١٢. ديوان العجاج، رواية عبد الملك بن قريب الأصمعي وشرحه، ت: عبد الحفيظ السطلي، ط. مكتبة أطلس - دمشق .

١٣. الرسالة، الشافعي أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن عبد المطلب بن عبد مناف المطلبي القرشي المكي (المتوفى: ٢٠٤هـ)، ت: أحمد شاكر، ط. مكتبه الحلبي، مصر .

١٤. زاد المسير في علم التفسير، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ)، ت: عبد الرزاق المهدي، ط. دار الكتاب العربي – بيروت.

١٥. سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (المتوفى: ٢٧٥هـ)، ت: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط. المكتبة العصرية، صيدا – بيروت.

١٦. سير أعلام النبلاء، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى : ٧٤٨هـ)، ت: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، ط. مؤسسة الرسالة ١٤٠٥ هـ .

١٧. شرح مشكل الآثار، أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن عبد الملك بن سلمة الأزدي الحجري المصري المعروف بالطحاوي (المتوفى: ٣٢١هـ)، ت: شعيب الأرنؤوط، ط. مؤسسة الرسالة، الأولى – ١٤١٥ هـ، ١٤٩٤ م.

١٨. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (المتوفى: ٣٩٣هـ)، ت: أحمد عبد الغفور عطار، ط. دار العلم للملايين – بيروت، ط. الرابعة ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م.

١٩. صحيح البخاري = الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، ت: محمد زهير بن ناصر الناصر، ط. طوق النجاة.
٢٠. صحيح مسلم = المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ)، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، ط. دار إحياء التراث العربي – بيروت.
٢١. الطبعة الأولى (٢٠١٠ م).
٢٢. الفوز الكبير في أصول التفسير، الإمام أحمد بن عبد الرحيم المعروف بـ «ولي الله الدهلوي» (المتوفى: ١١٧٦هـ)، عَرَّبَه من الفارسية: سلمان الحسيني النَّدوي، ط. دار الصحوة – القاهرة.
٢٣. كتاب العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (المتوفى: ١٧٠هـ)، ت: د. مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي، ط. دار ومكتبة الهلال.
٢٤. مجموع الفتاوى، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (المتوفى: ٧٢٨هـ)، ت: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، ط. مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية – ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

٢٥. مذكرة في أصول الفقه، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (المتوفى: ١٣٩٣هـ)، ط. مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الخامسة، ٢٠٠١ م.

٢٦. مسند أبي داود الطيالسي، أبو داود سليمان بن داود بن الجارود الطيالسي البصرى (المتوفى: ٢٠٤هـ)، ت: الدكتور محمد بن عبد المحسن التركي، ط. دار هجر - مصر، الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م.

٢٧. مسند أبي داود الطيالسي، أبو داود سليمان بن داود بن الجارود الطيالسي البصرى (المتوفى: ٢٠٤هـ)، ت: الدكتور محمد بن عبد المحسن التركي، ط. دار هجر - مصر .

٢٨. مسند الإمام أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ)، ت: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، ط. مؤسسة الرسالة - الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.

٢٩. مسند الشاميين، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (المتوفى: ٣٦٠هـ)، ت: حمدي بن عبدالمجيد السلفي، ط. مؤسسة الرسالة - بيروت، الأولى، ١٤٠٥ - ١٩٨٤.

٣٠. المصنف، أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني (المتوفى: ٢١١هـ)، ت: حبيب الرحمن الأعظمي، ط. المجلس العلمي- الهند، الثانية، ١٤٠٣.

٣١.معاني القرآن وإعرابه، لإبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج (المتوفى: ٣١١هـ)، ت: عبد الجليل عبده شلبي، ط. عالم الكتب - بيروت، الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.

٣٢.المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم، أ.د. محمد حسن حسن جبل، ط. مكتبة الآداب،

٣٣.مقاييس اللغة، لأحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: ٣٩٥هـ)، ت: عبد السلام محمد هارون، ط. دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٣٤.منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ)، ت: محمد رشاد سالم، ط. جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الأولى، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.

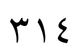
٣٥.الموافقات، إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي (المتوفى: ٧٩٠هـ)، ت: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، ط. دار ابن عفان، الأولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

٣٦.الناسخ و المنسوخ في القرآن الكريم ابن العربي، أبي بكر محمد بن عبد الله المعافري الأندلسي، ت: عبد الكبير العلوى المدغري، مكتبة الثقافة الدينية القاهرة.

٣٧. الناسخ والمنسوخ في القرآن العزيز وما فيه من الفرائض والسنن، أبو عُبيد القاسم بن سلاّم بن عبد الله الهروي البغدادي (المتوفى: ٢٢٤هـ)، ت: د. محمد بن صالح المديفر، ط. مكتبه الرشد، الثانية، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م.

٣٨. الناسخ والمنسوخ، أبو جعفر النَّحَّاس أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يونس المرادي النحوي (المتوفى: ٣٣٨هـ)، ت: د. محمد عبد السلام محمد، ط. مكتبة الفلاح - الكويت، الأولى، ١٤٠٨.

٣٩. الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه، أبو محمد مكي بن أبي طالب حَمّوش بن محمد بن مختار القيسي القيرواني ثم الأندلسي القرطبي المالكي (المتوفى: ٤٣٧هـ)، ت: مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي - جامعة الشارقة، بإشراف أ. د: الشاهد البوشيخي.



تحقيق دلالة القرآن الكريم على أشراط الساعة الكبرى

(دراسة موضوعية مقارنة)

د. خالد بن نواف بن أحمد الشوحة

الأستاذ المشارك بقسم الدراسات الإسلامية

كلية العلوم الإدارية والإنسانية - جامعة الجوف

ملخص بحث

تحقيق دلالة القرآن الكريم على أشراط الساعة الكبرى

دراسة موضوعية مقارنة

ظهرت في الآونة الأخيرة مجموعة من الأفكار التي تهدف إلى تقليص مادة الاستدلال الديني، وتحويل النصوص الغيبية إلى نظريات مادية، وكان من ضمنها إنكار أشراط الساعة الكبرى، أو تجريدها من دلالة القرآن الكريم أو السنة النبوية عليها، ولذلك جاءت هذه الدراسة لإثبات دلالة القرآن الكريم على أشراط الساعة الكبرى عموما، ومن ثم بيان وتحقيق ما استدل به المفسرون من أي القرآن الكريم عليها، وقد جعلته في تمهيد وستة مباحث، درست فيها من الأشراط: خروج الدجال، ونزول عيسى بن مريم -عليه السلام-، وخروج يأجوج ومأجوج، والدخان، وطلوع الشمس من مغربها، والدابة، مبينا مواقف المفسرين، ومحللا أقوالهم، في دراسة تحليلية نقدية مقارنة، ثم ذكرت في الخاتمة مجمل ما توصلت إليه من نتائج. والله أسأل أن يجعل عملي خالصاً لوجهه الكريم.

Proving the Major Signs of the Day of Judgment Through Qur'anic Deduction - A Comparative Objective Study

Prepared by:
Khaled N. Al-Shwhah, PhD
Associate professor, Department Islamic Studies
Al-Jouf University, Kingdom of Saudi Arabia

Abstract

In recent years, many trends have appeared with an aim of deprecating religious deduction, and rendering the texts specific to the knowledge of the unseen to mere concrete, practical theories. One of these trends is the denial of the occurrence of the Day of Judgment's signs, or the denial of its deduction from the Qur'an or the Sunnah. Therefore, this study's main objective is to prove the major signs of the Day of Judgment through Qur'anic deduction, and then to demonstrate and investigate what was quoted by the exegetes of Qur'anic verses about those signs.

The study is divided into an introduction and six sections. Some of the signs that were investigated are the emergence of the Antichrist, the descent of Jesus son of Mary (peace be upon him), the emergence of Jajuj and Majuj, the appearance of Smoke, the rising of the sun from the west, and appearance of the Beast. Furthermore, it elaborates on the positions of Qur'an exegetes and studies their theories analytically using a comparative critical method. The conclusion states the findings of the study.

I ask God to make my work purely for Him.

المقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام التامان الأكملان على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد:

فإن قضية أشراط الساعة إحدى حلقات سلسلة الغيب التي تفارقت فيها مذاهب الملل، وتنوعت في طرحها أقوال النحل، فنفاها بعضهم بالكلية، وأثبتها غيرهم. ثم اختلف المثبتون في طرق إثباتها، وكان من مصادر هذا الإثبات ما ورد في كتاب الله -تعالى- من آيات دلت عليها، فكانت موطن بحث المعتنين بكتاب الله -تعالى-، وقد أحببت أن أفرد هذا الموضوع بدراسة تفسيرية متخصصة، لأبين تحقق دلالة القرآن الكريم عليها، إثباتاً أو نفياً.

ومما شجعني على الدراسة ما أصبحنا نراه ليل نهار وما نسمعه من أولئك القوم الذين ينفون كل ما جاء به ديننا الحنيف من الغيبيات، التي يظنون أنها عوائق تحول دون تصديق الآخر وإيمانه بهذه الدين، وقد تنوعت جهودهم في هدم حقائق هذا الدين، فقوم ينكرون كل ما جاءت به النصوص الشرعية مما وراء المادة أو المشاهدة -على حد قولهم-، ومنهم الذين يقللون حجم مساحة الاستدلال الديني، فيجردون الآيات الكريمة من مدلولاتها، وآخرون علموا أنهم لن يقبل لهم مذهب، إذا اقتفوا أثر الفريقين السابقين، فلجأوا إلى إثبات الأسماء وتحريف المسميات وتأويلها بالظواهر الطبيعية المادية البحتة، فهذا ينكر الملائكة، وذاك ينفي حقيقة الجن، وثالث يفسر المعجزات بالحقائق المادية، ورابع لا يؤمن بأشراط

الساعة، وهكذا دواليك، في خطة مؤسسية محكمة، حاكت خيوطها أنامل من اجتمعوا على المكر لهذا الدين. ولسنا نلوم أولئك الذين تدعوهم عقيدتهم أن يكيدوا لديننا، ولكن اللوم كل اللوم على أولئك الذين استحوذت على نفوسهم انهزامية مقيتة نشأت نتيجة ما رأوه عند الآخر من تقدم علمي وحضاري ومدني، أبهر عقولهم، وسيطر على نفوسهم، حتى أصبحوا لا يقتنعون إلا بما جاء من الآخر، أو ما كان مشابهاً لما عنده على أقل تقدير.

وقد جعلت هذه الدراسة في تمهيد وستة مباحث وخاتمة، لمت فيها شمل ما تناثر من جمانات هذه القضية الكبّار، سائلاً المولى –جل وتقدس– أن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به عباده المسلمين، والله الهادي إلى سواء السبيل.

منهج البحث:

اعتمدت في بحثي هذا على المنهج الوصفي المقارن، حيث قمت بجمع البيانات الكافية والدقيقة حول قضية أشراط الساعة من آي القرآن الكريم، ومن كلام المفسرين الذين عرضوا لتفسيرها، ثم استخدمت المنهج التحليلي المقارن للترجيح بين الأقوال وبيان مدى انطباقها على مضمون قضية البحث، علما أن مجموع هذه المناهج يسمى في الدراسات القرآنية بالمنهج الموضوعي المقارن.

محددات الدراسة:

سأتناول في هذه الدراسة – بإذن الله – تعالى– أشراط الساعة الكبرى فقط، مبيناً ومحققاً دلالة القرآن الكريم عليها إثباتاً ونفياً. وهذا أوان الشروع في المقصود، فعلى الله –تعالى– أتوكل، وبه أستعين، وأقول:

التمهيد

مما يحسن في هذا المقام أن نمهد للموضوع بذكر تعريف أشراط الساعة وأقسامها، وأختصر ذلك بما يأتي:

المطلب الأول

تعريف أشراط الساعة

أولاً: الأشراط هي العلامات، واحدها (شَرَط)، وبه سميت شرط السلطان؛ لأنهم جعلوا لأنفسهم علامات يعرفون بها، مثل اختلاف لباسهم وبعض الأدوات التي معهم. وأشراط الشيء: أوائله. ومنه أيضاً: الاشتراط الذي يشترطه الناس بعضهم على بعض، فالشرط علامة على المشروط [(١)].

والمراد بالأشراط: العلامات التي يعقبها قيام الساعة [(٢)].

---

(١) ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر(٢/ ٤٦٠) مادة: (ش ر ط)، ، بيروت، المكتبة العلمية، ط١٣٩٩هـ. ابن منظور: لسان العرب: (٧/ ٣٢٩-٣٣٠)، مادة: (ش ر ط)، بيروت، دار صادر، ط١.

(٢) ابن حجر: فتح الباري (١٣/ ٧٩)، بيروت، دار المعرفة، ط١٣٧٩هـ.

ثانياً: الساعة: تطلق في الأصل على معنيين:

أولهما: جزء من أربعة وعشرين جزءا، هي مجموع الليل والنهار.

ثانيهما: جزء قليل من الليل أو النهار، تقول: جلست عندك ساعة من النهار، أي: وقتاً قليلاً منه [(١)]. وقال الزجاج: (معنى الساعة في كل القرآن: الوقت الذي تقوم فيه القيامة، يريد أنها ساعة خفيفة يحدث فيها أمر عظيم، فلقلة الوقت الذي تقوم فيه الساعة سماها ساعة)[(٢)].

وقال الألوسي: (وتطلق في عرف الشرع على يوم موت الخلق، وعلى يوم قيام الناس لرب العالمين...، وفسروها بالقيامة؛ ووجه إطلاقها عليه؛ لظهور أنه قدر يسير في نفسه، وإما لمجيئه بغتة، أو لأنه يدهش من يأتيهم، فيقل عندهم)[(٣)]. قال -تعالى-: ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ ﴾ [محمد: ١٨]. قال الشوكاني: (أي: أماراتها وعلاماتها)[(٤)]. وقال ابن كثير: (أي: أمارات اقترابها)[(٥)].

(١) الألوسي: روح المعاني (٢٦/ ٧٩)، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١٤١٥هـ.

(٢) نقله عنه ابن منظور: لسان العرب (٧/ ٣٢٩) مادة: (س و ع). وانظر: الأصفهاني: المفردات (ص٢٤٨)، تحقيق: صفوان عدنان، دمشق، دار الكتب الشامية، ط ١٤١٢هـ.

(٣) الألوسي: روح المعاني (٢٩/ ٧٩).

(٤) الشوكاني: فتح القدير (٥/ ٤٣).دمشق، بيروت، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، ط ١، ١٤١٤هـ.

(٥) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم (٣/ ٣٣١-٣٣٢)، تحقيق: سامي سلامة، الرياض، دار طيبة، ط ٢، ١٤٢٠هـ.

المطلب الثاني

أقسام أشراط الساعة

تنوعت تقسيمات المفسرين لأشراط الساعة، تبعاً لتنوع الاعتبار، وهي على النحو الآتي:

أولاً: باعتبار العِظم والقدر، وهي قسمان:

الأول: أشراط صغرى: وهي التي تتقدم الساعة بأزمان بعيدة متطاولة، وتكون في أصلها معتادة الوقوع، مثل: ظهور الجهل وشرب الخمر ونحوها.

الثاني: أشراط كبرى: وهي التي تقارب قيام الساعة، وتكون في ذاتها غير معتادة الوقوع، مثل: ظهور الدجال والدابة ونحو ذلك [(١)].

ثانياً: باعتبار الظهور، وهي ثلاثة أقسام:

الأول: ظهرت وانقضت، مثل بعثة النبي – صلى الله عليه وسلم –.

الثاني: ظهرت وما زالت مستمرة الظهور، مثل: اندراس العلم، وقلة الحياء والدين.

الثالث: لم تظهر بعد، مثل: ظهور الدجال والدابة.

---

(١) القرطبي: التذكرة (ص٦٢٤). تحقيق الصادق محمد إبراهيم، الرياض، دار المنهاج للنشر والتوزيع، ط ١، ١٤٢٥هـ. ابن حجر: فتح الباري (١٣/ ٤٨٥).

المبحث الأول
خروج المسيح الدجال في آخر الزمان

اختلف المفسرون قديماً وحديثاً في المسيح الدجال، هل ورد ذكره في القرآن الكريم، أم لم يرد، ومع اتفاقهم جميعاً على أنه لم يصرح باسمه في القرآن الكريم، إلا أنهم اختلفوا في الآيات التي أشارت إليه تلميحاً، وقد تتبعت كلام المفسرين والعلماء في هذه المسألة، فوجدتهم يرجعون الإشارة إلى المسيح الدجال إلى آيات عدة، سأتناولها آية آية، مبيناً تحقق دلالتها على المسيح الدجال شرطاً من أشراط الساعة الكبرى.

أولاً: أنه هو المقصود بالناس في قوله -تعالى-: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [غافر: ٥٧]. وقد ذكر ذلك ابن أبي حاتم في تفسيره[١]، والدميري[٢]، وقال القرطبي: (والمعنى: إن تعظموا عن اتباع محمد صلى الله عليه وسلم - وقالوا: إن الدجال سيخرج عن قريب، فيرد الملك إلينا، وتسير معه الأنهار، وهو آية من آيات الله، فذلك كبر لا يبلغونه، فنزلت الآية فيهم، قاله أبو العالية وغيره)[٣]. والاستعاذة تكون هنا من الدجال.

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم، (١٠/ ٣٢٦٨) الإمام الحافظ أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي، تحقيق: أسعد محمد الطيب، صيدا، المكتبة العصرية، د. ت.

(٢) حياة الحيوان الكبرى، الدميري: محمد بن موسى، (٢/ ٤٥٢)، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤٢٤هـ.

(٣) القرطبي، (١٥/ ٣٢٥) تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش الناشر: دار الكتب =

قلت: أما أن الدجال من الناس فهذا صحيح لا غبار عليه، فهو ليس جناً ولا مَلَكاً – حاشاهم -. وعلى هذا الاعتبار يكون داخلاً في مفهوم الآية، نعم، ولا يخرج معنى الآية من أن يكون خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس، ومن ضمنهم الدجال، وإذا قلنا بهذا القول فإنه يلزمنا أن ندخل الدجال في كل آية دل لفظها على الناس أو الإنسان، وعليه فلا داعي لتخصيص هذه الآية دون مثيلاتها. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن لفظ الناس وإن شمل الدجال، إلا أنه لا دلالة في الآية على خروجه في آخر الزمان، حال كونه شرطا من أشراط الساعة.

وعلى كل حال، فالذي أراه في معنى هذه الآية: أن الله -تعالى- جاء بهذه المفاضلة؛ ليقرر قدرته -تعالى- على ما ذكر في سباق الآيات ولحاقها، وأن الذي خلق السماوات والأرض لا يعجزه إرسال الرسل، ولا إحياء الموتى، ومن ثم لا يعجزه حسابهم بالجنة أو النار. والاستعاذة تكون من كل شيء يستعاذ منه، وليس من الدجال فقط.

قال الطبري: (يقول -تعالى- ذكره: لابتداع السماوات والأرض وإنشاؤها من غير شيء أعظم أيها الناس عندكم إن كنتم مستعظمي خلق الناس وإنشاءهم من غير شيء من خلق الناس، ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن خلق جميع ذلك هين على الله)[1].

=

المصرية – القاهرة، ط ٢، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤

(١) الطبري، جامع البيان (٢١/ ٤٠٥) تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م

وقال القاسمي: (وفي الآية وجهان من التأويل، أحدهما: أنها سيقت لبيان قدرته -تعالى- على معاد الأبدان يوم القيامة، بأنه خلق السماوات والأرض التي هي أكبر من خلق الناس، أفليس الذي يقدر على هذه السماوات في ارتفاعها واتساعها وعظمتها وما فيها من الكواكب الثوابت السيارات والآيات الباهرات، وهذه الأرض بما فيها من مهاد ووهاد وأوتاد وبراري وقفار وبحار وأشجار ونبات وحيوان على اختلاف أصنافها ومنافعها وأشكالها وألوانها ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ ﴾[الأحقاف: ٣٣]، ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ ﴾ [يس: ٧٧ - ٨١]

الوجه الثاني: ترهيب المشركين بأنهم غير معجزين، أي: إن يشأ يهلككم إذا خالفتم أمره، ويخلف قوما خيرا منكم، كقوله -تعالى-: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾ ﴾[محمد من الآية ٣٨]،وقوله: ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ

قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾[النساء: ١٣٣])[1]

وبهذا نخلص إلى أنه لا دلالة في هذه الآية على المسيح الدجال، فليست من آيات أشراط الساعة.

ثانياً: قوله -تعالى- في سورة الأعراف: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾[الأعراف: ١٧٥].

ثالثاً: أن الله -تعالى- أشار إليه بقوله: ﴿ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ ﴾[الكهف: ٨]. وهذا بناء على قول النبي -صلى الله عليه وسلم -: (من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال)[2]، والسبب في أن من قرأ هذه الآيات يعصمه الله -تعالى- من الدجال ـ على ما يقوله أصحاب هذا الرأي:- أن الدجال من الأشياء التي على الأرض، والتي يجعله الله -تعالى- صعيدا جرزاً)[3].

قلت: وهذا استدلال بعيد غريب، وإنما جاءت الآيات مخبرة عن الوقت الذي يجعل الله -تعالى- فيه الأرض صعيداً جرزاً تهيئة لما سيأتي بعدها من حوادث جسيمة وأخطار عظيمة، يقول الطبري: (لنختبر عبادنا

(١) القاسمي، محاسن التأويل، (٦/ ٣١٠)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٨هـ.

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب: صلاة المسافرين، باب: فضل سورة الكهف وآية الكرسي. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار إحياء التراث العربي. د. ط.

(٣) الزركشي، البرهان (٢/ ١٤٠)، تحقيق: محمد أبي الفضل، نشره: دار إحياء الكتب العربية، وصورته دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٣٧٦هـ.

أيهم أترك لها وأتبع لأمرنا ونهينا وأعمل فيها بطاعتنا) [١]. وقال الزمخشري في تفسير هذه الآية الكريمة ﴿ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيۡهَا صَعِيدٗا جُرُزًا ﴿٨﴾ ﴾ [الكهف: ٧ – ٨]: (من هذه الزينة صعيدا جرزا، يعني مثل أرض بيضاء لا نبات فيها، بعد أن كانت خضراء معشبة، في إزالة بهجته، وإماطة حسنه، وإبطال ما به كان زينة، من إماتة الحيوان وتجفيف النبات والأشجار) [٢].

وقال أبو السعود: (والمعنى لا تحزنْ بما عاينْتَ من القوم من تكذيب ما أنزلنا عليك من الكتاب، فإنا قد جعلنا ما على الأرض من فنون الأشياءِ زينةً لها؛ لنختبرَ أعمالَهم، فنجازِيهم بحسبها، وإنا لَمُفْنون جميعَ ذلك عن قريب، ومجازون لهم بحسب أعمالهم) [٣].

رابعاً: ما ذكره الزركشي من أنه وقعت الإشارة إليه تعريضاً به في قصة السامري، في قوله –تعالى–: ﴿ وَإِنَّ لَكَ مَوۡعِدٗا لَّن تُخۡلَفَهُۥ ﴾ [طه: ٩٧] [٤].

قلت: هذه الآية وردت في السامري، ووعْد الله –تعالى– بالموعد الذي يحق الله –تعالى– فيه الحق ويبطل الباطل هو وعد عام شامل لكل الخلائق دون تخصيص لا للدجال ولا لغيره، على أن سياق الآية يحتم كونها في السامري، وإن اشترك الدجال مع السامري في الكفر بالله –تعالى–، فإن غير الدجال كثيرون ممن ناصبوا الله –تعالى– العداء والطغيان والشرك.

---

(١) الطبري: جامع البيان (١٧/ ٥٩٨).

(٢) الزمخشري، الكشاف (٢/ ٧٠٤)، بيروت، دار الكتاب العربي، ط ١٤٠٧هـ.

(٣) إرشاد العقل السليم، أبو السعود (٥/ ٢٠٥)، بيروت، دار إحياء التراث العربي، د. ط.

(٤) الزركشي، (٢/ ١٤٠).

قال النسفي: (أي: لن يخلفك الله موعده الذي وعدك على الشرك والفساد في الأرض، ينجزه لك في الآخرة، بعدما عاقبك بذاك في الدنيا)[1].

خامساً: أنه تمت الإشارة إليه بالإشارة إلى الذي يخرج في زمنه، وتلتحم قصته بقصته، وهو عيسى -عليه السلام-، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴾ [الإسراء: ٤ -٨]، فإن وعده -تعالى- بالعَود هنا هو وعد بخروج عيسى -عليه السلام-، وهو الزمان نفسه الذي يخرج فيه الدجال[2].

والذي يظهر لي أن قوله -تعالى-: (وإن عدتم عدنا) تهديد لبني إسرائيل إن عادوا إلى الكفر والمعصية أن يعود الله -تعالى- عليهم بالعذاب والنكال، كما كان من شأنهم في المرتين الأوليين، وأن الآية الكريمة لم تحدد زماناً خاصاً لهذا العَود، بل هي تهديد مفتوح مبني على عودهم في الكفر

(١) مدارك التنزيل وحقائق التأويل، النسفي، (٢/ ٣٨١)، تحقيق: محي الدين ديب مستو، بيروت، دار الكلم الطيب، ط ١، ١٤١٩هـ.

(٢) الزركشي، (٢/ ١٤٠)

والإفساد، وليس بالضرورة أن يكون في الزمان الذي يخرج فيه المسيح الدجال. على أني أرى في الآية تعريضاً واضحاً بكل من يدأب دأب بني إسرائيل في هذا الفعل، فإن الله -تعالى- وإن تاب على قوم بعد توبتهم، إلا أنه لا يعجزه أن يعاقبهم مرات ومرات إذا رجعوا إلى طريقتهم الأولى.

سادساً: وهو قريب من القول السابق: أنه وقعت الإشارة إليه بالإشارة إلى خروج عيسى -عليه السلام- في قوله -تعالى-: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾ [النساء: ١٥٩]، وقوله -تعالى-: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾[الزخرف: ٦١]

قلت: نعم إن هذه الآيات - كما قدمت - دالة على خروج عيسى -عليه السلام- في آخر الزمان، إلا أنها لا تحتوي على إشارة من قريب ولا من بعيد على خروج المسيح الدجال، وإن قلنا بدلالتها على خروج الدجال بحكم اتحاد الزمن، لزمنا أن نجعلها شاملة لكل الحوادث التي تحصل في زمن عيسى -عليه السلام-، كخروج يأجوج ومأجوج، وظهور المهدي وغيرها. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن اشتراك الدجال مع عيسى -عليه السلام- في لقب المسيح، لا يجعل من الآية دليلاً على خروج الدجال، على أن ثمة خلافاً بين العلماء في سبب تسمية الدجال مسيحاً.

قال ابن حجر: (وصح أنه الذي يقتل الدجال، فاكتفى بذكر أحد الضدين عن الآخر؛ ولكونه يلقب بالمسيح كعيسى، لكن الدجال مسيح

الضلالة وعيسى مسيح الهدى)[1].

سابعاً: أن خروجه إحدى الآيات التي إذا ظهرت لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل، وذلك قوله -تعالى-: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ﴾[2].

قلت: وهذا القول هو أقرب الأقوال إلى الصواب، وفيه الحديث الذي أخرجه مسلم وغيره عن أبي هريرة أيضاً رفعه: "ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل. طلوع الشمس من مغربها، والدجال، ودابة الأرض"[3]، فيكون هذا الحديث من قبيل تفسير القرآن الكريم بالسنة النبوية.

---

١) ابن حجر، فتح الباري، (١٣/ ٩١).

٢) ابن حجر، فتح الباري، (١٣/ ٩١).

٣) أخرجه الإمام مسلم، كتاب: الإيمان، باب: الزمن الذي لا يقبل الله فيه الإيمان برقم (٢٢٧).

المبحث الثاني

نزول عيسى -عليه السلام- في آخر الزمان

ومن أشراط الساعة الكبرى خروج عيسى -عليه السلام- في زمن الدجال، وقد اختلف المفسرون في وجود دلالة القرآن الكريم على هذا الشرط، ومن ذهب إلى القول بوجود دلالات من القرآن على ذلك استدل بما يأتي:

الدليل الأول: قوله -تعالى-: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾[النساء: ١٥٩]

بعد أن نفى الله -تعالى- مقالة اليهود بأنهم قتلوا عيسى -عليه السلام- بقوله: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ﴾، أقول: بعد أن نفى مقالتهم هذه بين أنه لم يمت، وأن بعضاً من أهل الكتاب سيؤمنون به قبل موته -عليه السلام- وقد اختلفت كلمة المفسرين في هذه الآية؛ وذلك نتيجة لاختلافهم في عود الضميرين في قوله -تعالى-: (به) وقوله -تعالى-: (موته)، على النحو الآتي[(١)]:

القول الأول: أن الضميرين يعودان على عيسى -عليه السلام-، ويكون المعنى على هذا التقدير: وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى.

---

(١) ذكر جميع هذه الأقوال الآلوسي: روح المعاني (٦/ ١٩).

القول الثاني: أن الضمير الأول يعود على عيسى -عليه السلام-، والضمير الثاني يرجع لليهود والنصارى، وتقدير الآية على هذا القول: وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى قبل موت الكتابي: اليهودي أو النصراني.

القول الثالث: أن الضمير الأول لله -تعالى-.

القول الرابع: أن الضمير الأول لمحمد -عليه الصلاة والسلام-

القول الخامس: أن الضمير الأول عائد إلى عيسى -عليه السلام- والثاني عائد إلى الرفع[(١)]

قلت: أما القول الأول فهو قول جماهير المفسرين. قال ابن جرير: (وأولى الأقوال بالصحة قول من قال: تأويل ذلك: وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى)[(٢)]. وقال ابن كثير: (ولا شك أن هذا الذي قاله ابن جرير هو الصحيح؛ لأنه المقصود من سياق الأية في تقرير بطلان ما ادعته اليهود من قتل عيسى وصلبه، وتسليم من سلم لهم من النصارى الجهلة بذلك، فأخبر الله أنه لم يكن الأمر كذلك، وإنما شبه لهم، فقتلوا الشبيه، وهم لا يتبينون ذلك، ثم إنه رفعه إليه، وإنه باق حي، وإنه سينزل قبل يوم القيامة كما دلت على الأحاديث المتواترة)[(٣)].

---

(١) ابن عاشور: التحرير والتنوير (٤/ ٣٠٩)، بيروت، مؤسسة التاريخ العربي، ط ١، ١٤٢٠هـ.

(٢) الطبري: جامع البيان (٩/ ٣٨٦).

(٣) ابن كثير: تفسير القرآن (٢/ ٤٥٤).

والذي يظهر أن هذا القول هو أرجح الأقوال؛ وذلك لما يأتي:

١ـ دلالة السياق في أن الكلام في الآيات الكريمات هو على عين قضية نزول عيسى في آخر الزمان، بعد أن نفى الله -تعالى- قتله وصلبه، واختلاف الأمم في هذه المسألة، وهذا ما أشار إليه ابن كثير فيما نقلته عنه آنفاً.

٢ـ انسجام الضمائر بعضها مع بعض، قال الشنقيطي: (وإيضاح هذا أن الله -تعالى- قال: وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله، ثم قال -تعالى-: وما قتلوه، أي: عيسى، وما صلبوه أي: عيسى، ولكن شبه لهم أي: عيسى، وإن الذين اختلفوا فيه أي: عيسى، لفي شك منه أي: عيسى، ما لهم به من علم أي: عيسى، وما قتلوه يقينا أي: عيسى، بل رفعه الله، أي: عيسى، وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به أي: عيسى، قبل موته أي: عيسى، ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا أي: يكون هو - أي: عيسى - عليهم شهيدا)[1].

٣ـ أن هذا القول يتوافق مع ما في السنة المتواترة من نزول عيسى - عليه السلام- في آخر الزمان، وأنه الآن حي يرزق، لا كما قاله اليهود ومن نحى نحوهم بأنه قتل أو صلب.

٤ـ أن هذا القول (واضح لا إشكال فيه، ولا يحتاج إلى تأويل ولا تخصيص، بخلاف القول الآخر، فهو مشكل لا يكاد يصدق إلا مع

(١) الشنقيطي، أضواء البيان (٧/ ١٢٩)، بيروت، دار الفكر، ط ١٤١٥هـ.

تخصيص، والتأويلات التي يروونها فيه عن ابن عباس وغيره ظاهرة البعد؛ لأنه على القول بأن الضمير في قوله: قبل موته راجع إلى عيسى، فلا إشكال ولا خفاء، ولا حاجة إلى تأويل، ولا إلى تخصيص. وأما على القول بأنه راجع إلى الكتابي فإنه مشكل جدا بالنسبة لكل من فاجأه الموت من أهل الكتاب، كالذي يسقط من عال إلى أسفل، والذي يقطع رأسه بالسيف وهو غافل، والذي يموت في نومه ونحو ذلك، فلا يصدق هذا العموم المذكور في الآية على هذا النوع من أهل الكتاب، إلا إذا ادعى إخراجهم منه بمخصص. ولا سبيل إلى تخصيص عمومات القرآن إلا بدليل يجب الرجوع إليه من المخصصات المتصلة أو المنفصلة)[1].

الدليل الثاني: قوله -تعالى-: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾[الزخرف: ٦١]

هذه الآية جاءت في معرض الكلام على عيسى -عليه السلام-، وقد اختلف المفسرون في المراد من الضمير في قوله: (وإنه) على أقوال:

الأول: أنه عائد على عيسى -عليه السلام-.

الثاني: أنه عائد على القرآن الكريم.

الثالث: عائد على النبي محمد- صلى الله عليه وسلم -.

الرابع: أنه ضمير الشأن.

قلت: أما القول الأول فهو الذي عليه جماهير المفسرين، وهو المشهور

(١) الشنقيطي، أضواء البيان (٧/ ١٣١).

عن ابن عباس - رضي الله عنهما- حيث قال: (هو خروج عيسى بن مريم -عليه السلام- قبل يوم القيامة)[١].

وقد رجحه الطبري[٢] والزمخشري[٣]، وأبو حيان[٤]، وابن كثير[٥]،وأبو السعود[٦] والألوسي[٧] وغيرهم.

قال أبو السعود: (وإنه لعلم للساعة أي: إنه بنزوله شرط من أشراطها)[٨]. وتعبير المفسرين بالنزول لا يخالف تعبير ابن عباس بالخروج؛ فالنزول هو كيفية خروج عيسى -عليه السلام- على اعتبار ما نعتقده فيه أن الله - تعالى- رفعه. على أن بعض المفسرين عمم أمر الضمير ولم يقتصر على النزول بل تعداه إلى الطريقة التي خلق بها عيسى -عليه السلام-، وإلى إحيائه للموتى وإلى المعجزات التي كانت تظهر على يده، قال الألوسي: أي: إنه بنزوله شرط من أشراطها، أو بحدوثه بغير أب، أو بإحيائه الموتى،

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٤/ ٣٢٩) برقم (٢٩٢١)، وقال محققه أحمد شاكر: (وإسناده صحيح).

والحاكم في المستدرك (٢/ ٢٥٤) وقال: (صحيح الإسناد، ولم يخرجاه) ووافقه الذهبي.

(٢) الطبري، جامع البيان (٢٠/ ٩٥)

(٣) الزمخشري، الكشاف (٤/ ٢٦١)

(٤) أبو حيان، البحر المحيط (٩/ ٣٨٦)، تحقيق: صدقي محمد جميل، بيروت، دار الفكر، ط١٤٢٠هـ.

(٥) ابن كثير، تفسير القرآن (٧/ ٢٢٢-٢٢٣).

(٦) أبو السعود، إرشاد العقل السليم (٨/ ٥٢-٥٣).

(٧) الألوسي، روح المعاني (٢٥/ ١٤٧).

(٨) أبو السعود، إرشاد العقل السليم (٨/ ٢٢٢).

دليل على صحة البعث الذي هو معظم ما ينكره الكفرة من الأمور الواقعة في الساعة) [(١)].

والذي أراه أن النزول هو أوفق هذه المعاني والعائدات لأنه هو الذي يقارن الساعة ويدل على وقوعها بها يحقق معنى الشرط والعلامة، وليست تلك المعجزات التي ابتعد زمانها عن زمن وقوع الساعة، أضف إلى ذلك اشتراك جميع الأنبياء عليهم السلام في إجراء المعجزات على أيديهم.

وقد صرحت الأدلة الكثيرة من القرآن والسنة على نزول عيسى -عليه السلام- في آخر الزمان وأن هذا النزول من أشراطها الكبرى، ومنه ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي أنه قال: "والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الحرب، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، حتى تكون السجدة الواحدة، خيرا من الدنيا وما فيها"[(٢)]. وقال ابن كثير: (تواترت الأحاديث عن رسول الله أنه أخبر بنزول عيسى -عليه السلام- قبل يوم القيامة إماماً عادلاً وحكماً مقسطاً) [(٣)].

وقال الغماري: (وقد ثبت القول بنزول عيسى -عليه السلام-

---

(١) الألوسي، روح المعاني (١٣/ ٩٤).

(٢) أخرجه البخاري في ك/ أحاديث الأنبياء، باب: نزول عيسى عليه السلام، (٦/ ٤٩٠-٤٩١) مع الفتح.

ومسلم في باب: نزول عيسى ابن مريم عليه السلام (٢/ ١٨٩-١٩٠) مع شرح النووي.

(٣) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٢٣).

عن غير واحد من الصحابة والتابعين وأتباعهم، والأئمة والعلماء من سائر المذاهب على مر الزمان، إلى وقتنا هذا،...، تواتر هذا تواتراً لا شك فيه)[(١)].

وقال أبو الحسن الأشعري: (الإقرار بالله وملائكته وكتبه ورسله وما جاء من عند الله وما رواه الثقات عن رسول الله، لا يردون من ذلك شيئاً... ويصدقون بخروج الدجال وأن عيسى يقتله)[(٢)].

وممن رجح القول الثاني وهو أن الضمير عائد إلى القرآن الكريم ابن عاشور، حيث يرى أن هذا ثناء على القرآن الكريم استمر متصلا من أول السورة آخذا بعضه بحجز بعض متخللا بالمعترضات والمستطردات، ومتخلصا إلى هذا الثناء الأخير بأن القرآن أعلم الناس بوقوع الساعة. ويفسره ما تقدم من قوله: ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ﴾ [الزخرف: ٤٣] ويبينه قوله بعده ﴿ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الزخرف:٤٣]، على أن ورود مثل هذا الضمير في القرآن مرادا به القرآن كثير معلوم من غير معاد فضلا على وجود معاده.

ومعنى تحقيق أن القرآن علم للساعة: أنه جاء بالدين الخاتم للشرائع فلم يبق بعد مجيء القرآن إلا انتظار انتهاء العالم. وهذا معنى ما روي من قول الرسول -صلى الله عليه وسلم-: "بعثت أنا والساعة كهاتين، وقرن

(١) الغماري: عقيدة أهل الإسلام في نزول عيسى عليه السلام (١٢).

(٢) أبو الحسن الأشعري: مقالات الإسلاميين (ص ٢٩٥)، تحقيق: هلموت ريتر، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط ٣، د. ت.

بين السبابة والوسطى مشيرا إليهما"، والمشابهة في عدم الفصل بينهما)[1].

ورد رحمه قول الجمهور، فقال: (وعن ابن عباس ومجاهد وقتادة أن الضمير لعيسى، وتأولوه بأن نزول عيسى علامة الساعة، أي: سبب علم بالساعة، أي: بقربها، وهو تأويل بعيد، فإن تقدير مضاف وهو نزول لا دليل عليه، ويناكده إظهار اسم عيسى في قوله: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ ﴾ إلخ. ويجوز عندي أن يكون ضمير {إنه} ضمير شأن، أي: أن الأمر المهم لعلم الناس بوقوع الساعة)[2].

وأقول: في كلام ابن عاشور نظرا كبيراً، وذلك من وجوه:

الأول: أن اللغة لا تمنع من تقدير مضافات، والقرآن جار على أسلوب العرب في التخاطب. قال الشنقيطي: (غاية ما في ذلك أن الكلام على حذف مضاف، والتقدير: وإنه لذو علم للساعة، أي: وإنه لصاحب إعلام الناس بقرب مجيئها، لكونه علامة لذلك، وحذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه- كثير في القرآن وفي كلام العرب،...وهذا أحد الوجهين اللذين وجه بهما علماء العربية النعت بالمصدر، كقولك: زيد كرم وعمرو عدل، أي: ذو كرم وذو عدل، كما قال -تعالى-: ﴿ وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ [الطلاق: ٢]) [3].

(١) ابن عاشور: التحرير والتنوير (٢٥/ ٢٨٠). والحديث أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب: تفسير سورة النازعات، برقم (٤٦٥٢).

(٢) المصدر السابق

(٣) الشنقيطي، أضواء البيان (٧/ ١٢٩) بتصرف.

الثاني: أن يكون هذا من قبيل إطلاق المسبب وإرادة السبب، قال الشنقيطي: (وإطلاق علم الساعة على نفس عيسى -جار على أمرين، كلاهما أسلوب عربي معروف. أحدهما: أن نزول عيسى المذكور لما كان علامة لقربها، كانت تلك العلامة سببا لعلم قربها، فأطلق في الآية المسبب وأريد السبب. وإطلاق المسبب وإرادة السبب - أسلوب عربي معروف في القرآن وفي كلام العرب. ومن أمثلته في القرآن قوله -تعالى-: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾ [غافر: ١٣]. فالرزق مسبب عن المطر، والمطر سببه، فأطلق المسبب الذي هو الرزق وأريد سببه الذي هو المطر، للملابسة القوية التي بين السبب والمسبب) [(١)].

ومعلوم أن البلاغيين ومن وافقهم يزعمون أن مثل ذلك من نوع ما يسمونه المجاز المرسل [(٢)]، وأن الملابسة بين السبب والمسبب من علاقات المجاز المرسل عندهم).

ومما يجدر ذكره في هذا المقام أن كثيرا من المفسرين استدلوا بقراءة أخرى للآية وهي (لَعَلَمٌ) بفتح العين واللام، قال القرطبي: (أي: علامة وأمارة على قيام الساعة، وهذه قراءة مروية عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما

(١) أضواء البيان (٧/ ١٢٨-١٢٩) بتصرف.

(٢) استعمال الكلمة في غير معناها الأصلي لعلاقة غير المشابهة، مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي، انظر: الإيضاح في علوم البلاغة، القزويني (١/ ٢٦٠)، والبلاغة الواضحة: علي الجارم (١/ ١٣٩)

من أئمة التفسير)[1].

قلت: هذه القراءة مروية عن ابن عباس وأبي هريرة وأبي مالك الغفاري وزيد بن علي وقتادة ومجاهد والضحاك وغيرهم، وثمة قراءة أخرى أشار إليها الراغب، وهي (للعلم) معرفاً بفتحتين، وقال: (وهي قراءة شاذة قرأ بها الأعمش)[2]. وأقول: الصحيح في هاتين القراءتين أنهما قراءتان شاذتان، وليستا من السبع المتواترات ولا من العشر، ولذلك لا يجوز اعتمادهما خاصة في مثل هذا المقام العقدي الغيبي، وإنما يعتبران من قبيل التفسير والاجتهاد لا من قبيل القراءة.

---

١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ١٠٥)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم إطفيش، القاهرة، دار الكتب المصرية، ط ٢، ١٣٨٤ هـ.

٢) الراغب، مفردات القرآن (ص ٥٨١). انظر: إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر، شهاب الدين الدمياطي (١/ ٤٩٦). وتفسير الطبري (٢١/ ٦٣٢)، وتفسير ابن كثير (٢/ ٤٦٥).

المبحث الثالث

يأجوج ومأجوج

وردت قصة يأجوج ومأجوج في القرآن الكريم في موضعين اثنين، أولهما: سورة الكهف، والثاني: سورة الأنبياء. وبالنظر فيما ورد عنهم وجدت أن موضوع الآيات ينقسم إلى ثلاثة أزمنة:

الزمن الأول: قصتهم مع القوم الذين وصفهم القرآن بأنهم لا يكادون يفقهون قولاً، ثم بناء السد عليهم من قبل ذي القرنين. وهذا من قوله -تعالى-: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ ﴾[الكهف: ٩٣ – ٩٦].

الزمن الثاني: بقاؤهم في السد وانحباسهم عن العالم، ويدل عليه قوله -تعالى-: ﴿ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴾[الكهف: ٩٧].

الزمن الثالث: خروجهم من هذا السد، ويدل عليه قوله -تعالى-: ﴿ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ ﴾[الكهف: ٩٨-٩٩]. ويدل عليه أيضا قوله -تعالى-: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾[الأنبياء: ٩٦].

أما الزمن الأول والزمن الثاني فليسا من أشراط الساعة الكبرى؛ لعدم تحقق انطباق شروط مسمى أشراط الساعة الكبرى عليهما. مع أنهما من الأدلة القوية على صحة رسالة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، فهي أمور غيبية لا تعلم إلا بالوحي. وأما الزمن الثالث فهو الذي يدور عليه رحى البحث، وهو الذي يتحقق فيه مسمى الشرط، قال الطبري: (وقوله: (فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء) يقول: فإذا جاء وعد ربي الذي جعله ميقاتًا لظهور هذه الأمة وخروجها من وراء هذا الردم لهم. (جعله دكاء)، يقول: سواه بالأرض، فألزقه بها، من قولهم: ناقة دكاء: مستوية الظهر لا سنام لها. وإنما معنى الكلام: جعله مدكوكا، فقيل: دكاء)[1].

وقال ابن كثير: (وقوله: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ [الكهف: ٩٩] أي: الناس يومئذ أي: يوم يدك هذا السد ويخرج هؤلاء فيموجون في الناس ويفسدون على الناس أموالهم ويتلفون أشياءهم، وهكذا قال السدي في قوله: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ [الكهف: ٩٩] قال: ذاك حين يخرجون على الناس. وهذا كله قبل يوم القيامة وبعد الدجال، كما سيأتي بيانه – إن شاء الله –تعالى– عند قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ۝٩٦﴾ [الأنبياء: ٩٦]، وهكذا قال هاهنا: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ [الكهف: ٩٩] قال ابن زيد في قوله: ﴿وَتَرَكْنَا

---

(١) جامع البيان، الطبري، (١٨،١١٨)

﴿بَعۡضَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ يَمُوجُ فِي بَعۡضٖ﴾ قال: هذا أول يوم القيامة، ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ على أثر ذلك ﴿فَجَمَعۡنَٰهُمۡ جَمۡعٗا﴾[1].

قال ابن عادل: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي﴾ أي: القيامة. وقيل: وقت خروجهم)[2]. وقال الشوكاني: (فإذا جاء وعد ربي، أي: أجل ربي أن يخرجوا منه، وقيل: هو مصدر بمعنى المفعول، وهو يوم القيامة)[3].

وقال الألوسي: (والمراد من وقت ذلك يوم القيامة، وقيل: وقت خروج يأجوج ومأجوج. وتعقب بأنه لا يساعده النظم الكريم. والمراد بمجيئه: ما ينتظم مجيئه ومجيء مباديه من خروجهم وخروج الدجال ونزول عيسى -عليه السلام- ونحو ذلك لا دنو وقوعه فقط، كما قال الزمخشري وغيره، فإن بعض الأمور التي ستحكى تقع بعد مجيئه حتما) [4].

وبهذا نحصر أقوال المفسرين في قوله -تعالى-: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي﴾ في الآتي:

الأول: أنه وقت خروج يأجوج ومأجوج في آخر الزمان.

الثاني: أنه يوم القيامة.

قلت: والظاهر أنه لا منافرة بين هذين القولين، وذلك لأن قيام

---

(١) ابن كثير، (٥/ ١٩٩).

(٢) ابن عادل، اللباب في علوم الك/ (١٢/ ٥٦٨)، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٩هـ.

(٣) فتح القدير، الشوكاني(٣/ ٣٧٠).

(٤) الألوسي، روح المعاني (٨/ ٣٦٣).

الساعة تابع لحدوث أشراطها الكبرى ومتوقف عليه، فإذا ظهرت العلامات قامت القيامة؛ والمعنى على هذا الجمع بين الأقوال: أنه إذا أراد الله -تعالى- خروج يأجوج ومأجوج في آخر الزمان جعل السد دكاء. أو نقول: إذا أراد الله -تعالى- أن يقيم القيامة أظهر أشراطها الكبرى. وبهذا يكون دك السد مقدمة من المقدمات التي تسبق يوم القيامة.

ومع هذا الجمع إلا أني أرى أن تفسيرها بوقت خروج يأجوج ومأجوج أنسب وأوفق بالمقام؛ لأنه هو الحدث المترتب مباشرة على اندكاك السد.

الثالث: أنه تحقق بخروج بعض الأمم. كالتتار والمغول مثلاً، يقول سيد قطب: (وبعد، فمن يأجوج ومأجوج؟ وأين هم الآن؟ وماذا كان من أمرهم وماذا سيكون! كل هذه أسئلة تصعب الإجابة عليها على وجه التحقيق، فنحن لا نعرف عنهم إلا ما ورد في القرآن، وفي بعض الأثر الصحيح. والقرآن يذكر في هذا الموضع ما حكاه من قول ذي القرنين: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا ﴿٩٨﴾ ﴾ [الكهف: ٩٧ – ١٠١]، وهذا النص لا يحدد زمانا. ووعد الله بمعنى وعده بدك السد، ربما يكون قد جاء منذ أن هجم التتار، وانساحوا في الأرض، ودمروا الممالك تدميرا.

وفي موضع آخر في سورة الأنبياء: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الأنبياء: ٩٦]، وهذا النص كذلك لا يحدد زمانا معينا لخروج يأجوج ومأجوج فاقتراب الوعد الحق بمعنى اقتراب الساعة قد وقع منذ زمن الرسول – صلى الله عليه وسلم –

فجاء في القرآن: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾، والزمان في الحساب الإلهي غيره في حساب البشر. فقد تمر بين اقتراب الساعة ووقوعها ملايين السنين أو القرون، يراها البشر طويلة مديدة، وهي عند الله ومضة قصيرة.

وإذن فمن الجائز أن يكون السد قد فتح في الفترة ما بين: (اقتربت الساعة) ويومنا هذا. وتكون غارات المغول والتتار التي اجتاحت الشرق هي انسياح يأجوج ومأجوج.

وهناك حديث صحيح رواه الإمام أحمد عن سفيان الثوري عن عروة، عن زينب بنت أبي سلمة، عن حبيبة بنت أم حبيبة بنت أبي سفيان، عن أمها حبيبة، عن زينب بنت جحش - زوج النبي صلى الله عليه وسلم - قالت: استيقظ الرسول - صلى الله عليه وسلم - من نومه وهو محمر الوجه وهو يقول: «ويل للعرب من شر قد اقترب. فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا» وحلق (بإصبعيه السبابة والإبهام).قلت: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: "نعم إذا كثر الخبيث".

وقد كانت هذه الرؤيا منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا ونصف قرن. وقد وقعت غارات التتار بعدها، ودمرت ملك العرب بتدمير الخلافة العباسية على يد هولاكو في خلافة المستعصم آخر ملوك العباسيين. وقد يكون هذا تعبير رؤيا الرسول - صلى الله عليه وسلم - وعلم ذلك عند الله. وكل ما نقوله ترجيح لا يقين) ا. هـ[١].

---

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن (٤/ ٢٢٩٤). القاهرة، دار الشروق، د. ط.

قلت: والذي يظهر لي أن الآيات الكريمة دلت على ما يأتي:

ـ أن القوم الذين كانوا يعيشون بين السدين، وكان من صفتهم أنهم كانوا لا يفقهون قولاً، طلبوا من ذي القرنين أن يبني بينهم وبين يأجوج ومأجوج سداً.

ـ أن يأجوج ومأجوج كانوا مفسدين في ذلك الزمان.

ـ أن ذا القرنين بنى عليهم سداً من زبر الحديد والقطر.

ـ أن يأجوج ومأجوج لم يقدروا على أن يظهروا على السد، ولا على نقبه.

ـ أن ذلك العجز من يأجوج ومأجوج سيبقى إلى أن يأتي وعد الله، فإذا جاء وعد الله جعل السد دكاء، وأن هذا كائن لا محالة.

ـ أن يأجوج ومأجوج سينسلون من حدب إذا فتح الردم الذي بناه ذو القرنين عليهم.

ـ والصحيح - والله أعلم – أن الآيات وحدها لم تحدد ذلك الزمن بأي: من المحددات اللهم إلا أنه بعد مجيء وعد الله -تعالى-، ووعد الله -تعالى- من الممكن أن يتحقق في أي زمن من الأزمان.

هذا هو ما أفادته الآيات إلى قوله -تعالى-: ﴿ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾ [الكهف، ٩٨]. ولو وقف الأمر عند هذه الأدلة لكان للقوم الذين قضوا بخروج يأجوج ومأجوج قبل هذا الزمان الذي نحن فيه، أقول: لكان لهم منزع قوي ووجهة نظر وجيهة. ولكن الأمر أبعد من هذا وأوسع؛ فإن قضية يأجوج ومأجوج ليست متوقفة على هذه الأدلة فحسب، بل إن نصوصاً أخرى من السنة الصحيحة شرحت أمرهم، وبينت بالضبط زمان

خروجهم، وكان شيء منها اقتباساً صريحاً من رسول الله –صلى الله عليه وسلم– لنص القرآن الكريم؛ ليكون ذلك من باب تفسير الكريم بالسنة النبوية الصحيحة، وكما هو معلوم أن كثيراً من الآيات الكريمة متوقف فهمها وبيانها على ما في السنة الصحيحة، وأرى أن أمر يأجوج ومأجوج من الأمور التي تعاضدت فيها نصوص القرآن الكريم ونصوص السنة النبوية الصحيحة، وأن السنة قد صرحت بما ألمحت إليه الآيات الكريمة. وإليك تفصيل هذا:

أولاً: قوله –تعالى–: ﴿ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ﴾ [الكهف٩٩، ١٠٠]، فإنه لا مانع أن يكون المراد بالبعض هنا يأجوج ومأجوج عندما يفتح السد عليهم يموجون موجاً من كثرتهم وتدافعهم. ثم يتبع الله –تعالى– ذلك بنفخ الصور، بناء على أن خروج يأجوج ومأجوج وما يحصل معهم يعتبر من علامات الساعة الكبرى، التي تعقبها الساعة مباشرة.

ثانياً: صرحت الأحاديث الصحيحة بما لا مجال للشك فيه أن خروج يأجوج ومأجوج يكون في زمن نزول عيسى –عليه السلام–، وقد ورد ذلك في حديث النواس بن سمعان، حيث قال: (ذكر رسول الله –صلى الله عليه وسلم– الدجال ذات غداة فخفض فيه ورفع، حتى ظنناه في طائفة النخل، فلما رحنا إليه عرف ذلك فينا، فقال: «ما شأنكم؟» قلنا: يا رسول الله ذكرت الدجال غداة فخفضت فيه ورفعت حتى ظنناه في طائفة النخل. فقال: «غير الدجال أخوفني عليكم، إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه

دونكم وإن يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مسلم، إنه شاب قطط [شديد جعودة الشعر] (١) عينه طافئة كأنى أشبهه بعبد العزى بن قطن، فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف، إنه خارج خلة بين الشأم والعراق فعاث يمينا وعاث شمالا يا عباد الله فاثبتوا» قلنا: يا رسول الله وما لبثه في الأرض. قال: «أربعون يوما يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة وسائر أيامه كأيامكم» قلنا: يا رسول الله فذلك اليوم الذى كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم، قال: «لا اقدروا له قدره» قلنا: يا رسول الله، وما إسراعه في الأرض. قال: «كالغيث استدبرته الريح فيأتي على القوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له فيأمر السماء فتمطر والأرض فتنبت فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذرا وأسبغه ضروعا وأمده خواصر، ثم يأتي القوم فيدعوهم، فيردون عليه قوله، فينصرف عنهم، فيصبحون ممحلين ليس بأيديهم شيء من أموالهم، ويمر بالخربة فيقول لها: أخرجي كنوزك. فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل [ذكور النخل، جماعة النحل]، ثم يدعو رجلا ممتلئا شبابا، فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض ثم يدعوه فيقبل ويتهلل وجهه يضحك، فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم، فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين [ثوبين مصبوغين بورس ثم زعفران]، واضعا كفيه على أجنحة ملكين إذا طأطأ رأسه قطر وإذا رفعه تحدر منه جمان [حبات من

(١) جميع هذه الشرح للكلمات الغريبة من شرح النووي على مسلم (٩/ ٣٢٧)، وقوله: طافئة: بيان عن حالته وأنه أعور

الفضة...والمراد يتحدر منه الماء] كاللؤلؤ، فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه فيطلبه حتى يدركه بباب لد فيقتله، ثم يأتي عيسى ابن مريم قوم قد عصمهم الله منه فيمسح عن وجوههم ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة، فبينما هو كذلك إذ أوحى الله إلى عيسى: إني قد أخرجت عبادا لي لا يدان لأحد بقتالهم فحرز عبادي إلى الطور. ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون، فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها ويمر آخرهم فيقولون لقد كان بهذه مرة ماء. ويحصر نبي الله عيسى وأصحابه، حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيرا من مائة دينار لأحدكم اليوم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه فيرسل الله عليهم النغف [دود يكون في أنوف الإبل] في رقابهم فيصبحون فرسى [قتلى] كموت نفس واحدة ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملأه زهمهم [دسمهم] ونتنهم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله، فيرسل الله طيرا كأعناق البخت، فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله، ثم يرسل الله مطرا لا يكن منه بيت مدر [الطين الصلب] ولا وبر، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلفة ثم يقال للأرض أنبتي ثمرتك وردى بركتك. فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة ويستظلون بقحفها ويبارك في الرسل حتى أن اللقحة من الإبل لتكفي الفئام [الفخذ] من الناس واللقحة من البقر لتكفي القبيلة من الناس واللقحة من الغنم لتكفي الفخذ من الناس، فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحا طيبة فتأخذهم حت آباطهم فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم،

ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر فعليهم تقوم الساعة)[1].

ثالثاً: أن في حديث النواس بن سمعان دليلًا استئناسيا، وفيه اقتباس الرسول -صلى الله عليه وسلم- من آية الأنبياء، حيث قال: (فبينما هو كذلك إذ أوحى الله إلى عيسى إني قد أخرجت عبادا لى لا يدان لأحد بقتالهم فحرز عبادي إلى الطور. ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية....)، فقوله: ﴿ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الأنبياء: ٩٦] تفسير لآية الأنبياء.

وأما ما ذكره بعض أهل العلم جزما وبعضهم تخمينا من أنهم التتار أو المغول أو الصين ونحوهم فهو قول غير صحيح، ودلالة عدم صحته ما يأتي:

أولاً: في حديث النواس بن سمعان أنهم يشربون بحيرة طبرية، وها هي البحيرة ما زالت قائمة وماؤها فيها لم يشرب.

وأنبه إلى أنه يجب حمل الشرب هنا على حقيقته ولا يجوز تأويله أبدا ولا استبعاده، ومن صدق بخروج قوم بهذه الأعداد لم يصعب عليه أن يصدق بكمية الماء التي يشربونها.

ثانياً: وفي الحديث أيضا أن خروجهم يكون في زمن عيسى -عليه السلام-، وعيسى -عليه السلام- لم ينزل إلى الآن.

ثالثاً: وفي الأحاديث أيضاً أنهم يموتون كلهم، وهاهم أهل الصين

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: ذكر الدجال وصفته وما معه، برقم (٥٢٢٨).

والمغول ما زالوا يزيدون ويتكاثرون.

هذا وغيره من الردود الكثيرة الدالة على أن يأجوج ومأجوج لم يخرجوا حتى الآن، وأنهم سيخرجون في زمن عيسى -عليه السلام-، وأنهم شرط من أشراط الساعة الكبرى كما أخبر بذلك رسول الله -صلى الله عليه وسلم-

وعليه، وجمعاً بين ما قاله الله -تعالى- عنهم في كتابه الكريم وبين ما فسره وبينه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في سنته الصحيحة، يكون ذلك من باب تفسير القرآن بالسنة الصحيحة، والشأن في ذلك كبيان السنة لأحكام الصلاة والصيام والحج والطهارة وسائر ما أشير إليه في القرآن الكريم مجرد إشارة وفسرته السنة.

المبحث الرابع: الدخان

ومن أشراط الساعة الكبرى التي وقع الخلاف بين المفسرين في دلالة القرآن الكريم عليها الدخان، وبالنظر إلى كلام المفسرين والباحثين في أشراط الساعة، لم أجد خلافهم يتعدى أكثر من موطن واحد من القرآن الكريم في الدلالة على هذا الشرط، وهو قوله -تعالى-: ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [الدخان: ١٠-١٣].

وقبل أن أشرع في تحقيق دلالة القرآن الكريم على هذا الشرط أبين أن أهل السنة والجماعة لا يختلفون إطلاقاً في الإيمان بشرط من أشراط الساعة الكبرى سيقع، هو الدخان، وذلك لكثرة الأحاديث التي تثبت هذا الشرط، ومنها: أن حذيفة بن أسيد الغفاري قال: اطلع النبي -صلى الله عليه وسلم- علينا ونحن نتذاكر فقال «ما تذاكرون؟» قالوا نذكر الساعة. قال «إنها لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات» فذكر الدخان والدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى ابن مريم -صلى الله عليه وسلم- ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم[(١)]

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: الآيات التي =

وعن أبي هريرة أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: «بادروا بالأعمال ستا: طلوع الشمس من مغربها أو الدخان أو الدجال أو الدابة أو خاصة أحدكم أو أمر العامة»[١] فأنا لا أبحث الآن في إثبات هذه القضية، بل في إثبات تحقق دلالة القرآن الكريم عليها.

وقد اختلف المفسرون –رحمهم الله– في الدخان المذكور في هذه الآية، على النحو الآتي:

القول الأول: أن الدخان المذكور في هذه الآية وقع، وذلك لما دعا رسول الله –صلى الله عليه وسلم– على قومه أن يعاقبهم بسنين كسني يوسف –عليه السلام–، فأخذتهم سنة حتى هلكوا فيها، وأكلوا الميتة والعظام، وصار الواحد منهم يرى ما بين السماء والأرض كهيئة الدخان. وهذا هو قول الصحابي عبد الله بن مسعود، ورجحه شيخ المفسرين الطبري وغيره[٢].

وقد استدلوا على ذلك بما يأتي:

أولاً: ما جاء في حديث مسروق بن الأجدع – رحمه الله – قال: « كنا جلوسا عند عبد الله بن مسعود فأتاه رجل فقال: يا أبا عبد الرحمن، إن قاصا يقص ويزعم أن آية الدخان تجيء فتأخذ بأنفاس الكفار، ويأخذ

=

تكون قبل الساعة، برقم (٥١٦٢).

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: في بقية أحاديث الدجال، برقم (٥٢٤٠).

(٢) الطبري، جامع البيان (٢١/ ١٣).

المؤمنين منه كهيئة الزكام " فقال عبد الله، وجلس وهو غضبان: "يا أيها الناس اتقوا الله، من علم منكم شيئا فليقل بما يعلم، ومن لم يعلم فليقل: الله أعلم، فإنه أعلم لأحدكم أن يقول لما لا يعلم: الله أعلم، فإن الله -عز وجل- قال لنبيه -صلى الله عليه وسلم-: ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [٨٦، ص]، إن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لما رأى من الناس إدبارا قال لهم: "اللهم سبع كسبع يوسف"، قال: فأخذتهم سنة حصت كل شيء حتى أكلوا الجلود والميتة من الجوعِ، وينظر إلى السماء أحدهم فيرى كهيئة الدخان)[1].

ثانياً: وبما روي عن ابن مسعود أيضاً أنه قال: « خمس قد مضين: اللزام والروم والبطشة والقمر والدخان »(٢).

القول الثاني: أن هذا الدخان لم يأت بعد، بل هو شرط من أشراط الساعة الكبرى، وهو قول ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ، ورجحه ابن كثير[3].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: ك/ التفسير (٦/ ٤٠)، ومسلم في صحيحه: ك/ صفات المنافقات: (٤/ ٢١٥٦).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: ك/ التفسير، (٦/ ٤١)، ومسلم في صحيحه: ك/ صفات المنافقين (٤/ ٢١٥٧). وما ذكره فالروم إشارة إلى قوله تعالى: «الم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون»[الروم:١-٣]. والبطشة إشارة إلى قوله تعالى: «يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون» [الدخان:١٦]، والقمر إشارة إلى قوله تعالى: « اقتربت الساعة وانشق القمر » [القمر:١].

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن (٧/ ٢٤٧).

القول الثالث: أنهما دخانان، ظهر الأول في زمنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ، والثاني منتظر لم يظهر بعد[١].

وقال الإمام ابن جرير الطبري -رحمه الله-: " وبعد. فإنه غير منكر أن يكون أحل بالكفار الذين توعدهم بهذا الوعيد ما توعدهم، ويكون محلا فيما يستأنف بعد بآخرين دخانا على ما جاءت به الأخبار عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عندنا كذلك؛ لأن الأخبار عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قد تظاهرت بأن ذلك كائن، فإنه قد كان ما روى عنه عبد الله بن مسعود، فكلا الخبرين اللذين رويا عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- صحيح)[٢]. وقال النووي -رحمه الله تعالى-: (ويحتمل أنهما دخانان للجمع بين هذه الآثار)[٣].

والذي يظهر لي أن القول الثاني هو الأرجح؛ للأمور الآتية:

أولا: أن الله -تعالى- أخبر عن مصدر هذا الدخان وهو السماء، وإنما كان الذي رأوه من قبل أنفسهم.

ثانياً: أن الله -تعالى- وصف الدخان بأنه مبين، وهذا يعني أنه ظاهر لكل الناس لا لبعضهم فقط.

ثالثاً: أن هذا الدخان يأتي على جميع الناس لا بعضهم، وهذا هو

---

(١) القرطبي: التذكرة (٢/ ٣٢٧).

(٢) الطبري، جامع البيان (٢٢/ ١٩).

(٣) النووي: المنهاج شرح صحيح مسلم (١٨/ ٢٧)، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط ٢، ١٣٩٢هـ.

المتبادر والظاهر، وأما على القول الأول فإننا نجعل (الناس) من العام المخصوص، ومعلوم في القواعد الأصولية أننا لا نعتبر اللفظ من العام المخصوص إلا بدليل ظاهر، يدخل ما خصصناه به، ويخرجه ما عداه من اللفظ.

رابعاً: أن ابن مسعود يقول في روايته: (وينظر إلى السماء أحدهم فيرى كهيئة الدخان)، ففي هذه الرواية تصريح بأن ما يرونه إنما هو شبيه الدخان، وهذا ينفي أصلاً وجود الدخان، ومعنى رواية ابن مسعود: أنهم حل بهم القحط، فجاعوا، واشتد جوعهم، حتى أصبحوا يتخيلون شيئاً يشبه الدخان، وهو قوله: (كهيئة الدخان)؛ وبناء على هذا الكلام جعل كثير من المفسرين ممن وافقوا ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- من قبيل المجاز، والأولى أن يحمل الكلام على الحقيقة، ولا نلجأ إلى المجاز إلا عند تعذر الأخذ بالحقيقة[1].

خامساً: أن الحالة التي حصلت معهم ليست خاصة بهم، بل هي حالة يثبت عالم الطب وعالم وظائف الجسم أنها تحصل مع كثير من الناس إذا اختل نظامهم تركوا الطعام مدة من الزمن، أو إذا اختل نظامهم الغذائي.

سادساً: أما قوله -تعالى-: ﴿ رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الدخان: ١٢].

(١) هذا على رأي من يقبل وقوع المجاز في القرآن الكريم.

فالمراد منه أحد أمرين: أولهما: ادعاء الإيمان زمن التكلم، وهذا كذب وافتراء منهم؛ فلو كانوا مؤمنين ما وقع العذاب عليه أساساً. وثانيهما: وعد منهم بأنهم سيؤمنون إن كشف عنهم العذاب، فلا دلالة في هذه الآية على كون هذا العذاب في الدنيا أو في الآخرة، فهم كاذبون في ذلك، سواء أقالوه في الدنيا أم في الآخرة، فهم يقولون مثل هذا الكلام في كل موقف يشعرون فيه بأنهم هالكون معذبون، ثم يعودون لما كانوا عليه من الكفر والضلال، ومصداقه قوله -تعالى-: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام: ٢٨].

وبهذا التحقيق يترجح لدي أن القول الثاني هو أقرب الأقوال إلى الصواب، وبناء عليه أستطيع أن أضيف هذا الشرط في سلك أشراط الساعة الكبرى التي دل القرآن الكريم عليها.

المبحث الخامس
طلوع الشمس من مغربها

ومن أشراط الساعة الكبرى التي عرض لها المفسرون، طلوع الشمس من مغربها، وكان ذلك عند قوله -تعالى-: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ [الأنعام: ١٥٨]، وقد اختلفوا -رحمهم الله تعالى- في المراد من قوله -تعالى-: (بعض آيات ربك)، وقد تحصل من كلامهم أربعة أقوال:

القول الأول: أن المراد بالبعض هنا هو عموم أشراط الساعة. قال الزمخشري: (وبعض الآيات: أشراط الساعة، كطلوع الشمس من مغربها، وغير ذلك)[(١)].وقال البيضاوي: (بعض آيات ربك، يعني: أشراط الساعة)[(٢)].

القول الثاني: أن بعض الآيات هنا هو خصوص طلوع الشمس من مغربها، قال الطبري بعد أن ذكر أقوال المفسرين: (وأولى الأقوال بالصواب في ذلك، ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله، أنه قال: (ذلك حين تطلع

(١) الزمخشري، الكشاف (٢/ ٨٢).

(٢) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٢/ ٤٦٩)، بيروت، دار الفكر، د. ط.

الشمس من مغربها)[١]

وقال الشوكاني: (فإذا ثبت هذا التفسير النبوي من وجه صحيح لا قادح فيه، فهو واجب التقديم، محتم الأخذ به)[٢]

وقال الألوسي: (والحق أن المراد بهذا البعض الذي لا ينفع الإيمان عنده: طلوع الشمس من مغربها. فقد روى الشيخان: (لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون، وذلك حين لا ينفع نفسا إيمانها، ثم قرأ الآية)، بل قد روي هذا التعيين عنه -صلى الله عليه وسلم- في غير ما خبر صحيح، وإلى ذلك ذهب جلة المفسرين وما يروى من الأخبار التي ظاهرها المنافاة لذلك غير مناف له عند التحقيق كما لا يخفى على المتأمل)[٣]

القول الثالث: إتيان الله -تعالى- لفصل القضاء بين الخلق يوم القيامة[٤]

القول الرابع: أنها عموم الآيات [٥]، وممن نصر هذا القول وأيده

---

(١) الطبري، جامع البيان (٢/ ٢٦٦). هكذا ذكره المؤلف ولعله يريد الحديث أخرجه البخاري في ك/ الرقاق (١١/ ٣٥٢) مع الفتح، ومسلم في ك/ الإيمان، باب: الذي لا يقبل الله فيه الإيمان (٢/ ١٩٤) مع شرح النووي. بلفظ: (لاتقوم الساعة...).

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٢/ ٢٠٧).

(٣) الألوسي، روح المعاني (٤/ ٣٠٥). والحديث، أخرجه البخاري في ك/ الرقاق (١١/ ٣٥٢) مع الفتح

(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٧/ ١٤٥).

(٥) سواء أكانت أشراطا أم لم تكن؛ لأن الأشراط جزء من آيات الله تعالى الباهرة، وهذا هو =

صاحب المنار حيث قال: (والبعض من هذه الآيات قد يطلع عليه الأفراد عند الغرغرة قبيل خروج الروح وهي القيامة الصغرى، ولا تراها الأمم كلها إلا قبيل قيام القيامة الكبرى، فإن لها آيات كآيات الموت بعضها ظني وبعضها قطعي، يترتب عليه حصول الإيمان القهري)[1] وإليك ما ذكره صاحب المنار حتى نتبين مراده في هذه القضية:

قال -رحمه الله-: (وفي الآية من الإيجاز البليغ ما ترى، فإن الفصل بين كلمة (نفسا) الدالة على الشمول لكونها نكرة في سياق النفي، وبين صفتها هي جملة (لم تكن آمنت) إلخ بالفاعل وهو (إيمانها) وعطف جملة (أو كسبت في إيمانها خيرا) عليها قد أغنى عن التصريح بما بسطنا به المعنى آنفا.

وقد روي في أحاديث منها الصحيح السند والضعيف الذي لا يحتج به وحده، بأن هذه الآية التي أبهمت وأضيفت إلى الرب -تعالى- لتعظيم شأنها وتهويله، هي طلوع الشمس من مغربها قبيل تلك القارعة الصاخة التي ترج الأرض رجا، وتبس الجبال بساً. فتكون هباء منبثا، وإذا الشمس كورت، وإذا الكواكب انتثرت، وبطل هذا النظام الشمسي وقد كان طلوع الشمس من مغربها بعيدا عن المألوف المعقول، ولا سيما معقول من كانوا يقولون بما تقول فلاسفة اليونان في الأفلاك والعقول، وأما علماء الهيئة الفلكية في هذا العصر فلا يتعذر على عقولهم أن تتصور حادثا تتحول فيه

=

الفق بين هذا القول والقول الأول.

(١) رشيد رضا، تفسير المنار (٨/ ١٨٥)، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ١٩٩٠م.

حركة الأرض اليومية فيكون الشرق غربا والغرب شرقا، ولا ندري أيستلزم ذلك تغييرا آخر في النظام الشمسي أم لا؟ وقد ورد في المأثور ما يؤيد هذا التوجيه، فقد أخرج البخاري في تاريخه، وأبو الشيخ في العظمة، وابن عساكر عن كعب قال: إذا أراد الله أن تطلع الشمس من مغربها أدارها بالقطب (أي: المحور) فجعل مشرقها مغربها ومغربها مشرقها. اهـ. وهذا من أحسن العلم المعقول الذي روي عن كعب والله على كل شيء قدير.

وأقوى الأحاديث الواردة في طلوع الشمس من مغربها ما رواه البخاري في كتاب الرقاق "عن أبي هريرة أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: "لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون فذلك حين (لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا) اهـ. ومثله في التفسير وغيره من صحيحه وأورده في كتاب الفتن مطولا فيه ذكر آيات أخرى لقيام الساعة. وأخرجه أيضا أحمد، ومسلم، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه وغيرهم. وأخرج أحمد، والترمذي، وغيرهما عن أبي هريرة أيضا رفعه " ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل. طلوع الشمس من مغربها، والدجال، ودابة الأرض" وهو مشكل مخالف للأحاديث الأخرى الواردة في نزول المسيح الدجال وإيمان الناس به، والمشكلات في الأحاديث الواردة في أشراط الساعة كثيرة، أهم أسبابها فيما صحت أسانيده واضطربت المتون وتعارضت أو أشكلت من وجوه أخرى، أن هذه الأحاديث رويت بالمعنى ولم يكن كل الرواة يفهم المراد منها لأنها في أمور غيبية، فاختلف التعبير

باختلاف الأفهام، على أنهم اختلفوا في ترتيب هذه الآيات) [1]

الرأي الراجح:

والذي يظهر لي ـ والله أعلم ـ أن المراد من الآية هو عموم ما اجتمع فيه شرطان اثنان، أولهما: أن يكون آية من آيات الله -تعالى-، وثانيهما: أن يترتب على ظهوره عدم قبول الإيمان، فكل ما اجتمع فيه هذان الشرطان صح أن يكون مراداً من مرادات الآية الكريمة.

وتطبيقاً على ما أصلته آنفاً، أقول: إن الشرطين المتقدمين متحققان في طلوع الشمس من مغربها، ولذلك تكون هذه الآية القرآنية دالة على هذا الشرط من أشراط الساعة الكبرى، وهذا هو ما قررته الأحاديث الشريفة التي صرحت بدخول هذا الشرط في مسمى الآية الكريمة.

ومن هذه الأحاديث، ما أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت، فرآها الناس، فذاك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً)[2]

وما أخرجه أحمد عن أبي هريرة أيضا رفعه: "ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل. طلوع الشمس من مغربها،

(١) رشيد رضا، تفسير المنار (٨/ ١٨٥).

(٢) أخرجه البخاري في ك/ الرقاق (١١/ ٣٥٢) مع الفتح

ومسلم في ك/ الإيمان، باب: الذي لا يقبل الله فيه الإيمان (٢/ ١٩٤) مع شرح النووي.

والدجال، ودابة الأرض"[١]

أما تمثيل الرسول للآيات بثلاث هي طلوع الشمس من مغربها والدجال والدابة، وفي رواية أخرى بطلوع الشمس من مغربها فقط، لا يدل على حصر الآيات في ثلاث كما هو في الرواية الأولى، ولا في واحدة كما هو في الرواية الثانية وفي الوجه الذي رجحه الطبري والألوسي.

ومَثَلُ هاتين الروايتين كمَثَلِ حديث: (إن لله تسعة وتسعين اسما)[٢]، فهو يثبت تسعة وتسعين اسما، لكنه لا ينفي أن يكون له أكثر من هذا العدد.

وغاية ما في أحاديث الباب إثبات أن هذه الأشراط الثلاث من بعض آيات الله، ولا يمتنع دخول غيرها في مدلوها. فيكون هذا من قبيل تفسير القرآن بالسنة الصحيحة، وأما الاختلاف الواقع في الروايات من أن بعضها ذكر آية واحدة وبعضها الآخر ذكر آيتين اثنتين، فهو من باب تفسير العام بذكر بعض أفراده، وفي مثل هذا يقول ابن تيمية في أصناف اختلاف التنوع: (أن يذكر كل منهم من الاسم العام بعض أنواعه على سبيل التمثيل وتنبيه المستمع على النوع، لا على سبيل الحد المطابق للمحدود في عمومه وخصوصه. مثل سائل أعجمي سأل عن مسمى لفظ الخبز، فأري رغيفا وقيل له: هذا. فالإشارة إلى نوع هذا لا إلى هذا الرغيف وحده)[٣]

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي هريرة (٢/ ٤٤٥).

(٢) أخرجه البخاري، في ك/ الشروط، باب: ما يجوز من الاشتراط والثنيا في الإقرار، برقم (٢٥٨٢)

(٣) ابن تيمية: مقدمة في أصول التفسير (١٤)، بيروت، دار مكتبة الحياة، ط ١٩٨٠م.

وهكذا فعل الرسول فذكر مرة مثالاً واحد فقط هو طلوع الشمس من مغربها، وذكر في حديث آخر ثلاثة أمثلة من الآيات هي الشمس والدجال والدابة.

تنبيه:

قال رشيد رضا: (هذا وإن أبا هريرة -رضي الله عنه- لم يصرح في هذه الأحاديث بالسماع من النبي -صلى الله عليه وسلم- فيخشى أن يكون قد روى بعضها عن كعب الأحبار وأمثاله فتكون مرسلة. ولكن مجموع الروايات عنه وعن غيره تثبت هذه الآية بالجملة فننظمها في سلك المتشابهات، ويحمل التعارض بين الروايات وما في بعضها من مخالفة الأدلة القطعية على ما أشرنا إليه من الأسباب، كالرواية عن مثل كعب الأحبار من رواة الإسرائيليات والله أعلم)[1]

قلت: وهذا الكلام من الشيخ رشيد رضا فيه نظير كبير.

أولاً: قوله: (لم يصرح بالسماع)، قلت: من أين للشيخ رشيد رضا أن أبا هريرة لم يسمع، وهل يشترط في كون الكلام مسموعاً، أن يقول الراوي:(سمعت من فلان)، أو يقول الصحابي: سمعت من رسول الله كذا وكذا.

ثانياً: قول الصحابي: (عن رسول الله) لا يضر الرواية من قريب ولا بعيد؛ فالعنعنة في الرواية تعاب إذا كانت من مدلس ممن هم دون حلقة

(١) رشيد رضا، تفسير المنار (٨/ ١٨٦).

الصحابة، والمحدثون يقبلون العنعنة من كل الرواة الذين لم يعرف عنهم التدليس ممن هم في غير طبقة الصحابة، فكيف بالصحابة الذين اتفق المحدثون على عدالتهم وثقتهم.

أضف إلى ذلك أنه ما من رواية في حديثي الباب جاءت بصيغة عن، إلا وجاءت بصيغة: (قال رسول الله) في روايات وطرق أخرى.

ثالثاً: قوله: (فيخشى أن يكون قد روى بعضها عن كعب الأحبار وأمثاله فتكون مرسلة)، أقول: نحن نجل أبا هريرة -رضي الله تعالى- عنه عن مثل هذه الشبهة، فإنه لا يمكن أن يأخذ كلاماً من كعب الأحبار ثم ينسبه إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، بل لو فعل ذلك ـ رضي الله تعالى- عنه ـ لكان هذا مطعناً في كل الروايات التي رواها عن رسول الله في هذا المقام وغيره من المقامات.

رابعاً: أما الإشكال الذي أورده على الرواية الثانية، وهي: (ثلاث إذا خرجن)، فقال: (وهو مشكل مخالف للأحاديث الأخرى الواردة في نزول المسيح الدجال وإيمان الناس به)[1].

فهذا الحديث يدل على عدم الإيمان بعد خروج الدجال، والجواب عن هذا الإشكال ما يأتي:

أولاً: أن الحديث صحيح لا شك في صحته، فقد أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، والترمذي، وأبو يعلى، وغيرهم من المحدثين بروايات

---

(١) رشيد رضا، تفسير المنار (٨/ ١٨٦).

لا مطعن فيها ولا نقد.

ثانياً: ذكر العلماء في حل الإشكال في هذا الحديث وجوهاً عدة، والذي أراه صحيحاً في الجواب عنه وجهان:

الأول: أن يكون انقطاع التوبة وعدم قبولها باجتماع العلامات الثلاث الواردة في الحديث، بمعنى أنها إذا تم خروجها جميعاً انقطعت التوبة، ولا تنقطع التوبة بظهور إحدى الثلاث دون الأخريين. وهذا هو رأي القاري[1]، والمباركفوري[2].

والثاني: أن يكون طلوع الشمس من مغربها هو آخر العلامات خروجاً، فإذا طلعت الشمس، انقطعت التوبة[3]، وبالنظر إلى الروايات الواردة في هذا المقام لم أجد رواية واحدة تعكر على هذين الوجهين من الجمع. وبأي الوجهين قلنا زال الإشكال ولله الحمد.

وعليه فلا وجه لما قاله الشيخ رشيد في الطعن بهذا الحديث الصحيح، ولكن سامح الله الشيخ رشيداً على هذا المنهج الذي سلكه كثيراً في تفسيره، فكان الأولى به ألا يصف الأحاديث الصحيحة بالتعارض والتناقض، فالقاعدة أنه لا يمكن لحديثين صحيحين سندا ومتنا أن يتعارضا، بل التعارض يأتي أحياناً في فهم السامع لهما، لا في أصلهما، وإن كنا نحيل التعارض بين صحيح المنقول وصريح المعقول، فإحالته بين صحيحي

---

(١) القاري، مرقاة المفاتيح، (٨/ ٣٥٤١)، بيروت، دار الفكر، ط ١، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠٢م.

(٢) المباركفوري، تحفة الأحوذي (٦/ ٤٠٦) محمد عبد الرحمن، بيروت، دار الكتب العلمية

(٣) القاسمي: محاسن التأويل (٤/ ٥٤٥).

المنقول أولى وأحرى.

العلة في عدم قبول الإيمان:

العلة في عدم قبول الإيمان أن هذه الآية يراها كل أهل ذلك الزمان، فتنكشف لهم الحقائق، ويشاهدون الغيب مشاهدة الحاضر، فهم في ذلك كمثل الذين رأوا عذاب الله -تعالى- عياناً كما في قوله -تعالى-: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [٨٥، غافر] وكمثل الذي يحضره الموت؛ فلذلك لا يقبل الله -تعالى- توبة العبد عند الغرغرة، قال -تعالى-: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ ﴾[المؤمنون: ٩٩]، قال القرطبي: (قال العلماء: وإنما لا ينفع نفسا إيمانها عند طلوعها من مغربها؛ لأنه خلص إلى قلوبهم من الفزع ما تخمد معه كل شهوة من شهوات النفس، وتفتر كل قوة من قوى البدن، فيصير الناس كلهم لإيقانهم بدنو القيامة في حال من حضره الموت في انقطاع الدواعي إلى أنواع المعاصي عنهم، وبطلانها من أبدانهم، فمن تاب في مثل هذه الحال لم تقبل توبته، كما لا تقبل توبة من حضره الموت. قال -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر)[1] أي: تبلغ روحه رأس حلقه، وذلك وقت المعاينة الذي يرى فيه مقعده من الجنة أو مقعده من النار، فالمشاهد لطلوع الشمس من مغربها مثله. وعلى هذا ينبغي أن تكون

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٢/ ١٣٢).

توبة كل من شاهد ذلك أو كان كالمشاهد له مردودة ما عاش، لأن علمه بالله -تعالى- وبنبيه -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وبوعده قد صار ضرورة)[1]

والظاهر من لفظ الآية أن الله -تعالى- لا يقبل العمل من الكافرين والمؤمنين على حد سواء، ولذلك قال الله -تعالى-: ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ بعد أن قال: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا﴾، فهذا الاحتراز دل على من كان عنده إيمان سابق، ويوضحه الحديث الوارد عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (لا تنقطع الهجرة ما تقبلت التوبة، ولا تزال التوبة مقبولة حتى تطلع الشمس من المغرب، فإذا طلعت، طبع على كل قلب بما فيه، وكفي الناس العمل)[2]

قال الزمخشري: (والمعنى أن أشراط الساعة إذا جاءت وهي آيات ملجئة مضطرة، ذهب أوان التكليف عندها، فلم ينفع الإيمان حينئذ نفسا غير مقدمة إيمانها من قبل ظهور الآيات، أو مقدمة الإيمان غير كاسبة في إيمانها خيرا، فلم يفرق كما ترى بين النفس الكافرة إذا آمنت في غير وقت الإيمان، وبين النفس التي آمنت في وقته ولم تكسب خيرا)[3]

وقال الألوسي: (إنه إذا شوهد تغير العالم العلوي يحصل العلم

---

(١) تفسير القرطبي (٧/ ١٤٧).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند، (٣/ ١٣٣-١٣٤)برقم (١٦٧١)، وقال محققه أحمد شاكر: (إسناده صحيح)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: (رجال أحمد ثقات)، انظر: مجمع الزوائد (٥/ ٢٥١).

(٣) الزمخشري، الكشاف (٢/ ٨٢).

الضروري، ويرتفع الإيمان بالغيب، وهو المكلف به، فيكون الإيمان حينئذ كالإيمان عند الغرغرة)[(١)].

وقد اختلف المفسرون في قبول التوبة ممن لم يعاين ذلك ممن جاء بعد من الناس الذين امتد بهم الزمان، ونسوا ذلك، فهل ينطبق عليهم حكم الذين شاهدوا وعاينوا.

فذهب القرطبي إلى قبول الإيمان والتوبة منهم، ولعله نظر -رحمه الله تعالى- إلى العلة، فلما زالت زال الحكم[(٢)]، وذهب إلى عدم قبولها الطبري؛ وحجته في ذلك أن الأدلة لم تفرق بين من شاهد ومن لم يشاهد [(٣)]

(١) روح المعاني (٤/ ٣٠٥).

٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٧/ ١٤٥).

٣) الطبري، جامع البيان (١٢/ ٢٥٨).

المبحث السادس: خروج الدابة

ومن أشراط الساعة التي اختلفت كلمة المفسرين في تحقق دلالة القرآن الكريم عليها، خروج الدابة، ومدار الأمر في ذلك قوله -تعالى-: ﴿ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾ [النمل: ٨٢]. فقد بين الله -تعالى- أن الناس إذا فسدوا وتركوا دينه، أخرج لهم دابة من الأرض تكلمهم على ذلك، وسيأتي معنى الكلام في موضعه بإذن الله -تعالى-.

وقد اختلف المفسرون في كون هذه الآية تدل على شرط من أشراط الساعة تبعاً لخلافهم في معنى الدابة، وكانت أقوالهم على النحو الآتي:

القول الأول: أن الدابة هي الجساسة التي ذكرت في حديث الدجال كما في قصة تميم الداري - رضي الله عنه -.(١)

وممن ذهب إلى هذا القول الزمخشري(٢) وأبو السعود، قال أبو السعود: (وهي الجساسة، وفي التعبير عنها باسم الجنس، وتأكيد إبهامه بالتنوين التفخيمي من الدلالة على غرابة شأنها، وخروج أوصافها عن طور البيان ما لا يخفى)(٣)

القول الثاني: أنها فصيل ناقة صالح -عليه السلام-، وقد صحح هذا

(١) أخرجه مسلم في صحيحه في ك/ الفتن وأشراط الساعة، باب: ذكر ابن صياد (١٨/ ٧٨)

(٢) الزمخشري، الكشاف (٣/ ٣٨٤).

(٣) أبو السعود، إرشاد العقل السليم (٦/ ٣٠١).

القول القرطبي، واستدل عليه برواية: (لم يرعهم إلا وهي ترغو بين الركن والمقام) [١]، فقوله: (ترغو) يدل على ذلك؛ لأن الرغاء يكون للإبل، كما استحسن رحمه الله -تعالى- قول الناظم:

واذكر خروج فصيل ناقة صالح ** يسم الورى بالكفر والإيمان

القول الثالث: أن الدابة هي إنسان قد آتاه الله -تعالى- من الحجة والبرهان ما يحاجج به الناس ويناظر أهل البدع والزيغ حتى ينقطعوا، فيهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي بينة، واشتهر هذا القول عن الشيعة، ويقصدون به علياً -رضي الله عنه-[٢]

القول الرابع: الدابة اسم جنس لكل ما يدب، وليست ذلك الحيوان، وقد يكون المراد منها تلك الجراثيم الخطيرة التي تفتك بالإنسان وجسمه، فهي تجرح وتقتل، وهذا الجرح وذلك القتل هو أكبر عظة للإنسان لو كانوا يتعظون، ولسان الحال أبلغ من لسان المقال، وهذا هو رأي محقق كتاب النهاية لابن كثير يدعى أبا عبية [٣].

مناقشة هذه الأقوال:

أما القول الأول فهو غير صحيح؛ لأنه ليس في الآية ولا في

---

(١) تفسير القرطبي، والحديث أخرجه الطيالسي- (٢/ ٢٢٠-٢٢١)، والحاكم في المستدرك بألفاظ أخرى(٤/ ٤٨٤)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، وهو أبين حديث في ذكر الدابة، ولم يخرجاه.

(٢)الألوسي، روح المعاني (١٠/ ٢٣٣).

(٣) النهاية في الفتن والملاحم لابن كثير، تحقيق: محمد فهيم أبي عبية (١٩٠-١٩١).

الأحاديث الواردة في شأن الدابتين ما يدل على أنها الجساسة، ومطلق الاشتراك في مسمى الدابة لا يدل على ذلك.

وأما القول الثاني بأنها فصيل ناقة صالح، ففيه نظر من وجوه:

أولها: أن الحديث الوارد في ذلك غير صحيح، ففيه طلحة بن عمرو الحضرمي، وقد ضعفه ابن معين، وأحمد، وقال الهيثمي: (متروك) [1].

ثانيها: سلمنا صحة الحديث ـ وهو غير صحيح ـ إلا أننا نمنع صحة الاستدلال به على أن الدابة هي ناقة، بدليل (ترغو)؛ وذلك لوجود روايات أخرى فيها (تدنو)، و(تربو).

ثالثها: سلمنا أنها ناقة، إلا أننا نمنع أن تكون هذه الناقة هي خصوص فصيل ناقة صالح -عليه السلام-؛ فالدليل هنا محموله أعم من أن تكون الناقة هي ناقة صالح أو غير ناقة صالح، ولذلك فالدليل هنا لا ينتج المدلول، وبهذا نبطل صحة هذا القول.

وأما القول الثالث بأن الدابة هي علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-، فما أقبحه من قول وما أفسده من رأي، فكيف يستقيم في عقل عاقل أو فهم فهيم أن يوصف الصحابي الجليل التقي النقي المبشر بالجنة بمثل هذا الوصف؛ من أجل إثبات عقيدة (الرجعة)، فإننا والله ننزه آحاد المسلمين، بل العصاة منهم، عن مثل هذا الوصف، فكيف بمن هو زوج بنت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ورابع الخلفاء الراشدين. قال الألوسي: (وكل ما

---

(١) مجمع الزوائد: (٥/ ١٠٤)، بيروت، دار الفكر، ط ١٤١٢هـ.

يروونه في ذلك كذب صريح)[١].

وأما القول الرابع من أن الدابة هي الجراثيم والبكتيريا فهو غير صحيح لما يأتي:

أولاً: الجراثيم والبكتيريا في الغالب لا ترى بالعين المجردة، ولم يقل أحد بأن هذه الدابة لا ترى.

ثانياً: أن الجراثيم والبكتيريا والأمراض الفتاكة موجودة من القديم، وأما هذه الدابة فلم تخرج بعد، بل هي من أشراط الساعة الكبرى.

ثالثاً: أن هذه الدابة لها عمل معين، وهو وسم الناس بالكفر والإيمان، أما هذه الجراثيم فلا دخل لها في ذلك من قريب أو بعيد.

رابعاً: أن مأخذ هذا القول ومبناه على تلك الفكرة التي خرجت وانتشرت في العصر الحديث من محاولة تفسير جميع الغيبيات بالأمور المشاهدة أو القضايا العلمية، كأولئك الذين فسروا الملائكة والجن بالميكروبات وفسروا المعجزات بالنظريات العلمية ونحو ذلك.

وفي نظري أن هذا الفكر هو فكر انهزامي ظهر محاكاة للأفكار اللادينية التي تنادي وتؤمن بالطبيعة، وتنكر كل ما وراء الطبيعة، إلى جانب تلك النظرة التي تدعو إلى تقليص مادة الاستدلال الديني، كأولئك الذين ينكرون الاستدلال بالسنة والذين يسمون: (القرآنيين)، والقرآن منهم براء، وأولئك الذين لا يستدلون من السنة إلا بأقل القليل منها، في خطة

(١) الألوسي، روح المعاني (١٠/ ٢٣٣).

تآمرية تكاملية من أعداء هذا الدين، على تقليص النصوص المقدسة، ثم إتاحة المجال للعقول في التحريم والتحليل، على النحو الذي تشاء والمنهج الذي تريد، بحجة العقل والنظر والتدبر والتفكر.

وبهذه المناقشة يظهر ضعف جميع الأقوال المتقدمة؛ لأنها لا تقوم على ساق الاستدلال القويم، ولا على ميزان الاستنباط السليم. وبهذا لا يبقى من الأقوال صحيحا إلا القول الخامس، وهو:

القول الخامس: أن هذه الدابة هي دابة من دواب الأرض، على معنى اللفظ العربي، الذي يفهمه كل عربي، وليست من نوع الإنسان، بل هي دابة من الأرض لها صفات تختلف بها عن غيرها من الدواب الأخرى، تكلم الناس، وتسمهم، فتكون بذلك خارقة للعادة، معجزة من معجزات الله -تعالى- في خلقه، وشرطاً من أشراط الساعة.

وهذا ما وردت به الأحاديث الصحاح، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنه- أنه قال: (حفظت من رسول الله حديثاً لم أنسه بعد، سمعت رسول الله يقول: (إن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحى، وأيهما كانت قبل صاحبتها، فالأخرى على إثرها قريباً)[1]

وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- مرفوعاً: (ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا: طلوع الشمس

(١) أخرجه مسلم في صحيحه في ك/ الفتن وأشراط الساعة، باب: ذكر الدجال، (١٨/ ٧٧-٧٨) مع شرح النووي.

من مغربها، والدجال، ودابة الأرض) [١]

وقد اختلف المفسرون في معنى التكليم الذي نطقت به الآية الكريمة على قولين[٢]:

الأول: تكلمهم من الكلام، الذي هو النطق والمخاطبة.

الثاني: تكلمهم، من الكلم، أي: الجرح، بمعنى الوسم.

والذي يظهر أن لفظ الآية يحتمل المعنيين كليهما، وأنها تفعل كلا الأمرين، وهو قول ابن عباس -رضي الله عنهما-، ورجحه ابن كثير، إلا أن التكليم من الكلام أشيع في اللغة من التكليم بمعنى الجرح.

وأما بالنسبة لماهية الكلام الذي تخاطبهم فيه، فقد اختلف في ماهيته تبعاً لاختلاف القراءة في قوله -تعالى-: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، فمن قرأها بكسر همزة (إن)[٣]، جعل الكلام هو خصوص قولها: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ ، بناء على أن الكلام قول، والهمزة بعد القول تأتي مكسورة. ومن قرأها بالفتح[٤] جعل الكلام عاماً، ولم يخصصه بما ذكر في

---

(١) المصدر السابق، كتاب: الإيمان، باب: الزمن الذي لا يقبل الله فيه الإيمان، (٢/ ١٩٥).

(٢) الشوكاني: فتح القدير (٤/ ١٧٥).

(٣) هذه قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو وابن عامر وأبي جعفر. انظر: الدمياطي، إتحاف فضلاء البشر (ص٤٣٢)، لبنان، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٩هـ. وابن خالويه، الحجة في القراءات السبع (٢٧٥)، تحقيق: عبد العال سالم مكرم، بيروت، دار الشروق، ط ٤، ١٤٠١هـ.

(٤) عاصم وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف، الدمياطي، إتحاف فضلاء البشر (ص٤٣٢)، وابن خالويه، الحجة في القراءات السبع (٢٧٥).

الآية الكريمة، ولنا أن نجعل قوله تعالى: ﴿ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾ استئنافا ابتدائيا، بمعنى عدم إيمان الناس في ذلك الموقف.

والذي يظهر والله أعلم عدم امتناع تكليمها إياهم بما ذكرته الآية وبما عداه من عموم الكلام، وهذه إحدى فوائد تعدد القراءة في الكلمة، فتدل كل قراءة منها على غير ما تدل عليه الثانية، في وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم، يدل على ثراء القراءات القرآنية وتنوع دلالاتها.

تنبيه:

بقي من أشراط الساعة الكبرى الخسوفات الثلاث وخروج المهدي، ولم أفرد لها مبحثاً؛ لأني لم أجد –حسب بحثي– اختلافا وجيها بين المفسرين في التدليل على هذين الشرطين من آي الذكر الحكيم، فاقتصرت على ما ذكرت من الأشراط، والله أعلم.

الخاتمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

ففي نهاية هذه الدراسة أصل إلى الخاتمة لأسجل النتائج الآتية، والله الموفق.

ـ يدور معنى (شرط) إلى العلامة، و(الساعة) إلى الجزء من الزمان، وعليه فإن أشراط الساعة هي العلامات التي يعقبها قيام الساعة.

ـ تنقسم أشراط الساعة إلى أقسام عدة باعتبارات مختلفة، ومنها اعتبار عِظمها وقدرها، واعتبار ظهورها، وأشهر ذلك انقسامها إلى صغرى: هي التي تتقدم الساعة بأزمان طويلة، وكبرى: هي التي تقارب قيام الساعة.

ـ اختلفت نظرة الكتاب والباحثين قديما وحديثاً في إثبات قضية أشراط الساعة، وخاصة الكبرى منها؛ وذلك تبعاً لاختلاف مللهم أو نحلهم أو مذاهبهم.

ـ انقسم المثبتون لأشراط الساعة الكبرى إلى قسمين: أولهما: الذين يثبتون الأشراط بالكتاب والسنة، وثانيهما: الذين يقتصرون في إثباتها على السنة فقط، دون أن يكون لها ذكر في القرآن أبدا.

ـ ذهب بعض الكتاب إلى تأويل كل ما ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة من أشراط الساعة الكبرى بالقضايا العلمية والنظريات الطبيعية، في محاولة لتجريدها من مضمونها الحقيقي وقداستها الأصيلة.

ـ الصحيح أن إثبات أشراط الساعة الكبرى ليس قاصرًا على ما ورد

في السنة النبوية فحسب، بل إن كثيرا من الأشراط ثبتت بنص القرآن الكريم، إما تصريحا أو تلميحا.

ـ اختلف المفسرون في دلالة القرآن الكريم على خروج المسيح الدجال في آخر الزمان، والراجح أن القرآن الكريم دل على ذلك تلميحاً ولم يصرح، وهو قوله -تعالى-: (يوم يأتي بعض آيات ربك)، وقد عرف بتفسير النبي -صلى الله عليه وسلم- وبيانه.

ـ نزول عيسى -عليه السلام- في آخر الزمان ثبت في القرآن الكريم، وذلك في آيتين: الأولى قوله -تعالى-: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ [النساء: ١٥٩]، وقوله -تعالى-: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ [الزخرف: ٦١].

ـ لا يوجد دليل واحد صحيح مع الذين يقولون: إن يأجوج ومأجوج هم التتار أو غيرهم من الذين خرجوا قبل هذا الزمان، بل الصحيح أن خروجهم سيكون في آخر الزمان وهو شرط من أشراط الساعة الكبرى التي لم تظهر بعد.

ـ لم يحدد القرآن الكريم وقت خروج يأجوج ومأجوج، بل غاية ما دل عليه القرآن الكريم هو إثبات الخروج، وجاء التفصيل في السنة النبوية الصحيحة.

ـ اختلف المفسرون في الدخان المذكور في قوله -تعالى-: ﴿يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾[الدخان: ١٠]، والظاهر أنه الدخان الذي يكون في آخر الزمان وأنه ما نص النبي -صلى الله عليه وسلم- على أنه شرط من

أشراط الساعة الكبرى.

ـ ثبتت علامة طلوع الشمس من المغرب في قوله -تعالى-: ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ﴾ [الأنعام: ١٥٨]. وذلك بتفسير النبي -صلى الله عليه وسلم- لهذه الآيات.

ـ اختلف المفسرون والعلماء في معنى الدابة التي وردت في قوله تعالى: ﴿ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ [النمل: ٨٢]، أهي دابة حقيقية أم هي رمز لشيء معين غير الدابة، والصحيح أنها دابة حقيقية كما أخبر الله -تعالى- بذلك.

ـ من أبشع ما قيل في معنى الدابة أنها -حاشاه وكلا- علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-، وهذا قول ظاهر الفساد والنكران.

ـ تأويل معنى الدابة بالجراثيم والميكروبات هو قول باطل، ويعد إحدى المحاولات المعاصرة لتمييع النص القرآني، وتحريف القضايا الغيبية إلى الماديات البحتة في محاولة زائفة لإقناع الماديين بمفهومات النصوص الدينية المقدسة عند المسلمين، بما نسميه انهزامية مقيتة التي استحوذت على نفوس بعض المنبهرين بحضارة الآخر وعلومه.



المراجع

ـ إتحاف فضلاء البشر، الدمياطي، لبنان، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٩هـ.

ـ إرشاد العقل السليم، أبو السعود العمادي، بيروت، دار إحياء التراث العربي.

ـ أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، الشنقيطي، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر، ط ١٤١٥هـ.

ـ أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي، بيروت، دار الفكر.

ـ البحر المحيط في تفسير القرآن العظيم، أبو حيان، تحقيق: صدقي محمد جميل، بيروت، دار الفكر، ط١٤٢٠هـ.

ـ البرهان في علوم القرآن، الزركشي، تحقيق: محمد أبي الفضل، نشره: دار إحياء الكتب العربية، وصورته دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٣٧٦هـ.

ـ تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري: محمد عبد الرحمن، بيروت، دار الكتب العلمية، د. ط.

ـ التحرير والتنوير، بيروت، ابن عاشور، مؤسسة التاريخ العربي، ط ١، ١٤٢٠هـ.

ـ التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، القرطبي، تحقيق الصادق محمد إبراهيم، الرياض، دار المنهاج للنشر والتوزيع، ط ١، ١٤٢٥هـ.

ـ تفسير ابن أبي حاتم، الإمام الحافظ أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي، تحقيق: أسعد محمد الطيب، صيدا، المكتبة

- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي سلامة، الرياض، دار طيبة، ط ٢، ١٤٢٠هـ.
- تفسير المنار، رشيد رضا، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١٩٩٠م.
- جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م
- الجامع الصحيح. الترمذي: محمد بن عيسى الترمذي. تحقيق: أحمد محمد شاكر، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط٢، ٢٠٠٤.
- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، القاهرة، دار الكتب المصرية، ط ٢، ١٣٨٤هـ- ١٩٦٤م.
- الحجة في القراءات السبع، ابن خالويه، تحقيق: عبد العال سالم مكرم، بيروت، دار الشروق، ط ٤، ١٤٠١هـ.
- حياة الحيوان الكبرى، الدميري، محمد بن موسى، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤٢٤هـ
- سنن أبي داوود. أبو داوود، سليمان بن الأشعث. تحقيق: محيي الدين عبد الحميد، بيروت: دار الفكر، د.ت.
- صحيح البخاري، القاهرة، دار الشعب، ط ١، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.
- صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار إحياء التراث العربي. د. ط.
- روح المعاني، الألوسي:، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١٤١٥هـ.

- فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر، بيروت، دار المعرفة، ط١٣٧٩هـ.
- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير. الشوكاني، بيروت، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، ط ١، ١٤١٤هـ.
- في ظلال القرآن، سيد قطب:. القاهرة، دار الشروق، د. ط.
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، الزمخشري، بيروت، دار الكتاب العربي، ط ١٤٠٧هـ.
- اللباب في علوم الكتاب. ابن عادل، عمر بن علي. تحقيق: عادل عبد الموجود وعلي معوض، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١٤١٩،١هـ، ١٩٩٨م.
- لسان العرب، ابن منظور، بيروت، دار صادر، ط١.
- مجمع الزوائد، الهيثمي، بيروت، دار الفكر، ط ١٤١٢هـ.
- محاسن التأويل، القاسمي، تحقيق: محمد باسل عيون السود، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٨هـ.
- مدارك التنزيل وحقائق التأويل، النسفي، تحقيق: محي الدين ديب مستو، بيروت، دار الكلم الطيب، ط ١، ١٤١٩هـ.
- مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، القاري: علي بن سلطان، بيروت، دار الفكر، ط ١، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠٢م.
- المستدرك على الصحيحين، الحاكم: محمد بن عبد الله، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١١هـ.
- المسند. ابن حنبل، أحمد بن محمد. تحقيق: السيد أبو المعاطي النوري،

بيروت: عالم الكتب، ط١، ١٤١٩هـ،١٩٩٨م.
- مسند الطيالسي، الطيالسي: سليمان بن داود، تحقيق: محمد عبد المحسن التركي، مصر، دار هجر، ط ١، ١٤١٩هـ.
- مفردات غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان، دمشق، دار الكتب الشامية، ط ١٤١٢هـ.
- مقالات الإسلاميين، أبو الحسن الأشعري، تحقيق: هلموت ريتر، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط ٣، د. ت.
- مقدمة في أصول التفسير، ابن تيمية، بيروت، دار مكتبة الحياة، ط ١٩٨٠م
- المنهاج شرح صحيح مسلم، النووي:، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط ٢، ١٣٩٢هـ.
- النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، بيروت، المكتبة العلمية، ط١٣٩٩هـ.
- النهاية في الفتن والملاحم، ابن كثير، تحقيق: محمد فهيم أبي عبية.

شرح منحة ذي العرش فيما يتعلق بقراءة ورش

تأليف: شعيب بن إسماعيل الكيالي (ت١١٧٢هـ)

تحقيق ودراسة

د. محمد بن عبدالله الوزرة الدوسري

الأستاذ المشارك بقسم القرآن وعلومه

كلية أصول الدين - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية



ملخص بحث

شرح منحة ذي العرش فيما يتعلق بقراءة ورش

- عنوان البحث : شرح منحة ذي العرش فيما يتعلق بقراءة ورش ، تأليف: شعيب بن إسماعيل الكيالي (ت١١٧٢هـ) تحقيق ودراسة .

- اسم الباحث : محمد بن عبد الله الوزره الدوسري .

- أهمية الموضوع ، تتضح في :

أن هذا المخطوط قيّم في علم القراءات القرآنية بديع في موضوعه و يمتاز بطريقة عرضه، فهو منظومة مشروحة يشتمل على فوائد جليلة فيما يتعلق بقراءة ورش من طريق الشاطبية من الأوجه عند اجتماع مدّ البدل مع اللين، أو مدّ البدل مع الممال، أو اللين مع الممال، أو عند اجتماع الثلاثة: البدل واللين والممال .

- خطة البحث : يتكون البحث من قسمين :

القسم الأول: القسم الدراسي ، وفيه مبحثان:

المبحث الأول : التعريف بالمؤلف ، وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول : اسمه ومولده ونشأته.

المطلب الثاني : مكانته العلمية.

المطلب الثالث : مؤلفاته.

المطلب الرابع : وفاته.

المبحث الثاني : التعريف بالكتاب، وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول : اسم الكتاب، ونسبته إلى مؤلفه.

المطلب الثاني : سبب تأليفه، ومنهجه.

المطلب الثالث : موضوع الكتاب، وقيمته العلمية.

المطلب الرابع : وصف المخطوط، ومكان وجوده.

القسم الثاني : النص المحقق.

الخاتمة : وفيها أهم نتائج البحث وتوصياته.

ثبت : المصادر والمراجع.

- الخاتمة : وكان من أهم النتائج ما يلي:

أولاً : أن هذا المخطوط عالج مسألة من مسائل علم التجويد والقراءات القرآنية كثيراً ما يتعسر فهمها على المبتدئين ، ويصعب تصورها على بعض القارئين ، وهي العلاقة بين مدِّ البدل واللين واللفظ الممال من ذوات الياء عند اجتماعها في موضع واحد، وأثر تركيبها على أحكام التجويد .

ثانياً : أن هذا المخطوط عمل على توضيح اللبس الحاصل والغموض الواقع في هذا الموضوع ، وجمع ما يتحصل للإمام ورش من طريق الشاطبية من الأوجه في هذه المسألة ، وقد أوصلها المؤلف إلى اثنتي عشر صورة مع وضع رمز لكل صورةٍ .

هذا والله تعالى أعلى وأعلم ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، وصلاة وسلام على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

Explication of Minhat Dhil`arsh Fimā
Yata`alaq Bi Qirā'at Warsh
(Allah Grace Concerning Warsh Quran reading)
By Shoaib bin Ismail Kayali (d. 1172 AH)
Commenting and Investigation

Dr. Mohammed bin Abdullah Al-Dosari

Summary

Research Title: Explication of Minhat Dhil`arsh Fimā Yata`alaq Bi Qirā'at Warsh (Allah Grace Concerning Warsh Quran reading) by: Shoaib bin Ismail Kayali (d. 1172 AH) Commenting and Investigation

Dr. Mohammed bin Abdullah Al-Dosari

Al-Imam Mohammad Ibn Saud Islamic University

Significance of Research Question:

This manuscript is valuable in the field of Quran readings, adorable in its subject and its presentation. It amounts to an explication of the system which includes great benefits with respect to Warsh’s reading according to Shatebeya, in particular the interface of (vowel) length with softness, length with 'imālah, softness with 'imālah, or the interface of the three phonemes.

Research Plan: The research consists of two parts: Section One: This section deals with the investigation, and it consists of two topics:

The first topic: It includes author profile in four points:

First: His name, date of birth and upbringing.

Second: His academic standing.

Third: His works.

Fourth: His death.

The second topic: It includes an introduction and four points: First: The title of the book, and its attribution to the author. Second: The reason behind writing this book was and the author's methodology.
Third: The theme of the book, and academic value. Fourth: Description of the manuscript, and where it is deposited. Section Two: the commentary on the text.

Conclusion: The most important results and recommendations of the research are reported in the conclusion.

Bibliography: It includes the sources and references.

Conclusion: The most important results are summarized below. First, this manuscript addresses a topic relevant to intonation and Quran readings, which is often difficult to understand by the novice, and might be hard to understand by some readers. It specifies the relationship between length, softness and pronounced 'imālah of *ya* when they meet in one place, and the effect of its composition on the provisions of Quran intonation (tajwīd).
Second, this manuscript clarifies the vagueness and ambiguity in this subject. In addition, the manuscript has collected what can be obtained from the works of Imam Warsh of Shatebeya method in this topic, enabling the author to establish twelve cases using a symbol for each.

God knows best and He is the Highest, and Praise be to Allah, Lord of the Worlds, and prayers and peace upon our Prophet Muhammad and his family and companions.

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين، أما بعد:

فإن من نعم الله تعالى علينا أنه أنزل كتابه الكريم المبارك على عبده محمد ﷺ؛ ليكون للعالمين بشيراً ونذيراً، وأمر بتلاوته، وأثنى على الذين يتلونه حق تلاوته، وحثّ على تدبّر آياته، واتباع أوامره وأحكامه، فمن تدبّر آياته أورثه ذلك العلم بما فيها، ومن اتبع أوامره أورثه ذلك العمل بها، قال جلّ ثناؤه في شأن تدبّر كتابه المبارك: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [سورة ص: ٢٩].

وعليه فإن الاهتمام بالقرآن الكريم وقراءاته والاشتغال بذلك من أفضل الأعمال والقربات التي يتقرب بها الإنسان إلى الله تعالى ويتشرف بها.
وقد يسر الله لي الوقوف على مخطوط قيّم في علم القراءات القرآنية بديع في موضوعه و يمتاز بعرضه، ويشتمل على فوائد جليلة فيما يتعلق بقراءة ورش من طريق الشاطبية من الأوجه عند اجتماع مدّ البدل مع اللين، أو مدّ البدل مع الممال، أو اللين مع الممال، أو عند اجتماع الثلاثة: البدل واللين والممال، وهو منظومة مشروحة، عنوانه: (منحة ذي العرش فيما يتعلق بقراءة ورش) لشعيب بن إسماعيل الكيالي، المتوفى سنة (١١٧٢هـ).

ونظراً لما في هذا المخطوط من قيمة علمية مهمّة في موضوعه عزمت

متوكلاً على الله تعالى رغبة في دراسة وتحقيق هذا العقد الثمين، وإخراجه للباحثين، وخدمة للمشتغلين بالقراءات القرآنية والمقرئين، ومساهمة لإبراز تراثنا الرصين، وتقديمه في صورة تتيح الاستفادة منه بيسر وسهولة.

وجعلت عملي في هذا المخطوط على قسمين:

- القسم الأول: القسم الدراسي، وفيه مبحثان:

المبحث الأول: التعريف بالمؤلف، وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: اسمه ومولده ونشأته.

المطلب الثاني: مكانته العلمية.

المطلب الثالث: مؤلفاته.

المطلب الرابع: وفاته.

المبحث الثاني: التعريف بالكتاب، وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: اسم الكتاب، ونسبته إلى مؤلفه.

المطلب الثاني: سبب تأليفه، ومنهجه.

المطلب الثالث: موضوع الكتاب، وقيمته العلمية.

المطلب الرابع: وصف المخطوط، ومكان وجوده.

- القسم الثاني: النص المحقق.

- الخاتمة: وفيها أهم نتائج البحث وتوصياته.

- ثبت: المصادر والمراجع.

منهج التحقيق:

اتبعت في تحقيق هذا المخطوط المنهج الآتي:

١- كتابة الآيات القرآنية بالرسم العثماني، مع بيان أرقامها وعزوها إلى سورها .

٢-تخريج الأحاديث النبوية من مصادرها، فإن كان الحديث في الصحيحين أو أحدهما اكتفيت بتخريجه منهما، وإذا كان في غيرهما أخرجه من المصادر الأخرى المعتمدة، مع ذكر أقوال أهل العلم فيه والحكم عليه.

٣-تخريج الآثار الواردة في النص.

٤- الاعتماد في التحقيق على النسخة الفريدة التي سيأتي الكلام عنها.

٥- توثيق الأقوال والآراء المنسوبة إلى القائلين بها من مؤلفاتهم،أو من المصادر المعتمدة.

٦- ضبط الكلمات المشكِلة والغريبة من مصادرها المعتبرة.

٧- التعليق بذكر ما يستدعيه المقام من مزيد بيان، أو إضافة عبارة مناسبة تخدم المعنى وتوضحه في النص المحقق.

٨- التعريف بالأعلام الوارد ذكرهم في الكتاب.

٩- إذا ورد في المخطوطة كلمة غير صحيحة في السياق، فإني أثبت الكلمة الصحيحة في نص المخطوطة، وأثبت الكلمة غير الصحيحة في الحاشية.

١٠-كتابة النص حسب قواعد الإملاء والرسم المتعارف عليها في الوقت المعاصر.

١١- استعمال الأقواس المعقوفتين [ ] فيما يلي:

- للرموز التي رمز بها الناظم نحو (بلّ) و(بلّم) .
- لنصوص المؤلف المشروحة في متن البحث كله .

- لكلمات المخطوطة عموماً عند التعليق عليها في الحواشي .

- لأرقام صفحات المخطوط، والتي تشير إلى بداية كل صفحة .

هذا، وقد سرت على هذا المنهج من أجل إخراج النص كما أراده المؤلف إخراجاً صحيحاً سليماً من الأخطاء اللغوية والإملائية.

سائلاً المولى عز وجل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وفي خدمة كتابه العظيم.

القسم الأول: قسم الدراسة .

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: التعريف بالمؤلف.

المبحث الثاني: التعريف بالكتاب.

المبحث الأول: التعريف بالمؤلِّف[1] .

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: اسمه ومولده ونشأته .

هو: شعيب بن إسماعيل بن عمر بن إسماعيل بن عمر بن أحمد الإدلبي الرفاعي الحسيني الشافعي، المعروف بالكيالي نسبة إلى جده الأعلى إسماعيل الكيال البلخي.

ولد سنة ست عشرة ومائة وألف من الهجرة (١١١٦هـ)، الموافق (١٧٠٤م) بـ(إدلب) في سوريا، ونشأ بها، وقرأ على أفاضلها، ثم ارتحل إلى (دمشق) وقرأ على علمائها.

وفي سنة ثلاث وأربعين ومائة وألف من الهجرة (١١٤٣هـ)، سكن واستقر في حلب، ونزل بالمدرسة العثمانية، وقرأ على مدرسها الشيخ محمود الأنطاكي .

المطلب الثاني: مكانته العلمية .

كان الإمام شعيب الكيالي فقيهاً فاضلاً أديباً أريباً محققاً هشاً بشاً لطيفاً عفيفاً من رآه تحقق علو نسبه .

اشتغل بالعلم منذ نشأته، وحفظ القرآن الكريم وتعلم العلوم الدينية والعربية على علماء دمشق، وبرع في هذه العلوم، وصنف فيها الكتب، وسكن حلب وتصدّر فيها للتعليم والإقراء .

---

(١) ينظر في ترجمته: سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر (١/ ٢٩٣) وهدية العارفين أسماء المؤلفين (١/ ٤٦٥) وإيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون (٣/ ٢٧١) والأعلام للزركلي (٣/ ٢٤٣) ومعجم المؤلفين (٤/ ٣٠١) .

المطلب الثالث: مؤلفاته .

مهر الإمام شعيب الكيالي في عدد من الفنون، وصنف عدداً من الكتب نسبتها إليه كتب التراجم، ومنها:

١- تدريب الوامق إلى معاملة الخلائق (وهو مختصر غاية الاختصار في فروع الفقه الشافعي) .

٢- الدر المنضود في السير إلى الملك المعبود .

٣- كشف النقاب المجازي عن دالية ابن الحجازي .

٤- كفاية التائق إلى تدريب الوامق (وهو شرح تدريب الوامق) .

٥- شرح منظومة: منحة ذي العرش فيما يتعلق بقراءة ورش .

وهو عبارة عن منظومة، عدة أبياتها سبعة عشر مع شرحها، وهو موضوع تحقيق كتابنا هذا.

٦- له أدبية وشعر أكثره في الرسول ﷺ، فمن ذلك قوله مضمناً بيتي حسان بن ثابت رضي الله عنه :

أهيل الود هل منكم وفاء * وهل جرحي له منكم براء

سلبتم بالنوى قلبي ولبي * وهل للمرء دونهما بقاء

وله غير ذلك .

المطلب الرابع: وفاته

كانت وفاة الإمام شعيب الكيالي رحمه الله تعالى سنة اثنتين وسبعين ومائة وألف من الهجرة (١١٧٢هـ-١٧٥٨م) عن عمر يقارب (٥٦-سنة) حيث أدركته الوفاة وهو في طريقه إلى الحج من جهة مصر، اللهم ارحمه رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناتك .

* * *

المبحث الثاني: التعريف بالكتاب .

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: اسم الكتاب، ونسبته إلى مؤلفه .

كتب في صفحة العنوان لمكتبة جامعة الملك سعود:(شرح منظومة منحة ذي العرش فيما يتعلق بقراءة ورش) تأليف الكيالي شعيب بن إسماعيل (١١٧٢هـ) كتب في القرن الثاني عشر الهجري تقديراً .

وهذا العنوان كتب في الصفحة الأولى من النسخة المخطوطة: (هذا شرح المنظومة المسماة بمنحة ذي العرش فيما يتعلق بقراءة ورش نافع إن شاء الله تعالى) .

كما صرح به المؤلف في مقدمة الكتاب حيث قال:(فهذا شرح لمنظومتي المسماة: بمنحة ذي العرش فيما يتعلق بقراءة ورش) .

كما صرح به المؤلف في وسط الكتاب حيث قال:(وسميتها منحة ذي العرش فيما يتعلق بقراءة ورش) .

ثم جاء التصريح باسم المؤلف في نهاية الكتاب حيث قال: (وقد فرغ من تعليقه مؤلفه شعيب بن إسماعيل الكيالي ، المقيم يومئذ بإدلب الصغرى، يوم الثلاثاء ، منتصف شهر رجب الفرد ، سنة إحدى وخمسين ومائة وألف) .

وعليه فإن نسبة هذا الكتاب إلى مؤلفه صحيحة، ولا شك أنه من تأليفه؛ للتصريح بذكر اسم الكتاب ومؤلفه ضمن نص المخطوطة .

المطلب الثاني: سبب تأليفه ومنهجه .

قد بين الإمام شعيب بن إسماعيل الكيالي سبب تأليفه هذا الكتاب؛ إذ قال ما نصه: (فهذه قطعة قليلة مشتملة على فوائد جليلة مفصحة عمّا يتحصل لورش من طريق الشاطبية من الأوجه عند تركيب البدل مع اللين؛ أو مع الممال، أو اللين مع الممال، أو الثلاثة، صغت بها ما نقحه المشاهير من النقلة، ونقّاه نفاة الغث من السمين من الفضلة).

ثمّ ذكر منهجه الذي اتبعه في بيان هذه الطرق، وجعل لكل طريق رموزاً تشير إلى أحوال اجتماع مد البدل واللين والإمالة الصغرى، وصور تركيبها؛ حيث قال ما نصه:(رامزاً للبدل باءً، وللين لاماً، وللممال ميماً ؛ روماً للاختصار، فعبرتُ بـ[بلًّ] عن كلما اجتمع فيه البدل واللين مع تقدم البدل، وعبرتُ بـــ[بلّم] عن كلما اجتمع فيه الثلاثة مع تقدم البدل وتوسط اللين، وقس الباقي).

ثمّ قال: (وصور التركيب على ما اقتضاه العقل ووافقه الوجود اثنتى عشرة صورة)، ستة ثنائية، ومثلها ثلاثية، واثنا عشر رمزاً، على النحو الآتي:

الصورة الأولى: تركيب البدل واللين مع تقدم البدل، ورمز له بـــ[بلًّ].

الصورة الثانية: تركيب اللين والبدل مع تقدم اللين، ورمز له بـــ[لبّ].

الصورة الثالثة: تركيب البدل والممال مع تقدم البدل، ورمز له بـــ[بمّ].

الصورة الرابعة: تركيب الممال والبدل مع تقدم الممال، ورمز له بـــ[مبّ].

الصورة الخامسة: تركيب اللين والممال مع تقدم اللين، ورمز له بـــ[لمّ].

الصورة السادسة: تركيب الممال واللين مع تقدم الممال، ورمز له بقوله:

(العكس) يعني [ملّ].

الصورة السابعة: تركيب الثلاثة البدل واللين والمال مع تقدم البدل وتوسط اللين، ورمز له بـــ[بلّم].

الصورة الثامنة: تركيب البدل والمال واللين مع تقدم البدل وتوسط المال، ورمز له بـــ[بمّل].

الصورة التاسعة: تركيب اللين والبدل والمال مع تقدم اللين، ورمز له بـــ[لبّم].

الصورة العاشرة: تركيب المال والبدل واللين مع توسط البدل، ورمز له بـــ[مبّل].

الصورة الحادية عشر: تركيب اللين والمال والبدل مع تأخر البدل، ورمز له بـــ[لـمّب].

الصورة الثانية عشر: تركيب المال واللين والبدل مع تأخر البدل، ورمز له بـــ[ملّب].

المطلب الثالث: موضوع الكتاب، وقيمته العلمية .

موضوع البحث في هذا المخطوط، القراءات القرآنية، وهو شرح منظومة (منحة ذي العرش فيما يتعلق بقراءة ورش)، من طريق أبي يعقوب الأزرق من طريق الشاطبية.

وبيان الأوجه الجائزة عند اجتماع مد البدل مع مد اللين فقط أو البدل مع الإمالة الصغرى(التقليل)في آية واحدة، والمراد به ذوات الياء التي لورش فيها وجهان الفتح والتقليل، ويعبر عنه أيضاً بـ(بين بين)، أو عند اجتماع اللين مع التقليل، أو عند اجتماع الثلاثة،البدل واللين والتقليل.

ومن خلال تحقيقي لهذا الكتاب، وبحثي فيه لم أقف لأحد من شراح الشاطبية تناول هذا الموضوع بهذه الطريقة التي عالج بها المؤلف وحرّرها من حيث صور تركيبها وترتيبها في مكان واحد، أو مؤلف مستقل مثل ما فعله الإمام شعيب الكيالي، مما يدلّ دلالة واضحة على القيمة العلمية لهذا المخطوط.

وأن مؤلفه قدم للقراء طريقة فريدة مميزة لكيفية تركيب أداء قرائي لرواية ورش في حالة اجتمع فيها مد البدل واللين وذوات الياء في آية أو أكثر في سياق الآيات القرآنية .

المطلب الرابع: وصف المخطوط، ومكان وجوده.

بعد البحث والنظر في المكتبات ومراكز البحث العلمي لم أجد إلا نسخة واحدة فريدة لهذا المخطوط، وقد كتبت بخط نسخ حسن واضح .

وقد نَصّ المؤلف على أنه فرغ من تعليقه، حيث كان مقيماً يومئذ بإدلب الصغرى، يوم الثلاثاء منتصف شهر رجب سنة إحدى وخمسين ومائة وألف (١١٥١هـ).

وهذه النسخة تقع في تسع ورقات (١٨) صفحة، وعدد الأسطر في الصفحة (٢١) سطراً، والمقاس(٢٢×١٦سم)، وتوجد هذه النسخة في المكتبة المركزية بجامعة الملك سعود بالرياض، قسم المخطوطات، ضمن هذا التصنيف (القراءات، القرآن الكريم وعلومه) تحت الرقم الآتي(٢٣٠٤).

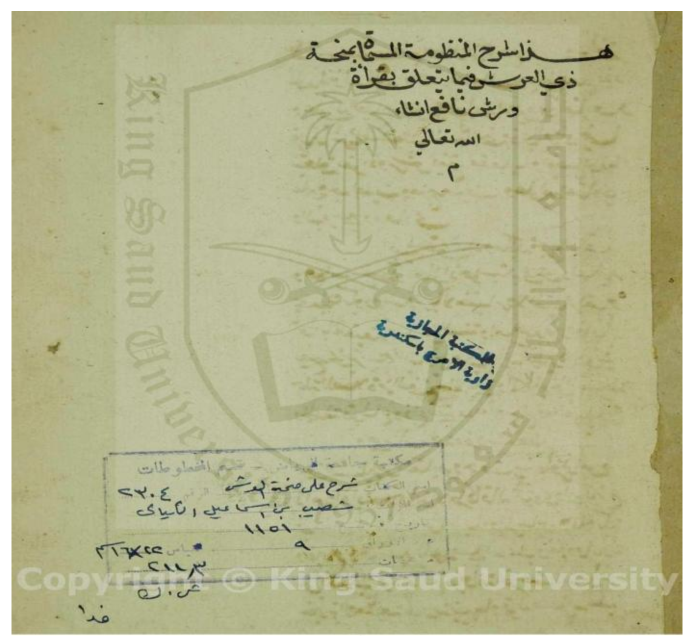
وهذا المخطوط قد نشر في مجلة الإصلاح الصادرة عن دار الفضيلة في الجزائر، العدد التاسع عشر، عام ١٤٣١هـ ، بعناية فؤاد عطا الله وعلى نفس النسخة الخطية التي اعتمدتها هنا .

واقتصر عمل فؤاد عطا الله على إخراج النص فقط ، مع بعض التعليقات اليسيرة .

وعند المقارنة بين عملي في هذا المخطوط، وعمل من سبقني فإنه يتجلى الفرق الواضح من خلال منهجي في التحقيق ، وخطة البحث ، والتعليقات التفصيلية على النص المحقق .

* * *

صور مختارة من المخطوطة:



(الورقة الأولى من المخطوطة)



(الورقة الثانية من المخطوطة)

(الورقة قبل الأخيرة من المخطوطة)

(الورقة الأخيرة من المخطوطة)

القسم الثاني: النص المحقق .

شرح منظومة:

منحة ذي العرش فيما يتعلق بقراءة ورش]

لشعيب بن إسماعيل الكيالي، المتوفى سنة (١١٧٢هـ).

[١/ ب] هذا شرح المنظومة المسماة بـــ(منحة ذي العرش فيما يتعلق بقراءة ورش) نافع إن شاء الله تعالى .

[٢] بسم الله الرحمن الرحيم و به ثقتي .

الحمد لمنزل الحمد ، والصلاة والسلام على العلم الفرد ، وعلى آله الطاهرين وصحابته الأكرمين . أما بعد:

فهذا شرح لمنظومتي المسماة: بـــ(منحة ذي العرش فيما يتعلق بقراءة ورش) ، يفتح مقفلها ويفصل مجملها على وجه لطيف ومنهج منيف ، وعلى الله اعتمادي وإليه مرجعي ومعادي .

[بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لمستحقه]، أي: لمستحق الحمد ومالكه بجميع أنواعه وهو الله سبحانه وتعالى ، إذ هو يستدعي محموداً عليه يجب أن يكون صدر بالاختيار ولا اختيار لغيره تعالى بالحقيقة عند أهل السنة[١] ، وأما حمد غيره فإنما يصح على ضرب من التأويل .

وفي إبهامه كنظيره الآتي في جملة الصلاة من التفخيم مالا يخفى .

---

(١) هذا ردّ على المعتزلة القائلين بأن العبد خالق فعله، وعند أهل السنة أن العبد وفعله مخلوقان لله، وأن للعبد اختياراً، لكنه تحت مشيئة الله واختياره، كما قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [سورة القصص: ٦٨] على أصح الأقوال بأن (ما) نافية، لأن المقام في بيان انفراده تعالى بالخلق والتقدير والاختيار مما خلق، وأنه لا نظير له في ذلك، ولهذا قال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ .

ينظر: جامع البيان للطبري (١٨/ ٢٩٩) وتفسير القرآن لابن كثير (٣/ ٤٠٨) والضوء المنير على التفسير (٤/ ٤٧٧) والعقيدة الواسطية (١/ ٢٣) وخلق أفعال العباد (٢/ ١٦٥) .

والكلام على البسملة والحمدلة قد شاع وذاع حتى ملأ الأسماع فلا نطيل بذكره .

[**والصلاة**]: وهي من الله رحمة مقرونة بتعظيم . [**والسلام**]: بمعنى التسليم من النقائص[1] .

وجمعت بينهما فراراً من كراهة إفراد أحدهما عن الآخر كما قاله النووي[2] وإن نوزع فيه[3] .

---

(١) صلاة الله على النبي محمد ﷺ هي ثناؤه ورحمته ومغفرته وتعظيمه، وشرفه ومنزلته عنده سبحانه، وصلاة الملائكة عليه هي الاستغفار، وصلاة العباد عليه هي الدعاء كما بيّن الرسول ﷺ كيفية الصلاة عليه حين نزلت الآية في ذلك .

قال ابن كثير: « والمقصود من هذه الآية: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [سورة الأحزاب: ٥٦] إن الله سبحانه وتعالى أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه عنده في الملأ الأعلى بأنّه يثني عليه عند الملائكة المقربين، وأن الملائكة تصلي عليه، ثم أمر الله تعالى أهل العالم السفلي بالصلاة والتسليم عليه ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين العلوي والسفلي » . تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣/ ٥١٤) .

وينظر: فتح القدير للشوكاني (٤/ ٣٤٥) وزاد المسير في علم التفسير (٦/ ٣٩٨) .

قال القرطبي: « والصلاة من الله رحمته ورضوانه، ومن الملائكة الدعاء والاستغفار، ومن الأمة الدعاء والتعظيم لأمره » الجامع لأحكام القرآن (١٤/ ٢٣٢) .

(٢) هو: يحيى بن شرف بن مري بن حسن الحزامي الحوراني، النووي، الشافعي، أبو زكريا، محيي الدين، علامة بالفقه والحديث، مولده ووفاته في نوا (من قرى حوران، بسورية) وإليها نسبته، من كتبه: تهذيب الأسماء واللغات، والمنهاج في شرح صحيح مسلم، ورياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، والأربعون حديثاً النووية، وغيرها كثير، ولد سنة (٦٣١هـ) ومات سنة (٦٧٦هـ) . ينظر: طبقات الحفاظ للسيوطي (١/ ٢٣٠) والأعلام للزركلي (٨/ ١٤٩) .

(٣) ذكر هذا القول الإمام النووي في شرح صحيح مسلم (١/ ٧٤) ونصه: (وقد نص =

[**على خير خلقه**]: من الأنبياء والمرسلين والملائكة وغيرهم، وهو سيدنا محمد ﷺ .

ومما يدل على أفضليته قوله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾[(١)] إذ خيرية الأمة تابعة لخيرية نبيها، وقوله صلى الله عليه [٣] وسلم: [آدم ومن دونه تحت لوائي][(٢)] .

وأما نهيه ﷺ عن التفضيل بين الأنبياء ، وعن تفضيله عليهم ونحو ذلك[(٣)] .

=

العلماء رضي الله عنهم على كراهة الاقتصار على الصلاة عليه ﷺ من غير تسليم) .

(١) تكملة الآية: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [سورة آل عمران: ١١٠] .

(٢) هذا الحديث جزء من حديث ابن عباس ﷺ لما كان يخطب على منبر البصرة أنه قال: قال رسول الله ﷺ ((لم يكن نبيّ إلا له دعوة تَنَجَّزَهَا في الدنيا، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة، وأنا سيد ولد آدم ولا فخر، وأول من تنشق عنه الأرض ولا فخر، وبيدي لواء الحمد، وآدم ومن دونه تحت لوائي ولا فخر)). وذكر حديث الشفاعة بطوله .

أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (ح١٤٠٨-٣/ ٧٤) وأبو يعلى في مسنده (ح٢٣٢٨-٤٥/ ٢١٣) والبزار في مسنده البحر الزخار (١٣/ ٧١) والهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (١١/ ٣١٢) والإمام أحمد في مسنده (ح٢٥٤٦-٤/ ٣٣٠) وقال محققوا المسند: الحديث حسن لغيره، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (ح٢٤١١-٥/ ٤١٠) .

(٣) هذا القول إشارة إلى حديث أبي هريرة ﷺ أنه قال: قال النبي ﷺ: ((لا تفضلوا بين أنبياء الله)) . أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الأنبياء، باب: قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ

=

فأجيب عنه: بأنه نهي عن تفضيل يؤدي إلى تنقيص بعضهم فإنه كفر، أو عن تفضيل في نفس النبوة التي لا تفاوت فيها لا في ذوات الأنبياء المتفاوتين بالخصائص ، أو نهي عن ذلك تأدباً وتواضعاً ، أو قبل علمه بأنه الأفضل(١) .

[وعلى آله]: هم مؤمنو بني هاشم وبني المطلب، وقيل أتباعه، وقيل الأتقياء منهم .

[وأصحابه]: قد يتوهم أنه جمع لصاحب وليس كذلك ، لأن (أفعالا) لا يكون جمعاً (لفاعل) بل هو جمع (لصحب) الذي هو اسم جمع، أو جمع (لصاحب) والمراد بالصاحب: الصحابي، وهو: من اجتمع مؤمناً بنبينا محمد ﷺ ومات على ذلك(٢) .

=

لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[سورة الصافات: ١٣٩] (ح ٣٤١٤-٦/ ٥١٩). ومسلم في صحيحه، كتاب: الفضائل، باب: من فضائل موسى (ح٢٣٧٣-١٥/ ١٨٩) . وفي لفظ ((لا تخيروا بين الأنبياء)) .

و في حديث آخر عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ: ((لا تفضلوني على موسى)) وفي لفظ آخر: ((لا تخيروني على موسى)) وذلك في قصة استبابة رجلين من اليهود والمسلمين .

أخرجه البخاري في صحيحه،كتاب: الأنبياء، باب: وفاة موسى (ح٣٤٠٨-٦/ ٥٠٨) ومسلم في صحيحه، كتاب: الفضائل، باب: من فضائل موسى (ح٢٣٧٣-١٥/ ١٩٠).

(١) إن كان التفضيل على وجه الفخر أو على وجه الانتقاص للمفضول فإنه مذموم . ينظر: هذه الأجوبة في شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز (١/ ١٥٨) .

(٢) تقرر في علم التصريف بأن أوزان جموع التكسير على وزن (أفعال) لا يكون جمعاً (لفاعل) . ينظر: أوضح المسالك لابن هشام (٤/ ٢٧٧).

=

[و] على [**المتقنين لكتابه**]: العزيز ، أي: الذين يتلونه حق تلاوته ويرعونه حق رعايته ، بأن يعملوا بأوامره ويجتنبوا نواهيه، هذا هو الإتقان، لا ما يفعله كثير من أهل هذا الزمان في القراءة بالألحان[1] ، فإنه مذموم عند أهل العرفان، نعم إن لم يخرج القارئ بذلك عن طريق الأداء فلا بأس.

قال الغزالي[2]: « وتلاوة القرآن حق تلاوته: أن يشترك فيه اللسان والعقل والقلب، فحظ اللسان تصحيح الحروف ، وحظ العقل تفسير المعاني ، وحظ القلب الاتعاظ والتأثر بالانزجار والإئتمار ، فاللسان يرتل

=

أما تعريف الصحابي عند علماء مصطلح الحديث فهو: (من لقي النبي صلى الله عليه وسلم مؤمناً به ولو ساعة سواء روى عنه أم لا، ومات على الإسلام) . ينظر: قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث لجمال الدين القاسمي (٢٠٠) وتدريب الراوي في شرح تقريب النواوي (٢/ ١٨٦) .

(١) الألحان: هو التلحين، وهي الأصوات المعروفة عند من يتغنى بالقصائد وإنشاء الشعر، وهي سبعة ألحان رئيسية، وقد كرهه بعض السلف وأجازه آخرون بشروط مراعاة قواعد التجويد وعدم الإخلال بها، وذلك بأن لا تخرج عن طريق الأداء التجويدي . ينظر: الإقناع في القراءات السبع لابن الباذش (١/ ٥٥٧) والمصباح الزاهر في القراءات العشر البواهر للشهرزوري (٤/ ١٥٠٠) فقرة (١٤٢٥) وفتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر (١٩/ ٨٦) والتجريد لمعجم مصطلحات التجويد للدكتور: إبراهيم الدوسري (٣٧) .

(٢) الغزالي هو: أبو حامد زين الدين محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسيّ الشافعي الغزالي، صاحب التصانيف، والذكاء المفرط، أشهر كتبه: إحياء علوم الدين، والمستصفى في أصول الفقه، والمقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحُسنى، توفي سنة (٥٠٥ هـ) . ينظر: سير أعلام النبلاء (١٩/ ٣٢٢) ووفيات الأعيان (٤/ ٢١٦) .

والعقل يترجم والقلب [٤] يتعظ » [١] .

ومن أسباب منع فهم القرآن: أن يكون هم القارئ مصروفاً برمته إلى تحقيق الحروف بإخراجها من مخارجها .

قال الغزالي: « وهذا يتولاه شيطان وكِّلَ بالقراء ليصرفهم عن فهم معاني كلام الله ، فلا يزال يحملهم على ترديد الحروف ويخيل لهم أنها لم تخرج من مخارجها ، فهذا يكون تأمله مقصوراً على ذلك ، فأنى تنكشف له المعاني، وأعظم ضحكة للشيطان من كان مطيعاً لمثل هذا التلبيس » [٢] .

[**وبعد**]: هي كلمة يؤتى بها للانتقال من أسلوب إلى آخر[٣] ، أي: بعد ما تقدم من البسملة والحمدلة والصلاة .

[**فهذه**]: إشارة إلى المجمل في الذهن، المنزل لكمال استحضاره منزلة

---

(١) ذكر الغزالي هذا القول في إحياء علوم الدين (١/ ٢٨٧) .

وفي المخطوطة [والانزجار]،[ينزجر] وهو خطأ . والصحيح: [بالانزجار] [يترجم] ، كما في أصل النص ، وكذلك من حيث اللغة لا تستقيم العبارة .

(٢) ذكر الغزالي هذا القول في إحياء علوم الدين (١/ ٢٨٤) – في بيان أسباب منع فهم القرآن ، ونصه: (أن يكون الهَمُّ منصرفاً إلى تحقيق الحروف بإخراجها من مخارجها ، وهذا يتولى حفظه شيطان وكِّلَ بالقراء ليصرفهم عن فهم معاني كلام الله عز وجل ، فلا يزال يحملهم على ترديد الحرف يخيل إليهم أنه لم يخرج من مخرجه ، فهذا يكون تأمله مقصوراً على مخارج الحروف ، فأنى تنكشف له المعاني ، وأعظم ضحكة للشيطان من كان مطيعاً لمثل هذا التلبيس).

وفي المخطوطة [محكة] وهو خطأ ، والصحيح [ضحكة] كما في أصل النص .

(٣) ينظر هذا التعريف في: الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية (١٨٣ ، ٢٣٥).

المحسوس، و (الفاء) إمَّا على توهم (أمَّا) أو على تقديرها في نظم الكلام[١] .

والفرق بين الاعتبارين وما يتفرع على كل مقرر في غير هذا الموضع .

[**قطعة**] أي: حصة في النظم .

[**قليلة**]: عدة أبياتها سبعة عشر ، وهي من الضرب الأول من البحر الكامل ، وإنما عبرت عنها (بالقطعة) - مع أنها إنما تقال على الأبيات المجتمعة سبعة فما دونها أو عشرة كذلك على الخلاف ، وما فوق ذلك يقال له قصيدة - مبالغة في تقليلها عند الطالب وتصغيرها في عينه ليكون ذلك وسيلة لحفظها والاعتناء بها .

[**مشتملة**]: من اشتمال الكل على أجزائه .

[**على فوائد**]: جمع (فائدة) وهي ما يُرغب في استفادته وتحصيله من ديني أو دنيوي ، وعرفها [٥] بعضهم بأنها: ما يكون الشيء به أحسن حالاً منه بغيره ، وبعضهم بأنها: المصلحة المترتبة على الفعل[٢] .

[**جليلة**] أي: عظيمة شريفة لشرف موضوعات مسائلها التي هي الكلمات القرآنية المخصوصة ، ومعلوم أن شرف العلم بشرف موضوعه .

[**مفصحة**]: هذه القطعة ، والإسناد مجازي كـ ـ (هو في عيشة راضية) أي: كاشفة[٣] .

(١) ينظر هذا التعريف في: الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية (١٨٣ ، ١٨٤).

(٢) ينظر تعريف (الفائدة) في: الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية (٦٩٤) .

(٣) الآية: ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ [سورة القارعة: ٧]، فوصف (عيشة) براضية: =

[عما يتحصل لـ] لشيخ أبي سعيد عثمان بن سعيد الملقب بـــ**[ورش]**[(١)] في روايته عن الإمام أبي الحسن نافع بن عبد الرحمن بن أبي نُعيم مولى جَعونة بن شعوب الليثي[(٢)] .

[من طريق الشاطبية]: الذي اختاره ناظمها[(٣)] رحمه الله من بين طرقه الثلاثة، وهو طريق: أبي يعقوب يوسف بن عمرو بن يسار الأزرق[(٤)] .

=

إسناد مجازي ؛ لأنها لا توصف براضية، وإنما تكون مرضية، أي: عيشة ذات رضى .
ينظر لما أشار إليه المؤلف من الإسناد المجازي في معنى الآية: معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٥/ ٣٥٥) وإعراب القرآن للنحاس (٥/ ٢٨١) .
أما تعريف المجاز فهو: اللفظ المستعمل في غير ما وضع له، لعلاقة مع قرينة تمنع إيراد المعنى الحقيقي . ينظر: البلاغة فنونها وأفنانها لفضل عباس (٢/ ١٢٨) .

(١) عثمان بن سعيد بن عدي بن غزوان، أبو سعيد المصري المقرئ، قرأ القرآن وجوّده على نافع عدة ختمات في حدود سنة (١٥٥هـ) ونافع هو الذي لقبه بورش، لشدة بياضه، وكان ثقة حجة في القراءة، توفي سنة (١٩٧هـ). ينظر: معرفة القراء الكبار للذهبي (١/ ١٥٢) وغاية النهاية في طبقات القراء (١/ ٥٠٢) .

(٢) نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم المدني: هو أبو رويم، أحد القراء السبعة والأعلام، أقرأ الناس دهراً طويلاً نيّفاً عن سبعين سنة، وانتهت إليه رئاسة القراءة بالمدينة فصار الناس إليها، توفي سنة (١٦٩هـ) . ينظر: معرفة القراء الكبار للذهبي (١/ ١٠٧) وسير أعلام النبلاء (٧/ ٣٣٦) وغاية النهاية (٢/ ٣٣٠) .

(٣) هو القاسم بن فيره بن خلف بن أحمد الرعيني، أبو القاسم أبو محمد الشاطبي المقرىء الضرير، أحد الأعلام الكبار، صاحب القصيدة اللامية (حرز الأماني ووجه التهاني) المشهورة بالشاطبية، توفي سنة (٥٩٠هـ) . ينظر: معرفة القرّاء الكبار (٢/ ٥٧٣) وغاية النهاية في طبقات القرّاء (٢/ ٢٠) .

(٤) الأزرق: يوسف بن عمرو بن يسار المدني، ثم المصري، لزم ورشاً مدة طويلة وأتقن عنه
=

وطريقه الثاني: أبو بكر محمد بن عبد الرحيم الأصبهاني[١] .

والثالث: أبو الأزهر عبد الصمد بن عبد الرحمن بن القاسم العُـنّقي[٢] صاحب مالك بن أنس[٣] .

[**من الأوجه**]: بيان (لما)، وهي جمع (وجه)، والمراد به عندهم تتوقف معرفته على تقديم مقدمة، وهي: أن الخلاف إما أن يكون للشيخ كنافع ، أو للراوي عنه كورش ، أو للراوي عن الراوي وإن سفل كالأزرق عن ورش والنحاس[٤] عن الأزرق ، أو لم يكن كذلك .

=

الأداء، وجلس للإقراء، وانفرد عن ورش بتغليظ اللّامات وترقيق الرّاءات، وكان ثقة محققاً ضابطاً، أخذ القراءة عرضاً وسماعاً عن ورش، وهو الذي خلفه في القراءات والإقراء بمصر، توفي سنة (٢٤٠هـ) . ينظر: معرفة القراء الكبار (١/ ١٨١) وغاية النهاية في طبقات القراء (٢/ ٤٠٢) .

(١) محمد بن عبد الرحيم بن إبراهيم بن شبيب الأصبهاني، أبو بكر المقرئ، شيخ القراء في زمانه، قرأ لورش على عامر الجرشي وسليمان بن أخي الرشيدي، توفي سنة (٢٩٦هـ) .ينظر: معرفة القراء الكبار (١/ ٢٣٢) وغاية النهاية في طبقات القراء (٢/ ١٦٩) .

(٢) عبد الصمد بن عبد الرحمن بن القاسم العنقي، أبو الأزهر المصري، أحد الأئمة الأعلام، صاحب الإمام مالك بن أنس راو مشهور بالقراءة متصدر، ثقة، أخذ القراءة عرضاً عن ورش، توفي سنة (٢٣١هـ) .ينظر: معرفة القراء الكبار (١/ ١٨٢) وغاية النهاية في طبقات القراء (١/ ٣٨٩) .

(٣) مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمرو، أبو عبد الله المدني، صاحب المذهب المالكي، إمام دار الهجرة، توفي سنة (١٧٩هـ) . ينظر: سير أعلام النبلاء (٨/ ٤٨) .

(٤) النحّاس: إسماعيل بن عبد الله بن عمرو بن سعيد بن عبد الله، أبو الحسن النحاس، مقرئ الديار المصرية، جوّد القرآن على أبي يعقوب الأزرق صاحب ورش، وتصدّر للإقراء مدّة، فقرأ عليه خلقٌ لإتقانه وتحريره وبصره بمقرأ ورش، توفي سنة (٢٨٠هـ) .

=

فإن كان للشيخ بكماله ، أي مما اجتمعت عليه الروايات والطرق عنه (فقراءة) ، وإن كان للراوي عن الشيخ (فرواية) ، وإن كان لمن بعد الرواة وإن سفل [٦] (فطريق) ، وما كان على غير هذه الصفة مما هو راجع إلى تخيير القارئ فيه فهو (وجه) [(١)] .

والفرق بين خلاف الأوجه وخلاف غيرها: أن خلاف القراءات والروايات والطرق خلاف نص ورواية ، فلو أخل القارئ بشيء منها كان نقصاً في الرواية .

وخلاف الأوجه ليس كذلك ، إذ هو على سبيل التخيير ، فبأي وجه أتى القارئ أجزأ في تلك الرواية ، ولا يكون إخلالاً بشيء منها[(٢)] ، فلا حاجة لجمعها في موضع واحد بلا داع ، ومن ثم كان بعضهم: لا يأخذ منها إلا بالأقوى ويجعل الباقي مأذوناً فيه .

وبعضهم: لا يلتزم شيئاً بل يترك القارئ يقرأ بما شاء .

=

ينظر: معرفة القراء الكبار (١/ ٢٣١) وغاية النهاية في طبقات القراء (١/ ١٦٥) .

(١) مثل أوجه البسملة بين السورتين من حيث إثبات البسملة وعدمه والتخيير بين ذلك: كإثبات البسملة بين السور قراءة قالون وابن كثير وعاصم والكسائي، والوصل بين السورتين بدون بسملة قراءة حمزة، والتخيير بين الأوجه الثلاثة (البسملة، والسكت، والوصل) لورش وأبي عمرو وابن عامر .

ينظر ما ذكره المؤلف من تعريف الأوجه وغيرها في: النشر في القراءات العشر (٢/ ١٩٩) .

(٢) ينظر كلام المؤلف في: النشر في القراءات العشر (٢/ ٢٠٠) وغيث النفع في القراءات السبع (١٢) .

وبعضهم: يقرأ بواحد في موضع وبآخر في غيره لتجمع الجميع المشافهة[(١)].

وبعضهم: يجمعها في أول موضع أو موضع ما .

وجمعها في كل موضع تكلف مذموم ، وإنما ساغ[(٢)] الجمع بين الأوجه في نحو البدل عند ورش، وفي نحو التسهيل ، ووقف حمزة [(٣)]، لتدريب القارئ المبتدئ ، فيكون على سبيل التعريف ، فلذا لا يكلف العارف بها في كل محل[(٤)] .

---

(١) في المخطوطة [المشاغلة] والصواب: [المشافهة] ؛ حيث لا يستقيم المعنى إلا بها، كما في: النشر في القراءات العشر (١/ ٢٦٨) و غيث النفع في القراءات السبع (١٢) .

(٢) في المخطوطة [شاع] بمعنى (اشتهر) والصواب: [ساغ] بمعنى (جاز) ينظر: النشر في القراءات العشر (١/ ٢٦٨).

(٣) هو حمزة بن حبيب بن عُمارة الزيات، أبو عُمارة، الإمام الحبر، صارت إليه الإمامة في القراءة بعد عاصم، عرض القرآن على حُمْران بن أعين، وأبي إسحاق السَّبيعي، وغيرهما، وروى القراءة عنه علي الكسائي، وسليم بن عيسى، وغيرهما، أخرج له مسلم والأربعة، مات سنة (١٥٦هـ) . ينظر: طبقات القراء للذهبي (١/ ١١٢) وغاية النهاية لابن الجزري (١/ ٢٦١) .

(٤) ذكر المؤلف كلام ابن الجزري بتصرف، وهو ما نصه: « أن هذه الأوجه ونحوها الواردة على سبيل التخيير إنما المقصود بها معرفة جواز القراءة بكل منها على وجه الإباحة لا على وجه ذكر الخلف، فبأي وجه قرئ منها جاز، ولا احتياج إلى الجمع بينها في موضع واحد، إذا قصد استيعاب الأوجه حالة الجمع والإفراد... وكذلك كان بعض المحققين لا يأخذ منها إلا بالأصح الأقوى، ويجعل الباقي مأذوناً فيه، وبعضهم لا يلتزم شيئاً بل يترك القارئ يقرأ بما شاء منها ؛ إذ كل ذلك جائز مأذون فيه، منصوص عليه . وبعض مشايخنا يرى أن يجمع بين هذه الأوجه على وجه آخر، فيقرأ بواحد منها في موضع وبآخر في غيره ليجمع الجميع المشافهة، وبعض أصحابنا يرى الجمع بينها في أول =

[عند تركب البدل مع اللين] [1] ، أي: اجتماعهما في آية واحدة أو قرآن

=

موضع وردت، أو في موضع مّا على وجه الإعلام والتعليم وشمول الرواية .
أما من يأخذ بجمع ذلك في كلّ موضع فلا يعتمده إلا متكلف غير عارف بحقيقة أوجه الخلاف، وإنما ساغ الجمع بين الأوجه في نحو التسهيل في وقف حمزة لتدريب القارئ المبتدئ ورياضته على الأوجه الغريبة ؛ ليجري لسانه ويعتاد التلفظ بها بلا كلفة، فيكون على سبيل التعليم، فلذلك لا يكلف العارف بجمعها في كل موضع » . النشر في القراءات العشر (١/ ٢٦٨) .

(١) في المخطوطة: [تركب] والعبارة المستعملة عند علماء القراءات: [تركيب] كما سيأتي في قول المؤلف: [وصور التركيب].
تعريف تركيب القراءات: هو التنقل بين القراءات أثناء التلاوة من غير إعادة لأوجه الخلاف، ودون الالتزام برواية معينة، كأن يقرأ (وهو) في موضع بضم الهاء، وفي موضع آخر بإسكانها، ويعبر عنه بـ (الخلط) وبـ (التلفيق) وفي جوازه خلاف بين العلماء .
ينظر: منجد المقرئين ومرشد الطالبين لابن الجزري (٧٧) والنشر في القراءات العشر لابن الجزري (١/ ١٨) ومختصر العبارات لمعجم مصطلحات القراءات (٤٦) .
قال ابن الجزري:- فيما يتعلق بتركيب القراءات- « لم يتعرض أحد من أئمة القراءة في تواليفهم لهذا الباب - جمع القراءات في ختمة واحدة - ... إنما كانوا يقرئون على الشيخ الواحد العدّة من الروايات، والكثير من القراءات، كل ختمة برواية، لا يجمعون رواية إلى غيرها، وهذا الذي كان عليه الصدر الأول ومن بعدهم إلى أثناء المائة الخامسة، عصر الداني وابن شيطا والأهوازي والهذلي ومن بعدهم، فمن ذلك الوقت ظهر جمع القراءات في الختمة الواحدة، واستمر إلى زمننا، وكان بعض الأئمة يكره ذلك من حيث إنه لم تكن عادة السلف عليه، ولكن الذي استقر عليه العمل هو الأخذ به والتقرير عليه وتلقيه بالقبول، وإنما دعاهم إلى ذلك فتور الهمم وقصد سرعة الترقي والانفراد، ولم يكن أحد من الشيوخ يسمح به إلا لمن أفرد القراءات، وأتقن معرفة الطرق والروايات، وقرأ لكل قارئ ختمة على حدة ». النشر في القراءات العشر (٢/ ١٩٤) وينظر أيضاً: غيث النفع (٩) .
تعريف مد البدل هو: أن يتقدم الهمز على حرف مدّ في كلمة واحدة . أو هو: ما وقع من
=

واحد، والظرف متعلق بـــ(يتحصل).

والمراد بالأول[١]: ما وقع بعد همز ثابت، نحو: ﴿ءَامَنُواْ﴾[٢] و﴿أُوتُواْ﴾[٣] و﴿إيمان﴾[٤]، أو مغير بنقل أو إبدال أو تسهيل نحو: ﴿مَّنْ ءَامَنَ﴾[٥]

=

حروف المد بعد همز محقق، نحو: ﴿ءَامَنُواْ﴾، ﴿إيمان﴾، ﴿أُوتُواْ﴾.

ينظر: فتح الوصيد (١/ ١٧٩) والنشر في القراءات العشر (١/ ٣١٣) والتجريد لمعجم مصطلحات التجويد (٨٩).

تعريف مد اللين هو: المد الموجود في الياء والواو الساكنتين المفتوح ما قبلهما.

ينظر: الإضاءة في بيان أصول القراءة للضباع (١٦) ونهاية القول المفيد لمحمد مكي نصر (١٨٩).

وإذا كانت الياء أو الواو مع الهمزة في كلمة وقبلهما فتحة، نحو: ﴿شَىْءٍ﴾، ﴿شَيْـًٔا﴾، ﴿كَهَيْـَٔةِ﴾. فلورش فيه وجهان: التوسط والطول وصلاً ووقفاً.

لأن التوسط والطول: صفتان مرتبطتان في امتداد الصوت ولينه، وذلك في الألف والياء الساكنة المفتوح ما قبلها، والواو الساكنة المفتوح ما قبلها، نحو: ﴿بَيْتٍ﴾، ﴿خَوْفٌ﴾.

ينظر: فتح الوصيد في شرح القصيد للسخاوي (١/ ١٨٤) وإبراز المعاني من حرز الأماني لأبي شامة (١٢٣).

(١) المراد بالأول هو: البدل.

(٢) الآية: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [سورة البقرة: ٢٥].

(٣) الآية: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [سورة البقرة: ١٤٤].

(٤) الآية: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [سورة الأنعام: ٨٢].

(٥) الآية: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [سورة البقرة: ١٧٧].

﴿ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً ﴾[1] ﴿ جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ﴾[2]، وله في هذا النوع ثلاثة أوجه مترتبة: القصر والتوسط والطول إلا ما استثني[3].

(١) الآية: ﴿ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ﴾ [سورة الأنبياء: ٩٩].

(٢) الآية: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ [سورة الحجر: ٦١].

(٣) تعريف القصر هو: ترك زيادة المد. أو هو: إثبات حروف المد واللين، أو اللين فقط من غير زيادة عليها.

تعريف المد هو: عبارة عن زيادة المد في حروف المد لأجل همزة أو سكون. أو هو: طول زيادة حروف المد أو اللين فقط عن مقداره الطبيعي الذي لا تقوم ذواتها بدونه.

تعريف التوسط هو: حالة بين المد والقصر.

تعريف الطول هو: إطالة الصوت بحروف الممدود.

ينظر: فتح الوصيد في شرح القصيد (١/ ١٧٦) وإبراز المعاني من حرز الأماني (١١٣) والإضاءة في بيان أصول القراءة (١٥).

أما قوله: [إلا ما استثني] فبمعنى: ما استثني من مدّ البدل لورش، ومن لم يقصر لورش فقصره هو ياء (إسرائيل) كما قال الشاطبي: سوى يا إسرائيل أو بعد ساكن صحيح كقرآن ومسئولاً اسألا.

وما وقعت الهمزة فيه بعد ساكن ليس بحرف علة، وما وقع من حروف المد بعد همزة الوصل المجتلبة للابتداء، نحو: ﴿ ٱئْذَن لِّي ﴾ [سورة التوبة: ٤٩]، ﴿ ٱؤْتُمِنَ ﴾ [سورة البقرة: ٢٨٣]، ﴿ ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ ﴾ [سورة يونس: ١٥].

وما وقع بعد ساكن صحيح مثل: ﴿ ٱلْقُرْءَانِ ﴾ [سورة البقرة: ١٨٥]، ﴿ مَسْـُٔولًا ﴾ [سورة الإسراء: ٣٤]، ﴿ ٱلظَّمْـَٔانُ ﴾ [سورة النور: ٣٩].

ينظر: فتح الوصيد في شرح القصيد (١/ ١٨٠) وإبراز المعاني من حرز الأماني (١١٧) والنشر في القراءات العشر (١/ ٣٣٩) وإتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر (١/ ١٦١).

والمراد بالثاني: [٧] اللين الواقع قبل همز، نحو ﴿ شيء ﴾[(١)] و﴿ سوء ﴾[(٢)] لأنه الذي انفرد به ورش، فأجاز فيه الوجهين: التوسط والمد وصلاً ووقفاً لا مطلق اللين، ويستثنى له من ذلك ﴿ ٱلْمَوْءُۥدَةُ ﴾ بالتكوير[(٣)]، و ﴿ مَوْئِلًا ﴾ بالكهف[(٤)]، فليس له فيهما إلا القصر[(٥)].

وأما واو ﴿ سوءات ﴾[(٦)] فظاهر متن الشاطبية أن فيها ثلاثة أوجه[(٧)]،

---

(١) الآية: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [سورة البقرة: ٢٠].

(٢) الآية: ﴿ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ﴾ [سورة التوبة: ٩٨].

(٣) الآية: ﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴾ [سورة التكوير: ٨].

(٤) الآية: ﴿ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴾ [سورة الكهف: ٥٨].

(٥) تقدم التعريف بمد اللين بأنه إذا كانت الياء أو الواو مع الهمزة في كلمة وقبلها فتحة، نحو: ﴿ شَىْءٍ ﴾ [سورة البقرة: ٢٠]، ﴿ شَيْـًٔا ﴾ [سورة البقرة: ٤٨]، ﴿ كَهَيْـَٔةِ ﴾ [سورة آل عمران: ٤٩]، ﴿ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ ﴾ [سورة يوسف: ٨٧]، ﴿ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ﴾ [سورة الفرقان: ٤٠]، ﴿ سَوْءَةَ ﴾ [سورة المائدة: ٣١]، فأهل الأداء على وجهين لورش: التوسط والمدّ وصلاً ووقفاً. قال الشاطبي:

وإن تسكن الياء بين فتح وهمزة ⊙ بكلمة أو واو فوجهان جمّلا

بطول وقصر وصل ورش ووقفه ⊙ وعند سكون الوقف للكلّ أعملا.

ينظر: فتح الوصيد في شرح القصيد (١/ ١٨٤) وإبراز المعاني من حرز الأماني (١٢٣) والنشر في القراءات العشر (١/ ٣٤٦).

(٦) الآية: ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا ﴾ [سورة الأعراف: ٢٠].

(٧) وفي ذلك قال الشاطبي:

وفي واو سوءات خلاف لورشهم ⊙ وعن كلّ الموءودة اقصر وموئلاً.

ينظر: فتح الوصيد في شرح القصيد (١/ ١٨٦) وإبراز المعاني من حرز الأماني (١٢٥) =

وعليه فيتحصل من تركبها مع البدل تسعة أوجه ، حاصلة من ضرب ثلاثة (الواو) في ثلاثة (البدل)[1]، وعلى هذا فيكون مستثنى مما سبق ، لكن قال الشيخ الإمام العالم العلامة محمد بن إسماعيل البقري[2]: « ليس كلام الشاطبي على ظاهره ، فإن الإمام الشيخ محمد ابن الجزري[3] صرح في نشره

=

والنشر في القراءات العشر (١/ ٣٤٧) .

(١) تحرير مسألة واو (سوءات): فيما لو أتى مع (سوءات) ذات ياء، كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [سورة الأعراف: ٢٦] . كان فيها خمسة أوجه وهي: قصر البدل والواو مع فتح ذات الياء، ثم توسط البدل، وفي (الواو) وجهان: توسط وقصر مع التقليل، ثم مدّ البدل مع قصر الواو مع الفتح والتقليل . ينظر: إتحاف فضلاء البشر (١/ ٢٢٦٤) وغيث النفع في القراءات السبع (١١٢) ومختصر بلوغ الأمنية (١٩) .

(٢) هو العلامة شمس الدين الضرير أبو عبد الله شيخ المقرئين محمد بن القاسم بن إسماعيل البقري الشافعي الأزهري الشناوي، ولد سنة (١٠١٨ هـ)، وتوفي سنة (١١١١هـ)، أخذ علم القراءات عن العلامة عبد الرحمن بن شحادة اليمني، وقرأ عليه عدد من العلماء لا يحصى كما قرأ عليه غالب علماء مصر، وله مؤلفات عديدة منها: (١) القواعد المقررة والفوائد المحررة، وهي المعروفة بالقواعد البقرية في القراءات السبعة . (٢) غنية الطالبين ومنية الراغبين في التجويد . (٣) العمدة السنية في أحكام النون الساكنة والتنوين والمد والقصر ولام الفعل واللام القمرية والشمسية . ينظر: هداية القاري للمرصفي (٧٢٧) ومعجم المؤلفين لعمر كحالة (٩/ ٥٤) .

(٣) هو محمد بن محمد بن محمد، أبو الخير الجزري الشافعي، إمام فن القراءات والمقرئين ومحققها، توفي سنة (٨٣٣هـ).

ينظر: غاية النهاية في طبقات القراء (١/ ١) وخلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (٢/ ١٩٧) .

وطيبته بأربعة أوجه: القصر في همزة ﴿سوءات﴾، والتوسط والمد مع القصر في (الواو)، والتوسط في (الواو) مع التوسط في (الهمز) ليس إلا ، هذا ما قرأنا به على شيخنا ». انتهى كلام البقري[1] .

وجمع ابن الجزري الأوجه الأربعة في بيت، فقال:

وسوءات قصر الواو والهمز ثلثا ⊙ ووسطهما فالكل أربعة فادر[2]

[أو] مع **[المهال]** ، أي: اللفظ الذي شأنه أن يمال ، والمراد الكلم ذوات (الياء) التي له فيها وجهان: الفتح والإمالة ، أي: الإمالة الصغرى، التي هي إلى الفتح أقرب ، ويعبر عنها: بـــ (التقليل) ، و بـــ (بين بين) [3] ، وإنما

---

(١) القواعد المقررة والفوائد المحررة للبقري (٢٩٠) .

(٢) قال ابن الجزري:- بعد ذكره اختلاف العلماء في تمكين واو (سوءات)- « فعلى هذا لا يتأتى فيها لورش سوى أربعة أوجه، وهي قصر الواو مع الثلاثة في الهمزة طريق من قدمنا، والرابع التوسط فيها طريق الداني، والله أعلم، وقد نظمت ذلك في بيت وهو:
وسوآت قصر الواو والهمز ثلثا ⊙ ووسطهما فالكل أربعة فادر » .
النشر في القراءات العشر (١/ ٣٤٧) وطيبة النشر (٤٢) وينظر أيضاً: إتحاف فضلاء البشر (١/ ١٧٠) ومختصر بلوغ الأمنية (١٩) .

(٣) تعريف الفتح هو: عبارة عن فتح القارئ فاه بلفظ الحرف . أي: الألف إذ لا تقبل الحركة .
تعريف الإمالة هي: تقريب الفتحة من الكسرة، والألف من الياء من غير قلب خالص ولا إشباع مبالغ فيه، وتسمى بالإمالة الكبرى وبالإضجاع .
تعريف التقليل هو: عبارة عن النطق بالألف بحالة بين الفتح المتوسط والإمالة المحضة. ويسمى التقليل أيضاً: بالإمالة الصغرى .
ينظر: السبعة في القراءات لابن مجاهد (١٤١،٦٨٨) والمبسوط في القراءات العشر لابن مهران (١١٢) والموضح في وجوه القراءات وعللها لابن أبي مريم (٢/ ٢١٦) والنشر =

أطلقت في موضع التقييد اعتماداً على شهرة ذلك عند أرباب هذا الفن .

[**أو**] تركب [**اللين مع الممال**] المذكورين [**أو**] تركب [**الثلاثة**] البدل واللين [٨] والممال[١] .

[**صُغْتُ بها**]: من (الصياغة) ويعبر بها عن إتقان الشيء وإحكامه ، والمعنى أني أتقنتها وجعلت مادتها [**ما نقحه**] أي: هذبه وحرره[٢] [**المشاهير من النقلة**] بالفتحات جمع (ناقل) أي: الناقلين عن ورش [**ونقَّاه**] عطف على نقحه ، وهو بتشديد (القاف)[٣] أي: خلّصه وصفّاه [**نُفَاةُ الغَثِّ من السمين**] أي: النافون الذين دأبهم نفي رديء الكلام عن جيده وتمييزه عنه، ليؤخذ الجيد خالصاً نقياً، ويرمى سواه إلى الوراء ظهرياً [**من الفضلة**] بالفتحات جمع (فاضل) وهو بيان للنفاة [**رامزاً**] هو حال من فاعل (صغت) أي: واضعاً على سبيل الرمز [**للبدل باء، وللين لاماً، وللممال ميماً**] اقتصاراً من اللفظ على حرف منه ، وتعبيراً به مراداً منه إياه [**روماً**] أي: طلباً [**للاختصار**] وهو: تقليل اللفظ وتكثير المعنى ، وبالجملة فهي طريقة شرعتها وأوضاع اخترعتها ، فيها من لطف الإشارة ما يغني عن طول العبارة ، وكأني بالبعض وقد بلغه شذاها ينكر فضلها ويحقر

= في القراءات العشر (٢/ ٢٩) والإضاءة في بيان أصول القراءة للضباع (٣٠)، ومختصر العبارات لمعجم القراءات للدكتور: إبراهيم الدوسري (٤٨) .

(١) ستأتي هذه المسائل مفصلة في الصورة الخامسة، وينظر: إتحاف فضلاء البشر (١/ ١٦٩).

(٢) في المخطوطة [حوره]، والصواب: [حرره] كما يحكمها السياق .

(٣) في المخطوطة [القاء] بالهمز، والصواب: [القاف] .

جدواها[1] ، فإن كان ذو عيب في ريب فليأت بمثله أو ليمت بغيظه في جهله .

[**فعبرت بـ(بلَّ)**] أي: بهذا اللفظ [**عن كلما**] أي: كل موضع من كلام الله عز وجل [**اجتمع فيه البدل واللين مع تقدم البدل**] على اللين، فهاهنا معنيان دُلَّ على أحدهما بجوهر اللفظ، وأشير إلى الآخر بصفته ، وكذا [٩] يقال فيما بعده .

[**و**] عبرت بـ[**(بلِّم) عن كلما اجتمع فيه الثلاثة**] السابقة: البدل واللين والممال [**مع تقدم البدل**] عليهما [**وتوسط اللين**] بينه وبين الممال ، ويلزم منه تأخر الممال ، ولذا لم أذكره .

[**وقس الباقي**] من الرموز على ما ذكرنا، وقل فيه مثل ما قلنا ، والـمُثُل ستأتي كُلًّا قُبيل رمزه .

[**وصور التركيب**] الواقع بينها ، أي: ما يصدق عليه اسمه أعم من أن يكون ثنائياً أو ثلاثياً [**على ما اقتضاه العقل**] هو مأخوذ من (عقال البعير) لكونه يمنع ذويه من العدول عن سواء الطريق ، ومن بلاغات الزمخشري[2]: « هو عقلك ليعقلك ، وحجرك ليحجرك ، ونهيتك

---

(١) في المخطوطة [جذواها] بالذال، والصواب: [جدواها] بالدال، وذلك لعدم استقامة معنى الأولى .

(٢) الزمخشري هو: محمود بن عمر بن محمد الخوارزمي الزمخشري، من أئمة اللغة والتفسير، من مؤلفاته: الكشاف، وأساس البلاغة وغيرها، توفي سنة (٥٣٨هـ). ينظر: طبقات المفسرين للسيوطي (٢/ ٣١٤) والأعلام للزركلي (٧/ ١٧٨) .

لينهاك»[1] .

وفي حقيقته اختلاف كثير ، قال بعضهم: والصحيح أنه جوهر تدرك به الغائبات بالوسائط ، والمحسوسات بالمشاهدة[2]**[ووافقه الوجود]** في كلام الله عز وجل **[ثنتي عشر]** صورة ستة ثنائية ، ومثلها ثلاثية ، وذلك لأن المجتمع إن كان اثنين منها ، فهما إما البدل مع اللين أو هو مع المال أو اللين مع المال ، وكل من هذه الثلاثة إما أن يؤخذ طرداً أو عكساً[3] .

وإن كان المجتمع الثلاثة فكل منها إما أن يتقدم أو يتوسط أو يتأخر ، وكل من هذه إما مع طرد الباقي أو عكسه **[وكان حق الرموز]** المقصود بها تأدية هذه الصور **[أن تكون كذلك]** اثني عشر رمزاً بعددها **[لكني استغنيت في الثنائيات [١٠] عن الرمز لصورة]** هي صورة تركب المال واللين مع

(١) مقامات الزمخشري (١/ ٢٥)، وينظر: أساس البلاغة للزمخشري، مادة (حجر) و (عقل) و (نهى) (٧٤، ٢٠٩، ٤٧٤)، والقاموس المحيط (١٣٣٦) مادة (عقل) . قال ابن فارس: « مادة (عقل) العين والقاف واللام أصل واحد منقاس مطرد، يدل عُظمُه على حُبسة في الشيء، أو ما يقارب الحُبسة من ذلك العقل، وهو الحابس عن ذميم القول والفعل » . معجم مقاييس اللغة (٤/ ٦٩) .

(٢) في المخطوطة [بالمشاهد]، والصواب: [بالمشاهدة]، وهي التي تستقيم مع التعريف المشار إليه، وكما في الكليات للكفوي (٦٧،٦١٧) بأنه جوهر تدرك به الغائبات بالوسائط، والمحسوسات بالمشاهدة .

(٣) الطرد: هو الاطراد، تقول: (اطرد الأمر) أي: تبع بعضه بعضاً وجرى، وهو أنه كلما وجد الحدّ وجد المحدود .
العكس: هو أنه كلما انتفى الحدّ انتفى المحدود، أو كلما وجد المحدود وجد الحدّ . ينظر: الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية (١٤٠) .

تقدم المال فلم أرمز لها [**كما ستعرفه**] في بيت لم أكتف بقولي فيه: (والعكس يجري هكذا لن يعدلا) ، [**وسميتها: منحة ذي العرش فيها يتعلق بقراءة ورش راجياً**] من الله [**أن تكون**] هذه المنظومة [**مُقدِّمة**] بكسر الدال أشهر من فتحها، أي: وسيلة موطئة وممهدة [**لمنحته**] وعطائه [**منتجة**] أي: مفيدة ومثمرة [**للخلاص**] أي: النجاة [**من محنته**] وبلائه [**إنه جواد**] بالتخفيف ، وحكي فيه التثقيل ، أي: كثير الجود والعطاء [**كريم**] يبدأ بالنوال قبل السؤال أو مطلقاً ، ولذا فسر: بأنه الذي عم عطاؤه جميع خلقه بلا سبب منهم [**رؤف**] بعباده [**رحيم**] لهم ، والرأفة والرحمة مترادفتان، أو الأولى أخص مطلقاً [١] .

وقد آن لي أن أشرع في المقصود متوكلاً على الملك المعبود، فأقول:

❁[٢]- **الصورة الأولى**: من صور التركيب: تركب البدل واللين مع تقدم

---

(١) الرأفة: تكون مبالغة في رحمة مخصوصة، وهي: رفع المكروه وإزالة الضرر، والرحمة هي: أن يوصل إليك المسار . فذكر الرحمة بعد الرأفة في القرآن مطرد . ينظر: الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية (٤٧١) .

قال أبو جعفر: « ويعني بقوله جل ثناؤه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة البقرة: ١٤٣] أن الله بجميع عباده ذو رأفة، والرأفة على معاني الرحمة، وهي عامة لجميع الخلق في الدنيا ولبعضهم في الآخرة، وأما الرحيم، فإنه ذو الرحمة للمؤمنين في الدنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [سورة الأحزاب: ٤٣] ». تفسير جامع البيان للطبري (٢/ ٦٥٤) .

(٢)[❁] هذه علامة أرمز بها إلى بداية شرح كل بيت من أبيات المنظومة .

البدل[1] ، وهي المشار إليها بقولي [بَـلًّا] .

مثالها: قوله تعالى: ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ ﴾ الآية[2] [على غير الطويل] من أوجه البدل ، أعني: على القصر والتوسط [فوسطن] لينه ، أي: كرره معهما [وعليه] أي: على المد في البدل [وسط] لينه أيضاً أولاً [ثم مُدَّ مطولاً] له ثانياً .

فهذه أربعة أوجه[3] ، وكان مقتضى القسمة العقلية: أن يكون في مثل ذلك ستة أوجه ، حاصلة من ضرب [١١] وجهي اللين في ثلاثة البدل ، لكن امتنع اثنان وهما الطول في اللين مع القصر والتوسط في البدل ،

---

(١) ينظر صور التركيب في: النشر في القراءات العشر (١/ ٣٤٦) وإتحاف فضلاء البشر (١/ ١٦٩) وغيث النفع في القراءات السبع (٣٠) والبدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة (٣٨) .

(٢) تكملة الآية: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [سورة البقرة: ١٠٦].

(٣) إذا اجتمع البدل واللين مع تقدم البدل فلورش أربعة أوجه:

الأول: قصر البدل وتوسط اللين .

الثاني: توسط البدل ومدّ اللين .

الثالث: مدّ البدل مع توسط اللين .

الرابع: مدّ البدل ومدّ اللين .

وهذا ما أشار إليه المؤلف في منظومته:

بلّا على غير الطويل فوسطن ۞ وعليه وسّط ثم مدّ مطولا .

ينظر أيضاً: النشر في القراءات العشر (١/ ٣٤٧) وإتحاف فضلاء البشر (١/ ١٦٩) والبدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة (٣٨) .

لامتناع بناء القوي على الضعيف[١] ، وفيه أن القراءة سنة متبعة لا دخل للدراية فيها[٢] .

وَرُدَّ: بأنها رواية وافقتها الدراية ، وما ذكر حِكْمَةٌ ، لا علة يثبت الحكم بثبوتها وينتفي بانتفائها .

بقي ههنا شيء لا بأس بالتنبيه عليه، وهو: أنه إذا أريد تقرير أوجه المركبين أو المركبات وتبيينها يقال: يؤتى مثلاً بكذا على كذا بإدخال لفظة (على) على المتقدم ، وكثيراً ما يستعمل بالعكس بأن تدخل على المتأخر ، والطريقان صحيحان مؤديان المقصود واختلاف العبارات باختلاف الاعتبارات .

أما الأول: فعلى لمح معنى نحو (البناء) لأن القارئ الذي يريد أن يجمع بين الأوجه يستقر على الأول من الأمرين أو الأمور ويكرر ما بعده

---

(١) وذلك لما تقرر في علم التجويد بأن سبب المد في البدل هو الهمز، حيث وقع حرف من حروف المد بعد همز، سواءً كان ذلك الهمز ثابتاً أو مغيراً، ويُعنى بالثابت الباقي على لفظه وصورته، وبالـمُغير ما لحقه نقل، أو تسهيل، أو إبدال على ما بين في مواضعه، بخلاف ذلك في اللين، فإنه وقعت الهمزة بعد السكون في كلمة واحدة وهو كمد متصل بعينه وهو أقوى سبب، كالهمز المتأخر عن حرف المد . ينظر: فتح الوصيد (١/ ١٧٩) وإبراز المعاني (١١٥) وإتحاف فضلاء البشر (١/ ١٦٢) .

(٢) القول بأن القراءة سنة متبعة، هي قاعدة أساسية معروفة عند سلف الأمة، كما نقل ذلك عن غير واحد من الصحابة، كعمر بن الخطاب، وزيد بن ثابت، ولم يعرف لهم مخالف في ذلك فصار إجماعاً عند الصحابة رضي الله عنهم، ومن بعدهم . ينظر: المعجم الكبير للطبراني (٥/ ٤٦) ومعرفة السنن والآثار للبيهقي (٢/ ٢٠٩) والسنن الكبرى للبيهقي (٢/ ٣٨٥) وكتاب السبعة لابن مجاهد (٤٩) .

حتى تنفد أوجهه فكأنه يفرعها عليه .

وأما الثاني: فعلى لمح معنى نحو (المرور) لأن القارئ المذكور يبدأ بالأول ويمر على الثاني فيأتي به معه .

والطريق الثاني وإن كان في كلامهم أكثر إلا أن وجه الأول عندي أظهر ، ولذا جريت عليه في المنظومة ، ومنه قولي: (بَـلَّا على غير الطويل فوسطن) وإلا لقلت: (بَـلَّا على التوسيط فاقصر وامددن) أو نحو ذلك .

❁- **الصورة الثانية**: عكس التي مرت ، وإليها أشرت بقولي [**لـبًّا**] ، مثالها قوله تعالى [١٢]: ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾[1] [**مع التوسيط**] في لينه [**ثَلث مَدَّهُ**] أي: أئت بأوجه مد البدل فيه الثلاثة [**والطول**] في لينه [**معه**] بتسكين العين [**الطول**] في بدله [**خذ**] أي اقرأ بذلك [**وسواه**] من القصر والتوسط في البدل [**لا**]

---

(١) أي أن يتقدم مد اللين على مد البدل، كما في هذا المثال الذي ذكره المؤلف، وهو قوله تعالى: ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [سورة الذاريات: ٤٩-٥١] .

ففيه لورش أربعة أوجه، وهي:

الأول: توسط اللين مع قصر البدل .

الثاني: توسط اللين والبدل .

الثالث: توسط اللين مع طول البدل .

الرابع: تطويل مدّ اللين ومدّ البدل .

وهذا ما أشار إليه المؤلف في منظومته بقوله:

لـبّـاً مع التوسيط ثلّث مدّه ❁ والطول معه الطول خذ وسواه لا .

تأخذ به معه ، والطول الأول يجوز فيه النصب والرفع ، وليس في الثاني إلا النصب[١] .

❁- **الصورة الثالثة**: تركب البدل والممال مع تقدم البدل ، وهي التي أشرت إليها بقولي [**بَمَّ**] ، مثالها قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ ﴾ الآية[٢] ، [**اقصرنّ**] البدل [**فافتح**] حينئذ الممال وجهاً واحداً ، [**وإن وسّطت**] أنت البدل [**لا**] تفتح الممال بل قلله وجهاً واحداً .

تنبيه: قد يتوهم أني توسعت بحذف [الفاء] من [لا] وأن ذلك من قبيل قول الشاعر:

---

(١) المقصود بالطول الأول: هو الذي فيه الرفع في قول المؤلف: (والطولُ معه الطولَ خذ وسواه لا) .

(٢) تكملة الآية: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [سورة البقرة: ٣٤] .

ففي هذا المثال الذي اجتمع فيه البدل وذات الياء مع تقدم البدل، فلورش فيه أربعة أوجه:

الأول: قصر البدل مع فتح ذات الياء .

الثاني: تطويل البدل مع فتح ذات الياء .

الثالث: توسط البدل مع تقليل ذات الياء .

الرابع: تطويل البدل مع تقليل ذات الياء .

وهذا ما أشار إليه المؤلف في منظومته بقوله:

بـمّ اقصر فافتح وإن وسطت لا ❁ وافتح وقلل إن مددت مرتلا .

ينظر أيضاً: إتحاف فضلاء البشر (١/ ٢٦٣) وغيث النفع في القراءات السبع (٣٨) والبدور الزاهرة (٣٠) .

مَنْ يَفْعَلِ الحَسَنَاتِ اللهُ يَشْكُرُهَا ⊙ وَالشَّرُّ بِالشَّرِّ عِنْدَ اللهِ سِيّانِ .

وليس كذلك ، إذ الإتيان بها في هذا النحو جائز لا واجب[1] ، بخلاف ما ذكر للفرق بين المقامين كما لا يخفى[2] .

[**وافتح وقلل**] في الممال، مقدماً الفتح بكونه الأصل [**إن مددت**] البدل.

وقولي [**مرتلاً**] القصد منه تكميل البيت ، ولا يخفى وجه مناسبته للمد .

❁- **الصورة الرابعة:** عكس التي قبلها وإليها الإشارة بقولي [**مَبّاً**] ، مثالها قوله تعالى: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ ﴾ الآية[3] ، [**على الفتح**] في الممال [**اقصرن**] بدله

---

(١) في المخطوطة: [إذ الإتيان في هذا النحو] يظهر لي أن العبارة الصحيحة: [إذ الإتيان بها في هذا النحو] فيكون لفظ [بها] ساقطاً من النسخة الخطية، أو أن العبارة الصحيحة:[إذ الإثبات في هذا النحو] فتكون لفظة [الإثبات] تصحفت إلى [الإتيان] .

(٢) تقرر في علم النحو أن (فاء) جواب الشرط يحذف للضرورة كما في البيت المذكور .

وينسب هذا البيت عند الأكثرين لعبد الرحمن بن حسان بن ثابت، وقيل: إنه لكعب بن مالك، وذكره النحاة لبيان جواز حذف (الفاء) للضرورة، إذا وقعت الجملة الاسمية جواباً للشرط .

وجاء البيت في أكثر كتب اللغة: (عند الله مثلان) بدل (عند الله سيان) كما في الكتاب لسيبويه.

ينظر: ديوان كعب بن مالك (١٠٨) والكتاب لسيبويه (٣/ ٦٥) وأوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك لابن هشام (٤/ ١٩٠) ومغني اللبيب عن كتب الأعاريب (٨٣٢) وكتاب المقتضب للمبرد (٢/ ٧٢) ولسان العرب (١١/ ٤٤).

(٣) تكملة الآية: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [سورة البقرة: ٣٧] .

أوَّلاً ، [**وطـوِّلا**] [(١)] أي: مـده مـداً [١٣] طـويلاً عـلى قاعدتـه ثانيـاً ، وأمـا التوسـط فممنـوع ، [**وإذا أملـت**] مماله وقـد عرفـت كيـف إمالتـه [**القصـر فامنع**] أي: امنع القصر في البدل ، وأت بالوجهين الباقيين[(٢)] .

وقولي [**واحظلا**] [(٣)] عطف مرادف فائدته التكملة ، فإن قلت قد تبين أن القصر مفعول لــ (امنع) مقدم عليه ، والفاء لا يعمل ما بعدها فيما قبلها كما بين في موضعه ، فكيف هذا التركيب ؟ قلت: الفاء في مثل هذا التركيب زائدة [(٤)] ، فلا تمنع ما بعدها من العمل فيما قبلها ، ونظيره قوله

---

(١) في المخطوطة [وطولن]، والصواب: [وطوّلا] كما ورد في القصيدة .

(٢) إذا اجتمع الممال والبدل مع تقدم الممال كما في هذا المثال الذي ذكره المؤلف، ففيه لورش أربعة أوجه:

الأول: فتح ذات الياء مع قصر البدل .

الثاني: فتح ذات الياء مع مدّ البدل .

الثالث: تقليل ذات الياء مع توسط البدل .

الرابع: تقليل ذات الياء مع تطويل البدل .

وإليها أشار المؤلف في منظومته بقوله:

مبّاً على الفتح اقصرن وطوّلا ۞ وإذا أملت القصر فامنع واحظلا .

ينظر أيضاً: إتحاف فضلاء البشر (١/ ٢٦٤) وغيث النفع في القراءات السبع (٣٨) والبدور الزاهرة (٣٠) .

(٣) المراد (بالحظل) هنا: المنع من التصرف والحركة، كما يقال في اللغة: حظل الرجل امرأته، أي: منعها من الحركة غيرة عليها . ينظر مادة (ح ظ ل) في: جمهرة اللغة لابن دريد (١/ ٢٨٥) ولسان العرب لابن منظور (١١/ ١٥٥) .

(٤)كون (الفاء) تكون زائدة محل خلاف بين النحاة ولا يثبته سيبويه، وأجاز الأخفش زيادتها في الخبر مطلقاً، وقيد الفراء وغيره: الجواز بكون الخبر أمراً أو نهياً . ينظر: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب (٢١٩) .

تعالى: ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ (١) .

❁- **الصورة الخامسة**: تركب اللين والممال مع تقدم اللين(٢) ، وهي المشار إليها بقولي [لمّ] ، مثالها قوله تعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ ﴾ إلى: ﴿ حَٰسِبِينَ ﴾ (٣) ، [**على كل**] من وجهي لينه [**بكل**] من وجهي مماله [**فأتيا**](٤) من غير استثناء شيء مما تقتضيه القسمة العقلية .

---

(١) الآية: ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ [سورة المدثر: ٣] .

أما هذه الآية التي استدلّ بها المؤلف على جواز أن تكون (الفاء) زائدة فليس محل اتفاق بين النحاة ؛ وذلك أن (الفاء) دخلت على معنى جواب الجزاء ؛ لأن ربّك مفعول به مقدم لـ(فكبر)، والمعنى: ﴿ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ أي: قم فكبر ربك .

ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٥/ ٢٤٥) وإعراب القرآن للنحاس (٥/ ٦٥) .

(٢) إذا اجتمع مدّ اللين وذات الياء مع تقدم اللين – كما في هذا المثال الذي ذكره المؤلف – ففيه لورش أربعة أوجه:

الأول: توسط اللين مع فتح ذات الياء .

الثاني: تطويل اللين مع فتح ذات الياء .

الثالث: توسط اللين مع تقليل ذات الياء .

الرابع: تطويل اللين مع تقليل ذات الياء .

وإليها أشار المؤلف في منظومته بقوله:

لـمّ على كلّ بكلّ فأتيا ❁ والعكس يجري هكذا لن يعدلا .

ينظر أيضاً: إتحاف فضلاء البشر (١/ ١٦٩) .

(٣) تكملة الآية: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [سورة الأنبياء: ٤٧] .

(٤) في المخطوطة [فأتين]، والصواب: [فأتيا] كما ورد في القصيدة .

- **الصورة السادسة**: عكس التي قبلها[١] وهي التي أومأت إليها بقولي [**والعكس**]، مثالها قوله تعالى: ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ ﴾[٢] وحكمه أنه [**يجري هكذا**] من إجراء كل من الوجهين على كل من الوجهين [**لن يعدلا**] عن هذا الحكم، وألفه للإطلاق .

❁- **الصورة السابعة**: تركب الثلاثة مع تقدم البدل وتوسط اللين ، وإليها الإشارة بقولي [**بلّم**] ، مثالها قوله تعالى: ﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ﴾[٣] [**بقصر**] في البدل [**معه**] بالتسكين [**وسط**] اللين [**وافتحن**] الممال [**ومع التوسط**] في البدل [١٤] [**وسطنّ**] اللين أيضاً كما وسطته مع القصر [**مقللا**] للممال .

---

(١) إذا اجتمع الممال واللين مع تقدم الممال-كما في هذا المثال- ففيه لورش أربعة أوجه:

الأول: فتح ذات الياء مع توسط اللين .

الثاني: فتح ذات الياء مع تطويل اللين .

الثالث: تقليل ذات الياء مع توسط اللين .

الرابع: تقليل ذات الياء مع تطويل اللين .

وإليها أشار المؤلف في منظومته بقوله: ... والعكس يجري هكذا لن يعدلا .

ينظر أيضاً: إتحاف فضلاء البشر (١/ ٢٦٥) وغيث النفع (٥٦) والبدور الزاهرة (٤٨) .

(٢) تكملة الآية: ﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [سورة البقرة: ٢١٦] .

(٣) تكملة الآية: ﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [سورة الشورى: ٣٦] .

❁- [**والطول**] في البدل [**وسط معه**] اللين أولاً [**وافتح ولتمل**] أي: اقرأ بالوجهين في الممال مع هذا التوسط [**واعطف**] على التوسط المذكور ثانياً [**مع الوجهين**] المذكورين أعني الفتح والإمالة [**مداً**] في اللين [**أطولا**] على قاعدته ، فعُلم أن الطول في البدل يستتبع شيئين كل منهما يستتبع شيئين آخرين[1] .

❁- **الصورة الثامنة**: تقدم البدل كالتي قبلها مع عكس ما بقي[2]،

(١) في حالة اجتماع الثلاثة: (بدل ولين وإمالة) مع تقدم البدل وتوسط اللين، فإن لورش فيها ستة أوجه:

الأول: قصر البدل، وعليه توسط اللين وفتح ذات الياء .

الثاني: توسط البدل، وعليه توسط اللين مع تقليل ذات الياء .

الثالث: تطويل البدل، وعليه توسط اللين مع فتح ذات الياء .

الرابع: تطويل البدل، وعليه تطويل اللين مع فتح ذات الياء .

الخامس: مدّ البدل، وعليه توسط اللين مع تقليل ذات الياء .

السادس: مدّ البدل، وعليه مدّ اللين مع تقليل ذات الياء .

وإليها أشار المؤلف في منظومته بقوله:

بلِّم بقصر معه وسط وافتحـــن ۞ ومع التوسط وسّطن مقللا .

والطول وسط معه وافتح ولتمل ۞ واعطف مع الوجهين مدّاً أطولا .

ينظر أيضاً: إتحاف فضلاء البشر (١/ ٢٦٤) والبدور الزاهرة (٤٥) .

(٢) كذلك إذا اجتمع بدل وممال ولين مع تقدم البدل وتوسط (الممال إمالة صغرى) أو (المقلل) فلورش فيها ستة أوجه أيضاً - كما في هذا المثال الذي ذكره المؤلف -:

الأول: قصر البدل، وعليه فتح ذوات الياء وتوسط اللين .

الثاني: توسط البدل، وعليه تقليل ذوات الياء مع توسط اللين .

الثالث: مدّ البدل، وعليه فتح ذوات الياء مع توسط اللين .

=

وإليها الإشارة بقولي [**بـمِّـل**] ، مثالها قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ﴾ الآية[1][**مع القصر**] في البدل [**افتحن**] الممال [**ووسطن**] اللين [**وأَمِل**] الممال [**ووسط**] اللين [**للتوسط**] أي: لأجل توسط البدل أو (بعده) [2] على حد قوله تعالى: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ

=

الرابع: مدّ البدل، وعليه فتح ذوات الياء مع مدّ اللين .

الخامس: مدّ البدل، وعليه تقليل ذوات الياء مع توسط اللين .

السادس: مدّ البدل، وعليه تقليل ذوات الياء مع مدّ اللين .

وإليها أشار المؤلف في منظومته بقوله:

بـمِّل مع القصر افتحن ووسطن ۞ وأَمِل ووسط للتوسط واعدلا .

والطول وجها الياء معه كليهما ۞ وسط وطول معه تتبع من تلا .

ينظر أيضاً: إتحاف فضلاء البشر (١/ ٢٦٥) والبدور الزاهرة (٤٥) .

(١) تكملة الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ [سورة البقرة: ١٧٨] .

(٢) في المخطوطة [عنده]، والصواب: [بعده] ؛ لأن اللام في ﴿لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ ﴾ موافقة معنى (بعد) أي: البعدية، كما في كتب اللغة، ومعلوم أن الصلاة تقام بعد الزوال لا عند الزوال .

ينظر: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب (٢٨١) وأوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك (٣/ ٣٢) .

والمراد بـ(دلوك الشمس) زيغوغتها وزوالها وميلها في وقت الظهيرة، وكذلك ميلها إلى الغروب هو دلوكها أيضاً . ينظر: معاني القرآن للفراء (٢/ ١٢٨) ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج (٣/ ٢٥٥) .

ﭐلشَّمۡسِ ﴾[1] ، وقولي [**واعدلا**] مكمل للبيت ، وأشرت به إلى أن نكتة اختيار التوسط للتوسط العدل والموازنة .

❁- [**والطول**] في البدل [**وجها الياء**] أي: الفتح والتقليل كائنان [**معه**] بالتسكين [**كليهما**][2] أي: كلا وجهيها [**وسط وطول معه**] أي: اقرأ بالتوسط والطول في اللين مع كل من الوجهين المذكورين ، وإفراد الضمير العائد على (كلا) باعتبار لفظه[3] .

وقولي [**تتبع**] بالجزم لأنه جواب الطلب ، أي: إن توسط وتطول مع ما ذكر تتبع [**من تلا**] أي: من القراء المتقدمين [١٥] الناقلين لهذه الأوجه عن ورش ، والإتيان بذلك لغرض التكملة .

وقولي (كليهما) منصوب على الاشتغال[4] ، ويجوز رفعه على

---

(١) تكملة الآية: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ﴾ [سورة الإسراء: ٧٨].

(٢) في المخطوطة [كلاهما]، والصواب: [كليهما] كما ورد في القصيدة .

(٣) مراعاة عود الضمير من حيث اللفظ والمعنى، قاعدة معروفة في اللغة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنۡهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يُبۡصِرُونَ ﴾ [سورة يونس: ٤٢-٤٣] على معنى ﴿ مَن ﴾ هنا جمع في ﴿ يَسۡتَمِعُونَ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ وَمِنۡهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيۡكَ ﴾ [سورة يونس: ٤٣] على لفظ ﴿ مَّن ﴾ مفرد . ينظر: إعراب القرآن للنحاس (٢/ ٢٥٦) .

(٤) الاشتغال عند النحاة هو: إذا اشتغل فعل متأخر بنصبه لمحل ضمير اسم متقدم عن نصبه للفظ ذلك الاسم، نحو: زيداً أكرمته ؛ أو لمحله ؛ كهذا أكرمته، فالأصل أن ذلك الاسم =

الابتداء، فالجملة بعده خبر ، إما بتقدير القول أو بدونه على الخلاف في الجملة الإنشائية الواقعة خبراً عن المبتدأ [١] ، ولا يجوز كونه تأكيداً لقولي (وجها الياء) كما قد يتوهم، لفساد المعنى ، وقد تبين أن الطول ههنا مستتبع لمثل ما سبق .

❁- **الصورة التاسعة**: توسط البدل مع تقدم اللين[٢] ، وإليها الإشارة بقولي [**لـبّم**] ، مثالها قوله تعالى: ﴿ فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ ﴾ إلى قوله: ﴿إن

=

يجوز فيه وجهان: أحدهما: الرفع بالابتداء والجملة بعده في محل الرفع بالخبرية، والوجه الثاني: النصب على الاشتغال .

ينظر: أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك (٢/ ١٤١) .

(١) الجملة الإنشائية الواقعة خبراً عن المبتدأ جائز أن تكون خبراً، كما صححه ابن هشام في مغني اللبيب (٥٣٦) .

(٢) في حالة اجتماع مدّ اللين ومدّ البدل (وذات الياء) – كما في هذا المثال – فلورش فيها ستة أوجه:

الأول: توسط اللين مع قصر البدل وفتح ذات الياء .

الثاني: توسط اللين مع توسط البدل وتقليل ذات الياء .

الثالث: توسط اللين مع مدّ البدل وفتح ذات الياء .

الرابع: توسط اللين ومدّ البدل وتقليل ذات الياء .

الخامس: مدّ اللين والبدل مع فتح ذات الياء .

السادس: مدّ اللين والبدل مع تقليل ذات الياء .

وإليها أشار المؤلف في منظومته بقوله:

لـبّم إذا وسطت ثلث مَـــدّه ۞ مع قصره افتح والتوسط قللا .

والثالث الوجهان فيه وَمُدّ إن ۞ تَمُدُد ووجها الياء فيه أُعْمِلا .

ينظر أيضاً: إتحاف فضلاء البشر (١/ ٢٦٥) .

كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾(1) [**إذا وسطت**] لينه [**ثَلِّثْ مَدّه**] البدلي ، أي: اقرأ بأوجهه الثلاثة [**مع قصره افتح**] الممال [**و**] مع [**التوسط قللا**] الأصل (قللن) بنون التوكيد الخفيفة أبدلت ألفاً للوقف .

❁- [**والثالث**] من أوجه البدل ، أعني: المد [**الوجهان**] المذكوران ، أعني: الفتح والتقليل المتفرقين في غير المد كائنان ومجتمعان [**فيه**] بتقديم الفتح لأنه الأصل [**وَمُدَّ**] أنت البدل وجهاً واحداً لا غير [**إن تَمْدُد**] اللين [**ووجها الياء**] أي الفتح والتقليل المذكوران [**فيِهِ**] بإشباع كسرة الهاء لإقامة الوزن ، أي: معه [**أُعْمِلا**] أي: قُرئ بهما على الترتيب السابق.

❁- **الصورة العاشرة:** توسط البدل أيضاً ، كالتي قبلها مع عكس ما بقي(2) ، وإليها الإشارة بقولي [مَبِّلْ]، مثالها قوله تعالى: ﴿ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ

(1) تكملة الآية: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [سورة البقرة: ١٠٩-١١١] .

ينظر: إتحاف فضلاء البشر (١/ ٢٦٥) .

(2) في حالة اجتماع ذات الياء ومدّ البدل واللين - كما في هذا المثال - فلورش فيها خمسة أوجه:

الأول: فتح ذات الياء مع قصر البدل وتوسط اللين .

الثاني: فتح ذات الياء مع الطول في البدل واللين .

الثالث: تقليل ذات الياء مع توسط البدل واللين .

=

مَوْتِهَا ﴾ إلى ﴿ قَدِيرٌ ﴾ (١) ، [**به افتح**] المال حالة كونك [**قاصراً**] للبدل [**وموسطاً**] [١٦] للين [**واتبعه**] أي: فتح المال [**بالطولين**] أي: بالطول في البدل والطول في اللين ، أي: اقرأ بهما معه ثانياً ، بعد أن قرأت بالقصر في الأول والتوسط في الثاني معه أولاً ، وقولي [**يعذب منهلا**] الغرض منه التكملة .

❁- [**قلل**] أي: إذا فرغت من وجه الفتح في المال وما يتبعه قلله ، وحينئذ [**فوسط فيهما**] أي: في الأمرين الواقعين بعده ، أعني: البدل واللين [**و**] بعد ذلك [**لِلِينه**] فقط [**طوِّل و**] بعد ذينك الوجهين [**طوِّل فيهما**] أي: في البدل واللين [**وترسلا**] أي: اتئد وتأنى ، وهو من عطف اللازم على الملزوم ، والقصد منه التكملة ، والإشارة إلى حال التطويل .

=

الرابع: تقليل ذات الياء وتوسط البدل مع طول اللين .

الخامس: تقليل ذات الياء مع مدّ البدل واللين .

وإليها أشار المؤلف في منظومته بقوله:

مبّل به افتح قاصراً وموسطاً ۞ واتبعه بالطولين يعذب منهلا

قلل فوسط فيهمـا ولِلِـينه ۞ طوِّل وطوّل فيهما وترسـلا

(١) تكملة الآية: ﴿ أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٩].

❁- **الصورة الحادية عشر**: تأخر البدل مع توسط المال[1] وإليها الإشارة بقولي [**لَّب**]، مثالها قوله تعالى: ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ ﴾ الآية[2]، [**على التوسيط**] في لينه [**كرر ياءه**] أي: مماله ذا (الياء) والمعنى: اقرأ بوجهيها الفتح ثم التقليل [**واقصر ومُـدّ**] أي: ولا توسط [**إذا فتحت**] الياء، وقولي [**المُبْدَلا**] مفعول به تنازع فيه كل من (اقصر ومدَّ) ، فيجري في العامل فيه منهما الخلاف المشهور بين النحاة[3] ، وألفه للإطلاق .

---

(١) في حالة اجتماع مدّ اللين وذات الياء والبدل - كما في هذا المثال - فلورش فيها ستة أوجه:

الأول: توسط اللين وفتح ذات الياء مع قصر البدل .

الثاني: توسط اللين وفتح ذات الياء مع إشباع البدل .

الثالث: توسط اللين وتقليل ذات الياء مع توسط البدل .

الرابع: توسط اللين وتقليل ذات الياء مع مدّ البدل .

الخامس: مدّ اللين وفتح ذات الياء و مدّ البدل .

السادس: مدّ اللين وتقليل ذات الياء ومدّ البدل .

وإليها أشار المؤلف في منظومته بقوله:

لـمِّب على التوسيط كرر ياءه ❁ واقصر ومُدّ إذا فتحت الـمُبْدَلا .

وإذا أملت بغير قصـــر فأتين ❁ والطول كررها عليه وطولا .

ينظر أيضاً: إتحاف فضلاء البشر (١/ ٢٦٥) وغيث النفع في القراءات السبع (١٢٤) والبدور الزاهرة (١٣١) .

(٢) تكملة الآية: ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴾ [سورة الأنفال: ٤١].

(٣) كما في باب الاشتغال عند النحاة . ينظر: أوضح المسالك (٢/ ١٥١) .

❁- [**وإذا أملت**] الياء [**بغير قصر**] من أوجه البدل ، يعني: بالتوسط والطول [**فأتين**] وامتناع القصر على الإمالة كامتناع التوسط على الفتح ، فقد ظهر أن التوسط في اللين هنا مستتبع لشيئين كل منهما مستتبع لشيئين آخرين كما [١٧] سبق نظيره في الطول في البدل [**والطول**] في اللين [**كررها**] أي: (الياء) بالمعنى السابق [**عليه وطولا**] أي: البدل مع وجهي (الياء) .

❁- **الصورة الثانية عشر**: وهي خاتمتها تأخر البدل كالتي قبلها مع عكس ما بقي[1] ، وإليها الإشارة بقولي [**مَلِّب**] ، مثالها قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ ﴾ الآية[2] [**بفتح**] في المال أولاً [**معه وجها لينه**] التوسط

(١) في حالة اجتماع ذات الياء ومدّ اللين والبدل – كما في هذا المثال – فلورش فيها خمسة أوجه:

الأول: فتح ذات الياء وتوسط اللين مع قصر البدل .

الثاني: فتح ذات الياء وتوسط اللين مع إشباع البدل .

الثالث: فتح ذات الياء وطول اللين والبدل .

الرابع: تقليل ذات الياء وتوسط اللين والبدل .

الخامس: تقليل ذات الياء ومدّ اللين والبدل .

وإليها أشار المؤلف في منظومته بقوله:

ملِّب بفتح معه وجها لينه ❁ وامدد لثان واقصرن لأوّلا

وأَمِل فوسط وأتينّ بمثله ❁ والطول وامدُدّ فامدُدَن مكملا

ينظر أيضاً: إتحاف فضلاء البشر (١/ ٢٦٥) .

(٢) تكملة الآية: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ [سورة إبراهيم: ٣٨]. إلى قوله تعالى: ﴿ مُهۡطِعِينَ مُقۡنِعِي رُءُوسِهِمۡ لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡۖ وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ ﴾ [سورة إبراهيم: ٤٣]

والطول [**وامدد**] البدل [**لثان**] من الوجهين المذكورين أي: الطول [**واقصُرَنَّـ**]ـهُ [**لأوّلا**] منهما ، أي: التوسط ، وألفه للإطلاق ، واللام في الموضعين للتعليل ، أو بمعنى: عند .

❁- [**وأَمِل**] المهال ثانياً ، وحينئذ [**فوسط**] لينه أوّلاً [**وأتينّ**] معه من أوجه البدل [**بمثله**] أي: بالتوسط [**والطولِ وامدُدّ**] لينه ثانياً ، وحينئذ [**فامدُدَن**] البدل [**مكملاً**] لمده بالغاً إلى الحد الذي يراه .

وفيه من أنواع البديع حسن الاختتام ، وهو أن يؤتى آخر الكلام بما يؤذن بالختم والإكمال .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

وقد فرغ من تعليقه مؤلفه شعيب بن إسماعيل الكيالي ، المقيم يومئذ بإدلب الصغرى ، يوم الثلاثاء ، منتصف شهر رجب الفرد ، سنة إحدى وخمسين ومائة وألف .

[١٨]

بَـلًّا على غير الطويل فوسطن ۞ وعليه وسط ثـم مُـدَّ مطولا

لـبّـاً مع التوسيط ثلّث مَـدَّهُ ۞ والطولُ معه الطولَ خذ وسواه لا

بَـمَّ اقصرنّ فافتح وإن وسّطت لا ۞ وافتح وقلل إن مددت مرتلا

مـبّـاً على الفتح اقصرنّ وطوّلا ۞ وإذا أملت القصر فامنع واحظلا

لـــمّ على كل بكـــــل فأتيـا ۞ والعكس يجري هكذا لن يعـدلا

بلِّم بقصر معه وسط وافتحـــن ۞ ومع التوسط وسطنّ مقلـلا

والطول وسط معه وافتح ولتمل ۞ واعطف مع الوجهين مداً أطولا

بــمِّـل مع القصر افتحن ووسطن ۞ وأَمِل ووسط للتوسط واعــدلا

والطول وجها الياء معه كليهمـا ۞ وسط وطول معــه تتبع من تلا

لـبّم إذا وسطت ثلث مَـــــدّه ۞ مع قصره افتــح والتوسط قللا

والثالث الوجهان فيه وَمُــدّ إن ۞ تَمُدُد ووجها الياء فيهِ أُعْمِــــلا

مـبّـل به افتح قاصراً وموسطـاً ۞ واتبعه بالطولين يعذب منهــلا

قلل فوسط فيهما ولِلِـينــــــه ۞ طـوِّل وطـوِّل فيهما وترســـلا

لـمِّب على التوسيط كرر يــــاءه ۞ واقصر ومُدّ إذا فتحــــت الـمُبْدَلا

وإذا أملت بغير قصــــر فأتيــن ۞ والطول كررها عليه وطولا

ملِّب بفتح معه وجهــا لينـــــه ۞ وامدد لثان واقصـرن لأوّلا

وأَمِل فوسط وأتينّ بــمثلــــــه ۞ والطول وامدُدّ فامدُدَن مكمــــلا

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمه تتم الصالحات، والصلاة والسلام على المبعوث خاتماً للرسالات، وبعد: ففي ختام هذا البحث وبعد أن قضيت هذه الصفحات في تحقيق ودراسة هذا المخطوط: شرح منظومة: منحة ذي العرش فيما يتعلق بقراءة ورش، للعلامة: شعيب بن إسماعيل الكيالي، المتوفى سنة (١١٧٢هـ) يحسن بي أن أسجل هنا أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال هذا البحث، وهي كما يلي:

أولاً: أن هذا المخطوط عالج مسألة من مسائل علم التجويد والقراءات القرآنية كثيراً ما يتعسر فهمها على المبتدئين ، ويصعب تصورها على بعض القارئين ، وهي العلاقة بين مدِّ البدل واللين واللفظ الممال من ذوات الياء عند اجتماعها في موضع واحد، وأثر تركيبها على أحكام التجويد .

ثانياً: أن هذا المخطوط عمل على توضيح اللبس الحاصل والغموض الواقع في هذا الموضوع ، وجمع ما يتحصل للإمام ورش من طريق الشاطبية من الأوجه في هذه المسألة، وقد أوصلها المؤلف إلى اثنتي عشر صورة مع وضع رمز لكل صورةٍ .

ثالثاً: أن المؤلف قدم في هذا المخطوط طريقة فريدة مميزة لكيفية أدائي قرائي لرواية ورش في حالة اجتمع فيها مدُّ البدل واللين وذوات الياء في آية، أو أكثر في سياق الآيات .

رحم الله الشيخ الكيالي، وأسكنه فسيح جناته، ورزقنا العلم النافع،

وجعل عملنا صالحاً ولوجهه خالصاً، وصلى الله وسلم على نبينا ورسولنا معلم القراءات ، محمد خاتم الأنبياء والمرسلين ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

ثبت المصادر والمراجع

- الإبانة عن معاني القراءات: لمكي بن أبي طالب القيسي، ت: محيي الدين رمضان، ط: دار المأمون للتراث دمشق ١٣٩٩هـ .
- إبراز المعاني من حرز الأماني: لأبي شامة المقدسي، ت: إبراهيم عطوة عوض، ط: مصطفى البابي الحلبي القاهرة ١٤٠٢هـ .
- إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر: لأحمد محمد البنا، ت: شعبان محمد إسماعيل، ط: دار عالم الكتب بيروت ١٤٠٧ه .
- الإتقان في علوم القرآن: لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي، ت: مصطفى ديب البغا، ط: دار العلوم الإنسانية دمشق ١٤١٤هـ .
- إحياء علوم الدين: لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي، ط: دار المعرفة بيروت ١٣٧٧هـ.
- إرشاد المريد إلى مقصود القصيد: لعلي محمد الضباع، ط: مكتبة محمد علي صبيح القاهرة .
- أساس البلاغة: لجار الله أبي القاسم الزمخشري، ت: عبد الرحيم محمود، ط: دار المعرفة بيروت .
- الإضاءة في بيان أصول القراءة: لعلي محمد الضباع، ط: مكتبة عبد الحميد حنفي القاهرة .
- إعراب القرآن: لأبي جعفر النحاس، ت: زهير غازي زاهد، ط: عالم الكتب، ٢-١٤٠٩هـ.
- الأعلام، قاموس تراجم: لخير الدين الزركلي، ط: دار العلم للملايين

بيروت، ٥-١٩٨٠م .
- الإقناع في القراءات السبع: لابن الباذش، ت: عبد المجيد قطامش، ط: مركز البحث العلمي مكة المكرمة ١٤٠٣هـ .
- أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك: لجمال الدين ابن هشام الأنصاري، ط: المكتبة العصرية بيروت ١٤١٥هـ.
- إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون: لإسماعيل بن محمد الباباني البغدادي، ط: دار الفكر بيروت ١٤٠٢هـ.
- البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة من طريقي الشاطبية والدرة: لعبد الفتاح القاضي، ط: دار الكتاب العربي بيروت ١٤٠١هـ .
- البرهان في علوم القرآن: لبدر الدين الزركشي، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط: دار الفكر ١٤٠٠هـ .
- التجريد لمعجم مصطلحات التجويد: للدكتور: إبراهيم بن سعيد الدوسري، ط: دار الحضارة بالرياض ١٤٢٩هـ .
- تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي: لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، ط: دار النفائس بالرياض ١٤٠٩هـ.
- تفسير القرآن العظيم: لأبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي، ت: عبد العزيز غنيم وآخرين، ط: دار الشعب القاهرة ١٣٩٠هـ.
- تفسير القرآن العظيم: لعبد الرحمن بن محمد الرازي ابن أبي حاتم، ت: أسعد محمد الطيب، ط: المكتبة العصرية بيروت، ٢-١٤١٩هـ.
- تهذيب اللغة: لمحمد بن أحمد الأزهري، ت: عبد السلام هارون، ط:

المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر ١٣٨٤هـ .
- الجامع لأحكام القرآن: لأبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، ت: عبد الله التركي، ط: مؤسسة الرسالة ١٤٢٧هـ.
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن: لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، ت: د.عبد الله التركي ، ط: دار هجر، ١/ ١٤٢٢هـ .
- الجامع الصحيح (سنن الترمذي): لمحمد بن عيسى الترمذي، ت: أحمد محمد شاكر، ط: دار الحديث بالقاهرة ١٤١٥هـ.
- جمهرة اللغة: لـمحمد بن الحسن بن دريد، ت: رمزي منير بعلبكي، ط: دار العلم للملايين بيروت، ١- ١٩٨٧م.
- حرز الأماني ووجه التهاني: لقاسم بن فيرة الشاطبي، ت: محمد تميم الزعبي، ط: مكتبة دار المطبوعات الحديثة بالمدينة المنورة ١٤٠٩هـ .
- خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر: لمحمد أمين المحبي، ط: دار صادر بيروت ١٣٩٠هـ.
- خلق أفعال العباد والرد على الجهمية وأصحاب التعطيل: لـمحمد بن إسماعيل البخاري، ت: فهد سليمان الفهيد، ط: دار أطلس الخضراء الرياض ١٤٢٥هـ .
- الدر المنثور في التفسير بالمأثور: لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، ت: عبد الله التركي، ط: دار هجر ١٤٢٥هـ.
- ديوان كعب بن مالك الأنصاري، جمع: سامي مكي العاني، ط: مكتبة النهضة بغداد، ١٣٨٦هـ.

- زاد المسير في علم التفسير: لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي الجوزي، ط: المكتب الإسلامي بيروت ١٤٠٤هـ.
- السبعة في القراءات: لابن مجاهد أحمد بن موسى، ت: شوقي ضيف، ط: دار المعارف القاهرة، ٢-١٤٠٤هـ .
- سلسلة الأحاديث الصحيحة: لـمحمد ناصر الدين الألباني، ط: المكتب الإسلامي بيروت، ٤- ١٤٠٥ هـ .
- سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر: لمحمد خليل المرادي، ت: أكرم حسن العلبي، ط: دار البشائر بيروت ١٤٠٨هـ.
- السنن الكبرى: لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، ط: دار المعرفة بيروت، ٢-١٩٩٢م .
- سير أعلام النبلاء: لـمحمد بن أحمد الذهبي ، ت: شعيب الأرنؤوط، ط: مؤسسة الرسالة بيروت، ٩- ١٤١٣هـ .
- شرح الدرر اللوامع في أصل مقرأ الإمام نافع: لمحمد بن عبد الملك المنتوري، ت: الصدّيقي سيدي فوزي، ط: الدار البيضاء ١٤٢١هـ .
- شرح العقيدة الطحاوية: لابن أبي العز علي بن علي الدمشقي، ت: عبد الله التركي، ط: مؤسسة الرسالة ١٤٠٨هـ.
- شعب الإيمان: لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، ت: محمد السعيد زغلول، ط: دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٠هـ.
- صحيح البخاري: لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، ت: محب الدين الخطيب، ط: دار المعرفة بيروت، ٥-١٤١٤هـ.

- صحيح مسلم: لأبي الحسن مسلم بن الحجاج النيسابوري، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، ط: دار الفكر بيروت، ٢- ١٣٩٨هـ.
- الضوء المنير على التفسير لابن قيم الجوزية: جمع علي الحمد الصالحي، ط: مؤسسة النور بالرياض.
- طبقات المفسرين: لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي، ط: دار الكتب العلمية ١٤٠٣ هـ .
- طيبة النشر في القراءات العشر: لابن الجزري محمد بن محمد، ت: محمد تميم الزعبي، ط: مكتبة دار الهدى بجدة، ١- ١٤١٤هـ .
- العقيدة الواسطية: لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، ط: دار الثقافة للطباعة دمشق ١٣٨٥ هـ .
- الغاية في القراءات العشر: لابن مهران أحمد الأصبهاني، ت: محمد غياث الجنباز، ط: دار الشواف الرياض، ٢-١٤١١هـ .
- غاية النهاية في طبقات القراء: لابن الجزري محمد بن محمد، عنى بنشره: ج. براجستر، مكتبة الخانجي القاهرة ١٣٥١هـ .
- غيث النفع في القراءات السبع: للصفاقسي علي بن محمد، ت: محمد عبد القادر شاهين، ط: دار الكتب العلمية بيروت، ١-١٤١٩هـ .
- فتح الباري شرح صحيح البخاري: لأبي الفضل أحمد بن علي المعروف بابن حجر، ت: محب الدين الخطيب، ط: دار المعرفة بيروت.
- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير: لمحمد بن علي الشوكاني، ط: دار الوفاء بالقاهرة ١٤١٥هـ.

- فتح الوصيد في شرح القصيد: للسخاوي علي بن محمد، ت: جمال الدين محمد شرف، ط: دار الصحابة للتراث بطنطا ١٤٢٥هـ .
- القاموس المحيط: لمحمد بن يعقوب الفيروز آبادي، ط: مؤسسة الرسالة بيروت ١٤٠٧هـ .
- قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث: لجمال الدين القاسمي، ط: دار الكتب العلمية بيروت، ١-١٣٩٩هـ.
- القواعد المقررة والفوائد المحررة: لـمحمد بن القاسم بن إسماعيل البقري، ت: محمد إبراهيم المشهداني، ط: مكتبة الرشد الرياض ١٤٢٦هـ .
- الكتاب لسيبويه: لعمرو بن عثمان بن قنبر(سيبويه)، ت: عبد السلام هارون، ط: مكتبة الخانجي القاهرة، ٣- ١٤٠٨هـ.
- الكليات (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية): لأبي البقاء أيوب بن موسى الكفوي، ت: عدنان درويش محمد المصري، ط: مؤسسة الرسالة ١٤١٢هـ .
- لسان العرب: لأبي الفضل محمد بن مكرم بن منظور، ت: أمين محمد عبد الوهاب وآخرون، ط: دار إحياء التراث العربي بيروت ١٤١٦هـ.
- المبسوط في القراءات العشر: لابن مهران الأصبهاني، ت: سبيع حمزة، ط: مجمع اللغة العربية دمشق .
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: لعلي بن أبي بكر الهيثمي، ط: دار الكتاب العربي بيروت، ٣-١٤٠٢هـ .

- مختصر بلوغ الأمنية: لعلي بن محمد الضباع، ت: محمد عبد القادر شاهين، ط: دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٩هـ .
- مختصر العبارات لمعجم مصطلحات القراءات: للدكتور: إبراهيم بن سعيد الدوسري، ط: دار الحضارة بالرياض ١٤٢٩هـ .
- مسند أبي داود الطيالسي: لسليمان بن داود الجارود، ت: محمد التركي، ط: دار هجر للطباعة بالقاهرة، ١- ١٤١٩هـ .
- مسند أبي يعلى الموصلي: لأحمد بن علي التميمي، ت: حسين سليم أسد، ط: دار الثقافة العربية بدمشق ١٤١٢هـ .
- مسند الإمام أحمد بن حنبل، ت: شعيب الأرناؤوط، ط: مؤسسة الرسالة بيروت، ٢- ١٤٢٠هـ.
- مسند البزار (البحر الزخار): لأحمد بن عمرو البزار، ط: مكتبة العلوم والحكم بيروت ١٤١٤هـ .
- المصباح الزاهر في القراءات العشر البواهر: للمبارك بن الحسين الشهرزوري، ت: الدكتور: إبراهيم بن سعيد بن حمد الدوسري، ط: رسالة دكتوراه بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض ١٤١٤هـ .
- معاني القرآن: لأبي جعفر أحمد النحاس، ت: محمد علي الصابوني، ط: جامعة أم القرى بمكة ١٤٠٩هـ.
- معاني القرآن: لأبي الحسن سعيد الأخفش الأوسط، ت: عبد الأمير محمد أمين الورد، ط: دار عالم الكتب بيروت ١٤٠٥هـ .

- معاني القرآن: لأبي زكريا يحيى الفراء، ت: أحمد يوسف نجاتي ومحمد علي النجار، دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٣٧٤هـ.
- معاني القرآن وإعرابه: لأبي إسحاق إبراهيم الزجاج، ت: عبد الجليل عبده شلبي، ط: عالم الكتب بيروت ١٤٠٨هـ .
- المعجم الكبير: لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، ت: حمدي عبد المجيد السلفي، ط: مكتبة الزهراء الموصل،٢- ١٤٠٤هـ.
- معجم مقاييس اللغة: لأحمد بن فارس بن زكريا، ت: عبد السلام هارون، ط: دار الأجيال بيروت .
- معجم المؤلفين، تراجم مصنفي الكتب العربية: لعمر رضا كحالة، ط: مؤسسة الرسالة بيروت ١٤١٤هـ.
- معرفة السنن والآثار: لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، ت: عبد المعطي أمين قلعجي، ط: دار الوعي حلب ١٤١٢هـ.
- معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار: لـمحمد بن أحمد الذهبي، ت: بشار عواد معروف، ط: مؤسسة الرسالة بيروت ١٤٠٤هـ .
- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: لابن هشام الأنصاري، ت: مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، ط: دار الفكر بيروت ١٤١٢هـ.
- مقامات الزمخشري: لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، ط: دار الكتب العلمية بيروت، ٣-١٤١٥هـ .
- المقتضب: لـمحمد بن يزيد المبرد، ت: محمد عبد الخالق عضيمة، ط: وزارة الأوقاف، مصر، ٣- ١٤١٥هـ.

- منجد المقرئين ومرشد الطالبين: لابن الجزري محمد بن محمد، ت: علي محمد العمران، ط: دار عالم الفوائد بمكة المكرمة ١٤١٩هـ .
- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج: لأبي زكريا يحيى بن شرف النووي، ط: دار المعرفة بيروت، ٤-١٤١٨هـ .
- الموضح في وجوه القراءات وعللها: لابن أبي مريم، ت: عمر حمدان الكبيسي، ط: الجماعة الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم بجدة ١٤١٤هـ .
- النشر في القراءات العشر: لابن الجزري محمد بن محمد، ت: علي الضباع، ط: دار الكتب العلمية بيروت .
- نهاية القول المفيد في علم التجويد: لمحمد بن مكي نصر، ط: المكتبة العلمية لاهور ١٣٩٣هـ .
- هداية القاري إلى تجويد كلام الباري: لعبد الفتاح السيد المرصفي، ط:دار طيبة بالرياض ١٤٠٢هـ.
- هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين: لإسماعيل بن محمد البابانى البغدادي، ط: دار إحياء التراث العربي بيروت ١٤٠٨هـ.
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: لأبي العباس أحمد بن محمد بن خلكان، ت: يوسف طويل، ط: دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٩هـ.

الصفة الكاشفة في القرآن الكريم

(بيانها وأنواعها)

أ.د. فهد بن عبد الرحمن الرومي

الأستاذ بقسم الدراسات القرآنية

كلية التربية – جامعة الملك سعود

ملخص بحث
الصفة الكاشفة في القرآن الكريم (بيانها وأنواعها)

بسم الله الرحمن الرحيم

في القرآن الكريم صفات قد تبدو للقارئ أنها غير مؤثرة في الحكم، وقد يشكل عليه ذكر صفات لا تضيف قيداً أو لا يلزم اعتبارها ، كاشتراط إرادة التحصن في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾[1]، وهو يعلم أن الإكراه لا يجوز سواء أردن التحصن أو لم يردن، ويهدف هذا البحث لإبراز هذا النوع من القيود، وبيان وجه ذكرها في القرآن الكريم، وما تضيفه من معنى أو معان، وما تزيده من بيان، وتظهر أهمية هذا الموضوع والحاجة إليه بتعلقه بدراسة أسلوب من أساليب القرآن الكريم، وكشف وجه من أوجه إعجازه وبلاغته .

(٥) سورة النور : الآية : ٣٣.

The Illustrative Modification[1] in the Holy Qur'an: Its Explication and Types

Professor Fahad A. Al-Roumi
Department of Qur'an Studies
College of Education
King Saud University

Abstract

In the Name of Allah, the Most Gracious, the Most Merciful

There are cases of modification in the Qur'an that seem to the reader not to have any bearing on the judgement in a given case, which may result in ambiguity in the judgement due to mentioning of what does not amount to a restriction or what does not need to be taken into account, as in the case of stipulating for volition in cases of chastity. An example of this is what Allah, May He be glorified, says -: "And force not your maid to prostitution if they desire chastity…."[٢], though the reader of Qur'an knows that compulsion is forbidden whether the maids favor chastity or not. This research paper aims at shedding light upon this type of restrictions, illustrating the reason behind mentioning them, and explaining what they add to the meaning. The significance of this subject lies in studying one of Qur'an's styles and exposing an element of its inimitability and eloquence

(1) It's an adjective that is added to indicate a characteristic of the thing or person described, but by mentioning it, the injunction of the law doesn't change

(2) Surat An-Nur: verse: 33.

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد :

فإن الكلمات أهم وسائل نقل المعلومات من ذهن إلى آخر، فالكلمات هي قوالب المعاني، أو الظروف الحاملة للمعاني، فكل كلمة تنقل جزءاً من المعنى حتى يتم نقل المعنى كاملاً، إن لم تنقله الكلمة الواحدة كله.

ودلالة الكلمات والألفاظ على المعاني المرادة إما أن تستفاد من جهة النطق والتصريح، أو من جهة التعريض والتلويح، ومن التصريح ما يخفى حتى يكاد أن يكون تلويحاً وتلميحاً، ومن التلويح ما يظهر حتى يكاد أن يكون تصريحاً، وهذا ما يدرسه العلماء في علم (المنطوق والمفهوم)(١).

فإذا كان الحديث مثلاً – عن محمد وأخيه زيد فقلت: أما محمد فنعم الرجل فإن لعبارتك هذه منطوقاً ومفهوماً، فالمنطوق الثناء على محمد، والمفهوم ذم زيد أو عدم استحقاقه للثناء.

وقد اختلف العلماء في العمل بالمفهوم في الأحكام الشرعية فمنهم من استدل به ومنهم من لم يستدل به فقوله تعالى في بر الوالدين: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾(٢) يدل منطوقه على تحريم التأفيف، ومفهومه على تحريم الضرب

(١) دراسات في علوم القرآن الكريم: د فهد الرومي ص ٥٦٧.

(٢) سورة الإسراء : الآية : ٢٣.

أيضاً، وأنكر بعض العلماء هذا المفهوم- وإن كان يرى تحريم الضرب بنصوص أخرى- إلا أنه لا يحتج بهذه الآية على تحريم الضرب لعدم صحة دلالة المفهوم عنده.

والمستدلون بالمفهوم أيضاً لا يعملون به في جميع الأحوال، إذ هم لا يجيزون الاستدلال بالمفهوم في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ (1) فالمفهوم جواز إكراههن إن لم يردن التحصن، وهو مفهوم لا يعمل به ولا يصح.

وفي قوله تعالى في المحرمات من النساء: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم﴾(2) والربيبة هي بنت الزوجة والمفهوم جواز نكاحها إن لم تكن في حجر زوج أمها وهو مفهوم لا يعمل به.

ويسمى مثل هذا المفهوم الذي لا يعمل به بمسميات عدة عند علماء المسلمين حسب علومهم منها (الصفة الكاشفة).

ويدخل تحت هذا الوصف عدة نصوص في القرآن الكريم وقد يوحي هذا للقارئ بأن هذا الوصف أو القيد قد فقد قيمته البيانية أو البلاغية أو أنه حشو يتنزه القرآن الكريم عنه فرغبت في جلاء هذا المعنى وإزالة هذا اللبس وكشف الوجوه البلاغية لهذه القيود المهملة ومعانيها التي تفيدها والتي لا يستغنى عنها بألفاظ أخرى أو صور مختلفة، نسأل الله التوفيق والسداد.

---

(1) سورة النور: الآية : ٣٣.

(2) سورة النساء: الآية : ٢٣.

تمهيد

أجمع علماء المسلمين قديماً وحديثاً على سلامة القرآن الكريم من الزيادة أو النقصان. ليس في آياته أو جمله فحسب بل حتى في حروفه.

ثم ذهبوا يتنافسون في بيان ذلك فتصدت طائفة منهم للكشف عن الحروف التي توصف إعرابياً عند النحاة بالزيادة أو الصلة وبينوا معانيها وما تضيفه من معان لا يمكن تحققها بدونها.

وإذا تجاوزنا هذا النوع فإنا سنجد نوعاً آخر من الجمل قد يحسبها ظان لا تضيف معنى ولا تزيده من نحو قوله تعالى: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾[1]: وإذ قد علم أن السقف لا يكون إلا من فوق، فقد يشكل على بعض الأفهام وما تضيفه جملة ﴿مِن فَوْقِهِمْ﴾ من معنى فهو معلوم بداهة فما فائدة ذكر الفوقية هنا.

وقل مثل ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾[2] فمن المعلوم بداهة أن الطير لا يطير إلا بجناحيه فما فائدة التصريح بهما. وكقوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾[3] والصيب وهو المطر لا يكون إلا من جهة السماء. وكقوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾[4] ومن

(١) سورة النحل: الآية: ٢٦.

(٢) سورة الأنعام: الآية : ٣٨.

(٣) سورة البقرة: الآية : ١٩.

(٤) سورة البقرة: الآية: ٧٩.

المعلوم أن الكتابة لا تكون إلا باليد.

فما الذي تضيفه أمثال هذه الجمل البدهية المتبادرة إلى الأذهان وهي مسائل يقف عندها المتدبر وقد أفردت لهذا النوع من الآيات القرآنية دراستين:

الأولى دراسة نظرية تأصيلية بعنوان "البدهيات في القرآن الكريم".

والثانية دراسة تطبيقية استقرائية في الحزب الأول من القرآن الكريم بعنوان "البدهيات في الحزب الأول من القرآن الكريم" وفي هذا النوع من الأسلوب القرآني مجال واسع لدراسات ورسائل علمية.

وفي القرآن الكريم نوع ثالث من الآيات التي قد يشكل على بعض الأذهان ما تضيفه من معنى. وهو ما نسميه بـ " الصفة الكاشفة" وهو ما أفردت له هذه الدراسة.

أهمية الموضوع:

وتظهر أهمية هذا الموضوع والحاجة إليه بتعلقه بدراسة أسلوب من أساليب القرآن الكريم، وكشف وجه من أوجه إعجازه وبلاغته، وبيان ما تضيفه بعض الكلمات التي قد يشكل على بعض الأذهان ما تضيفه من معنى، وتزيده من بيان حيث ترد بعض الأحكام الشرعية مقيدة بوصف أو شرط أجمع العلماء على عدم الأخذ به مما قد يوحي إلى بعض الأذهان بأن هذا القيد بالوصف أو الشرط قد فقد قيمته البيانية أو البلاغية!! أو أنه حشو يتنزه القرآن الكريم عنه فكان لزاماً أن نعتني بهذا النوع من القيود وأن نتحرى معانيها والغرض من ذكرها وتحري الأوجه البلاغية فيها.

الدراسات السابقة:

ألقيت قبل سنوات محاضرة علمية في المدينة النبوية عن هذا الموضوع ودعوت الباحثين للكتابة فيه فهو موضوع يكشف أوجها من بلاغة القرآن حري بأهل العلم إبرازها .

وقد نشر أخي الدكتور علي بن جريد العنزي بحثا قيما في مجلة معهد الإمام الشاطبي العدد التاسع بعنوان (هداية الحيران فيما قيل ليس له مفهوم مخالف من القرآن) جمع فيه الآيات التي قيل ليس لها مفهوم مخالف من القرآن وقال: لم أر مصنفا جمعه . وجمع فيه عشرين آية نحت هذا المنحى.

وتظهر إشارات لمسائل الموضوع في بعض كتب التفسير على اختلاف بينها في الكثرة والقلة وكذا في بعض كتب أصول الفقه والعقائد والبلاغة والنحو من غير تفصيل وشمول أو إفراد واستقلال.

ولا يزال الموضوع بحاجة إلى دراسات علمية لإبراز الوجوه البلاغية في تلكم الآيات

تعريفها وبيان المراد بها:

لم أجد من عرفها تعريفاً موجزاً وإنما وجدت من يشرح معناها شرحاً يخرج عن حد التعريف ولعلي أقول في تعريفها:

هي وصف موجود في الموصوف غالباً ولا يتعلق الحكم به.

وبيان ذلك أن علاقة الصفة بالموصوف إجمالاً :

١- أن تكون لازمة له لا تنفك عنه بحال ولا يتعلق الحكم بها

كقوله تعالى: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ﴾[(١)] وكقوله: ﴿فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ﴾[(٢)] وقوله: ﴿أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾[(٣)] وغير ذلك. وهذا النوع من البدهيات وليس صفة كاشفة لأنه لا يتصور الانفكاك عن الصفة فلا يقع لبس في عدم تعلق الحكم بها لأنه لا صورة أخرى غيرها.

ولهذا قال الشرواني: " إن الصفة الكاشفة هي المبينة لحقيقة متبوعها كقولهم الجسم الطويل العريض العميق يحتاج إلى فراغ يشغله واللازمة هي التي لا تنفك عن متبوعها وليست مبينة لمفهومه كالضاحك بالقوة بالنسبة للإنسان"[(٤)].

٢- أو أن تكون متعلقة بالموصوف غالباً وهذه هي التي قد يشكل تعلق الحكم بها إلا أن العلماء لم يعتبروه في الحكم. كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا﴾[(٥)] فإرادة التحصن غالبة وليست دائمة ولا اعتبار لهذا القيد فلا يجوز إكراهها إن أرادت أو لم ترد.

٣- وأما الحالة الثالثة وهي أن يكون تعلق الصفة بالموصوف نادراً فهذه ليست صفة كاشفة ولها أحوالها الخاصة.

وإذا كانت بضدها تتميز الأشياء فإن قسيم الصفة الكاشفة هو

(١) سورة الأنعام: الآية: ٣٨.

(٢) سورة النحل: الآية : ٢٦.

(٣) سورة البقرة : الآية: ١٩.

(٤) حواشي الشرواني على تحفة المحتاج بشرح المنهاج: جـ ١ ص ٣٣٨.

(٥) سورة النور : الآية : ٣٣.

الوصف المؤثر ويقال له أيضاً الوصف المنشيء وهو الوصف الذي يتعلق به الحكم وإذا حذف تغير الحكم كقوله تعالى: ﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ [1] ، وكقوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [2] .

ومن خصائص الصفة الكاشفة أنه لا يجوز الفصل بين الموصوف والصفة بالخبر إلا في الصفة الكاشفة لأن الصفة الكاشفة خبر عن الموصوف عند التحقيق فتكون بمنزلة الخبر بعد الخبر وهذا جائز بالاتفاق عندهم[3] .

وكما تقع الصفة الكاشفة في الآيات فإنها تقع في الحديث كقوله صلى الله عليه وسلم **(أعوذ بكلمات الله التامات)** [4] .

قال النفراوي ووصف كلمات الله بالتامات من باب الوصف الكاشف لا المخصص لأن كلماته كلها تامات[5] .

وكقوله صلى الله عليه وسلم: " إذا استيقظ أحدكم من الليل فلا يدخل يده في الإناء حتى يفرغ عليها مرتين أو ثلاثاً فإن أحدكم لا يدري فيم باتت يده"[6] فقوله "من الليل" قيد أغلبي عند الجمهور لأن غالب

---

(١) سورة الأنعام: الآية: ١٤٥.

(٢) سورة الطلاق: الآية : ٤.

(٣) الكليات: أبو البقاء الكفوي جـ١ ص ١٠٢٣.

(٤) رواه مسلم رقم ٦٨٧٨.

(٥) الفواكه الدواني: شرح رسالة القيرواني: أحمد بن غنيم النفراوي جـ٢ ص ٤٣٤.

(٦) رواه ابن ماجه في سننه رقم٣٩٣ أبواب الطهارة . وصححه الألباني صحيح سنن ابن ماجه ص٦٨

النوم إنما يكون في الليل وإلا فإن الحكم لا يتغير إذا قام من النهار.

وفي لغة العرب عامة كقولهم (زج حديد) قال الطحاوي في حاشيته على مراقي الفلاح: قولهم (زج حديد) قال في الشرح والزج الحديدة في أسفل الرمح أ. هـ فالإضافة للبيان وإذا قرىء بالتنوين فهو من الوصف الكاشف[1] .

أسماؤها:

وتعددت مسميات وأوصاف العلماء للصفة الكاشفة فمنهم من سماها بالوصف المناسب، أو الوصف الكاشف، ومنهم من يصفها بأوصاف مختلفة كقولهم "الأوصاف غير الفعّالة" أو "الأوصاف عديمة الأثر" أو "القيود المهملة" أو "موانع اعتبار مفهوم المخالفة" أو " القيود التي لا اعتبار لها" وغير ذلك وهي أوصاف متعددة ويريدون بها الصفة الكاشفة.

ولعلك تسأل بعد هذا عن سبب وصفها بالكاشفة وذلك لأن وجودها لا يؤثر في الحكم وإنما تكشف حال الموصوف وصفته دون تقييد الحكم بها، ولذا فإن هذا الاسم يطلق على كل صفة لا يتغير موصوفها وإنما يتغير متعلقة ففي قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾[2] .

---

(١) جـ١ ص ٢٤٦.

(٢) سورة سبأ: الآية : ٢١.

قال الرازي: " أن علم الله من الأزل إلى الأبد محيط بكل معلوم وعلمه لا يتغير وهو في كونه عالماً لا يتغير ولكن يتغير تعلق علمه فإن العلم صفة كاشفة يظهر بها كل ما في نفس الأمر، فعلم الله في الأزل أن العالم سيوجد فإذا وجد علمه موجوداً بذلك العلم، وإذا عدم علمه معدوماً بذلك. مثاله: أن المرآة المصقولة فيها الصفاء فيظهر فيها صورة زيد إن قابلها، ثم إذا قابلها عمرو يظهر فيها صورته، والمرآة لم تتغير في ذاتها ولا تبدلت في صفاتها إنما التغير في الخارجات فكذلك ههنا"[1] .

نشأتها:

ونريد بذلك نشأة هذا المصطلح وصلته بالعلوم الشرعية والعربية الأخرى، حيث نجد الإشارة إلى هذا المصطلح أو مرادفاته في علوم متعددة.

ففي كتب التفسير نجدها عند تفسير كل آية فيها قيد مهمل وقد احتوت كتب التفسير على عدد كثير من ذلك.

كما نجده في كتب علوم القرآن الكريم في مباحث بلاغة القرآن وأسلـوب

التوكيد وممن عرض له الزركشي في القسم السابع عشر منه في مبحث خروج اللفظ مخرج الغالب.

---

(١) مفاتيح الغيب: الرازي جـ ٢٥ ص ٢٥٣-٢٥٤ وانظر الفتوحات الإلهية: للجمل جـ ٦ ص ٢٢٩.

وفي علم أصول الفقه يبحثه العلماء في المنطوق والمفهوم في مبحث مفهوم المخالفة وشروط العمل به.

وفي علم البلاغة تناوله علماؤها في عدة علوم منها كأحوال المسند والتوكيد والتقييد بالشرط وغير ذلك.

كما بحثه علماء النحو في باب الشرط وغيره. فضلاً عن علم الكلام والجدل ومباحث العقيدة.

ومن الشواهد على تناول المفسرين لهذا المصطلح ما ذكره أبو السعود في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾[١] صفة كاشفة للمطففين شارحة لكيفية تطفيفهم الذي استحقوا به الذم والدعاء بالويل.. الخ[٢].

وقال جلال الدين الحلي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾[٣] صفة كاشفة لا مفهوم لها[٤].

وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ مُحْدَثٍ﴾[٥] صفة كاشفة[٦].

---

(١) سورة المطففين: الآيتين ١-٢.

(٢) إرشاد العقل السليم : أبو السعود العمادي: جـ٩ ص ١٢٤.

(٣) سورة المؤمنون: الآية ١١٣.

(٤) تفسير الجلالين : بحاشية الجمل الفتوحات الإلهية جـ ٥ ص ٢٦٨.

(٥) سورة الشعراء: الآية: ٥.

(٦) المرجع السابق: جـ ٥ ص ٣٨١.

وقال الألوسي في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ﴾[1] .

صفة مخصصة للمطففين الذين نزلت فيهم الآية، أو صفة كاشفة لحالهم شارحة لكيفية تطفيفهم[2] .

وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ١٠ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾[3] إما مجرور على أنه صفة ذامة للمكذبين، أو بدل منه، أو مرفوع أو منصوب على الذم. وجوز أن يكون صفة كاشفة موضحة[4] .

وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ﴾[5] .

وعن ابن عباس أنه فسره هنا بالذي لا يقيه من التراب شيء، وفي رواية أخرى هو المطروح على ظهر الطريق قاعداً على التراب لا بيت له وهو قريب مما أخرجه ابن مردويه عن ابن عمر مرفوعاً هو الذي مأواه المزابل فإن صح لا يعدل عنه. وفي رواية أخرى عن ابن عباس هو الذي يخرج من بيته ثم يقلب وجهه إليه مستيقناً أنه ليس فيه إلا التراب... والصفة على بعض هذه التفاسير كاشفة وبعض آخر مخصصة"[6] .

وقال ابن عاشور في تفسير قوله تعالى: ﴿لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ

---

(١) سورة المطففين: الآية : ١.

(٢) روح المعاني: الألوسي جـ ٣٠ ص ٦٨.

(٣) سورة المطففين: الآية ٩-١٠.

(٤) المرجع السابق: جـ ٣٠ ص ٧٢.

(٥) سورة البلد: الآية : ١٤.

(٦) المرجع السابق: جـ ٣٠ ص ١٣٨.

أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[١] . فالحال هنا بمنزلة الصفة الكاشفة في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ ﴾[٢] وقوله: ﴿ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[٣] . وليس المراد تقييد النهي عن الخيانة بحالة العلم بها لأن ذلك قليل الجدوى فإن كل تكليف مشروط بالعلم وكون الخيانة قبيحة أمر معلوم[٤] .

وقال - رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ﴾[٥] وانتصب تبرج الجاهلية الأولى على المفعول المطلق وهو في معنى الوصف الكاشف[٦] . ثم قال: ووصفها بـ (الأولى) وصف كاشف"[٧] .

والأمثلة على ذلك كثيرة جداً في كتب السلف والخلف.

صلتها بعلم أصول الفقه:

ويبحث علماء أصول الفقه الصفة الكاشفة في باب المنطوق والمفهوم في مسألة العمل بمفهوم المخالفة وبيان ذلك.

---

(١) سورة الأنفال: الآية: ٢٧.

(٢) سورة المؤمنون : الآية: ٢٢.

(٣) سورة البقرة: الآية : ١١٣.

(٤) التحرير والتنوير : ابن عاشور جـ ٩ ص ٣٢٤.

(٥) سورة الأحزاب: الآية: ٣٣.

(٦) المرجع السابق: جـ ٢٢ ص ١٢.

(٧) المرجع السابق: جـ ٢٢ ص ١٣.

أن الحكم إما أن يكون منطوقاً أو مفهوماً فإن كان منطوقاً فلا خلاف في وجوب العمل به كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ [(١)] فتحريم التأفيف منطوق به في الآية ويفهم منه تحريم الضرب من باب أولى إلا أن حكم الضرب غير منطوق وإنما هو من المفهوم.

والمفهوم قد يكون مفهوم موافقه وهو ما وافق حكم المفهوم فيه حكم المنطوق كما في المثال السابق فحكم الضرب كحكم التأفيف التحريم.

وأما مفهوم المخالفة فهو أن يكون حكم المفهوم مخالفاً لحكم المنطوق كقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾[(٢)] فوجوب النفقة للمطلقة الحامل منطوق والمفهوم أن غير الحامل لا تجب على الزوج نفقتها فهذا مفهوم مخالفة وهو مما اختلف العلماء في العمل به فأجاز الجمهور العمل به وخالفهم الحنفية والظاهرية.

واشترط الجمهور شروطاً للعمل بمفهوم المخالفة إن توفرت وإلا أهمل القيد ولم يعمل به وهو ما نسميه بالصفة الكاشفة كاشتراطهم أن لا يكون القيد خرج مخرج الغالب كقوله تعالى: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم﴾[(٣)] فالربيبة وهي بنت الزوجة تحرم على زوج أمها سواء كانت في حجره كما جاء في الآية أو لم تكن وإنما نص على الحجور مع أنها تحرم وإن لم تكن في الحجر لأن الغالب أنها في حجره مع أمها وكذا الأمر في

(١) سورة الإسراء: الآية ٢٣.

(٢) سورة الطلاق: الآية: ٦.

(٣) سورة النساء: الآية : ٢٣.

بقية الشروط.

وقد قسمت الصفة الكاشفة إلى أنواع بنيتها على هذه الشروط.

أنواعها:

وقد حاولت أن أقسم الصفة الكاشفة حسب المانع لاعتبارها أو موجب إهمالها فجمعت من كتب التفسير والأصول نحو عشرين مانعاً عن العمل بمفهوم المخالفة أو شرطاً للعمل بمفهوم المخالفة أو نوعاً للصفة الكاشفة فكلها تقسيمات تداولها العلماء من قبلي، وقد يدخل بعضها في بعض عند التأمل والتدبر، وهناك غيرها مما لم أجد له أمثلة في القرآن الكريم.

وبعض هذه الأحوال أو الأنواع أو الشروط أشهر من بعض وهذا التقسيم ليس إلا مجرد محاولة لجمع هذه الأحوال وقد يكون هناك تسمية لها أدق. فمن ذلك:

١- ما خرجت مخرج الغالب:

حيث يشترط العلماء للعمل بمفهوم المخالفة- كما أسلفت- أن لا يكون القيد خرج مخرج الغالب.

وهذا الشرط من أشهر الشروط ولا يكاد يغفله أحد ممن كتب في المنطوق والمفهوم أو مفهوم المخالفة.

ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم﴾[1]

---

(١) سورة النساء: الآية : ٢٣.

فالربيبة وهي بنت الزوجة تحرم على زوج أمها، ومفهوم المخالفة أنها إذا لم تكن في حجر الزوج لا تحرم عليه، مع أنها تحرم سواء كانت في حجرة أم لم تكن، وإنما ذكر القيد لأن الغالب أن بنت الزوجة تعيش عند أمها مع الزوج الجديد، ولا أثر لهذا القيد في الحكم. ولهذا قال بعده ﴿فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ﴾ ولم يقل: فإن لم يكن في حجوركم قال الزركشي- رحمه الله تعالى- : فدل على أن الحجر خرج مخرج العادة [1].

وأرى أن ذكر الحجور مع عدم اعتبار عدمه في الإباحة لما يحدثه كونها في حجره من الوقار بينها وبين حاجرها إذا كانت في حجره فهي أشبه ما تكون بابنته فتنفر الطباع السليمة من ذلك فبينها وابنته شبه من وجهين كونها في حجره وكونها بنت زوجته والبنت كذلك فأكد جانب التحريم بما ينفر منه وهذا مشهد ملحوظ في أسلوب القرآن الكريم والله أعلم.

ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمۡ عَلَىٰ سَفَرٖ وَلَمۡ تَجِدُواْ كَاتِبٗا فَرِهَٰنٞ مَّقۡبُوضَةٞ﴾[2] فالقيد بالسفر لا اعتبار له فإن الرهن لا يقتصر على حالة السفر بل في حالتي السفر والحضر وإنما ذكر حالة السفر لأن فقد الكاتب يكون فيه غالباً – كما قال الزركشي –[3] والأمثلة على ذلك كثيرة.

قال الشنقيطي – رحمه الله تعالى – في تفسيره: " والجري على الغالب

(١) البرهان في علوم القرآن: بدر الدين الزركشي ج٣ ص ٢٧.

(٢) سورة البقرة: الآية : ٢٨.

(٣) المرجع السابق: جـ٣ ص ٢٨.

من موانع اعتبار مفهوم المخالفة كما ذكرنا في هذا الكتاب مراراً والعلم عند الله تعالى"[١] .

٢- ما كانت لبيان الواقع:

قال الشنقيطي- رحمه الله تعالى- في تفسيره: " وقد تقرر في الأصول أن من موانع اعتبار مفهوم المخالفة كون المنطوق نازلاً على حادثة واقعة ولذا لم يعتبر مفهوم المخالفة في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا ﴾[٢] ولا في قوله: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[٣] لأن كلا منهما نزل في حادثة واقعة فالأول نزل في إكراه ابن أُبيّ جواريه على الزنا وهن يردن التحصن من ذلك. والثاني نزل في قوم من الأنصار وَالوا اليهود من دون المؤمنين فنزل القرآن في كل منهما ناهياً عن الصورة الواقعة من غير إرادة التخصيص بها"[٤] .

وذكر منه- أيضاً- قوله تعالى: ﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ﴾[٥] ومفهوم المخالفة أن الحر لا يقتل بالأنثى، والأنثى لا يقتل بالذكر مثلاً. وذلك المفهوم غير معتبر لأن سبب نزول الآية أن قوماً تطاولوا على قوم وقالوا إن العبد منا إنما يساويه الحر منكم، والمرأة منا إنما

(١) أضواء البيان: الشنقيطي جـ ١ ص ٢٦١.

(٢) سورة النور: الآية: ٣٣.

(٣) سورة آل عمران: الآية: ٢٨.

(٤) أضواء البيان : الشنقيطي جـ ١ ص ٣٥٨-٣٥٩.

(٥) سورة البقرة : الآية : ١٧٨.

يساويها الرجل منكم فنزل القرآن مبيناً أنهم سواء"[1] .

وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ﴾[2] فتحريم القتل ليس مقيداً بخشية الإملاق فقتل الأبناء حرام في حال خشية الإملاق وحال عدم خشيته وإنما صرح بخشية الإملاق لأنهم في الواقع كانوا يفعلون ذلك فنهاهم عن الصورة ولا يعنى هذا جواز غيرها.

٣- ما ذكرت للامتنان:

وقد ترد الصفة الكاشفة للإمتنان لا لتقييد الحكم بها كقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾[3] فتقييد اللحم المباح بالطري لا يدل على تحريم السمك المجفف أو ما ليس بطري بإجماع العلماء كما قال الشنقيطي- رحمه الله تعالى-: "وإن من موانع اعتبار مفهوم المخالفة كون النص مسوقاً للامتنان فإنه إنما قيد بالطري لأنه أحسن من غيره فالامتنان به أتم"[4] .

وكقوله تعالى عن النار: ﴿ وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴾[5] يعني المسافرين وهي أيضاً متاع لغير المقوين من المقيمين وإنما خص المقوين لمزيد حاجتهم إليها

(١) المرجع السابق: جـ ٢ ص ٧١-٧٢. وانظر أسباب نزول القرآن : علي بن أحمد الواحدي ص ١٥٧

(٢) سورة الإسراء: الآية: ٣١.

(٣) سورة النحل: الآية: ١٤.

(٤) أضواء البيان: الشنقيطي ج٣ ص ٢٢٩-٢٣٠.

(٥) سورة الواقعة: من الآية: ٧٣.

من الاستدفاء والاستضاءة وإصلاح الزاد.

وقد تقرر في الأصول أن من موانع اعتبار مفهوم المخالفة كون اللفظ وارداً للإمتنان وبه تعلم أنه لا يعتبر مفهوماً للمقوين لأنه جاء للامتنان أي وهي متاع أيضاً لغير المقوين من الحاضرين بالعمران[1] .

٤- ما ذكرت للمبالغة في التكثير:

وذلك كقوله تعالى مخاطباً نبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾[2] فالقيد بسبعين مرة لا يعني أنه لو زاد على السبعين لغفر الله لهم. ولهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم "إني خيرت فاخترت لو أعلم أني إن زدت على السبعين يغفر له لزدت عليها [3] ، ومع علمه عليه الصلاة والسلام بأنه لن يغفر الله لهم لو زاد على السبعين إلا أنه غلب عليه جانب الرحمة بأمته فقال إني خيرت فاخترت.

فليس الغرض من ذكر السبعين القيد وإنما الغرض بيان أن الاستغفار للكفار والمنافقين لن يفيدهم مهما كثر.

٥- ما كانت جواباً لسؤال:

كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ

(١) المرجع السابق: جـ ٧ ص ٧٩٦.

(٢) سورة التوبة : الآية : ٨٠.

(٣) صحيح البخاري حديث رقم ٤٦٧١ كتاب التفسير باب المؤلفة قلوبهم

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾[1] فمفهوم نفي الجناح الإباحة وجواز الترك وليس وجوب السعي. وقد قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لعروة بن الزبير أرأيت قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾. قال عروة بن الزبير: قلت: فوالله ما على أحد جناح أن لا يطوف بهما، فقالت عائشة: بئسما قلت يا ابن أختي إنها لو كانت على ما أولتها عليه كانت فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما. ولكنها إنما أنزلت أن الأنصار كانوا قبل أن يسلموا كانوا يُهِلُّون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها عند المشلل، وكان من أهلَّ لها يتحرج أن يطوف بالصفا والمروة، فسألوا عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا رسول الله، إنا كنا نتحرج أن نطوف بالصفا والمروة في الجاهلية. فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾. قالت عائشة: ثم قد سن رسول الله صلى الله عليه وسلم الطواف بهما فليس لأحد أن يدع الطواف بهما أخرجاه في الصحيحين[2].

وروى البخاري عن أنس رضي الله عنه أنه سئل: "أكنتم تكرهون السعي بين الصفا والمروة؟ قال: نعم، لأنها كانت من شعائر الجاهلية حتى

(١) سورة البقرة: الآية : ١٥٨.

(٢) تفسير ابن كثير: جـ ١ ص ٢١٢ والحديث رواه البخاري رقم (١٦٤٣) (٤٤٩٥) (٤٨٦١) ورواه مسلم (١٢٧٧).

أنزل الله: ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾[1] .

قال الشعبي: كان إساف على الصفا وكانت نائلة على المروة وكانوا يستلمونها فتحرجوا بعد الإسلام من الطواف بينهما فنزلت هذه الآية[2] .

فنفي الحرج في الآية لنفي الحرج الذي في نفوسهم لمطابقة الحال والجواب للسؤال. ومثل هذا قوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًاۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾[3] . وقوله: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾[4] مع أن الإصلاح بينهم مرغب فيه وإنما المراد لا إثم عليه فيما نقص من حق أحد الجانبين وهو إثم عارض فالجناح المنفي في الطواف بين الصفا والمروة كذلك جناح عرض للسعي بينها وقت نصب إساف ونائلة عليهما وليس لذات السعي فلما زال سببه زال الجناح[5] .

وقال الشنقيطي- رحمه الله تعالى- أن الآية نزلت جواباً لسؤال من ظن أن في السعي بين الصفا والمروة جناحاً وإذاً فذكر رفع الجناح لمطابقة الجواب للسؤال لا لإخراج المفهوم عن حكم المنطوق. فلو سألك سائل مثلاً قائلاً : هل علي جناح في أن أصلي الخمس المكتوبة؟ وقلت له: لا جناح

(١) صحيح البخاري رقم ١٦٤٨.

(٢) تفسير ابن كثير: جـ ١ ص ٢١٢.

(٣) سورة النساء: من الآية: ١٢٨.

(٤) سورة البقرة: من الآية : ١٨٢.

(٥) التحرير والتنوير: ابن عاشور جـ ٢ ص ٦٣.

عليك في ذلك، لم يلزم من ذلك أنك تقول: بأنها غير واجبة، وإنما قلت: لا جناح في ذلك ليطابق جوابك السؤال .. ثم قال: ومعنى ذلك أن المنطوق إذا كان جواباً لسؤال فلا مفهوم مخالفة له لأن المقصود بلفظ المنطوق مطابقة الجواب للسؤال لا إخراج المفهوم عن حكم المنطوق"[1] .

٦- ما كان للمفهوم فيه حكم خاص به. فإن كان له دليل خاص أخذ به ولم يعمل بالقيد أو الصفة الكاشفة :

ويظهر ذلك بالمثال كقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾[2] .

فمفهوم الآية أنه في حالة الأمن لا تقصر الصلاة، والصواب أنه لا يصح الاحتجاج بهذا المفهوم لأن قصر الصلاة في حالة الأمن ورد بنص آخر صريح ومنطوق وهو أقوى من المفهوم في هذه الآية.

ولعل لقوله تعالى: ﴿إِنْ خِفْتُمْ﴾ دلالتان: الأولى معتبرة ويعمل بها وهي أن المراد بالصلاة هنا صلاة الخوف وليس صلاة السفر ودلالة غير معتبرة ولا يعمل بها وهي أن القصر لا يكون في حالة الأمن وهذه الصورة هي المرادة هنا.

ولذا نجد الشيخ الشنقيطي- رحمه الله تعالى- اعتبر قيد الخوف هنا

(١) أضواء البيان: الشنقيطي جـ ٥ ص ٢٤٨.

(٢) سورة النساء: الآية : ١٠١.

حيث قال: "فشرط الخوف في قوله: ﴿ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾ معتبر، أي: وإن لم تخافوا منهم أن يفتنوكم فلا تقصروا من كيفيتها بل صلوها على أكمل الهيئات"[١].

إلا أنه- رحمه الله تعالى- حمل القصر على قصر الكيفية وليس الكمية حيث قال: "ويدل على أن المراد بالقصر في هذه الآية القصر من كيفيتها كما ذكرنا.." ثم ذهب يذكر أدلته على ذلك ومن أدلته قوله "ويؤيده أيضاً أن قصر عددها لا يشترط فيه الخوف.

وقد كان صلى الله عليه وسلم يقصر هو وأصحابه في السفر وهم في غاية الأمن كما وقع في حجة الوداع وغيرها.. وممن قال بأن المراد بالقصر في هذه الآية قصر الكيفية لا الكمية: مجاهد والضحاك والسدي نقله عنهم ابن كثير"[٢].

وقال الزركشي: "والقصر جائز مع أمن السفر، لأن ذلك خرج مخرج الغالب لا الشرط وغالب أسفار رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه لم تخلُ من خوف العدو، ومنهم من جعل الخوف هنا شرطاً إن حمل القصر على ترك الركوع والسجود والنزول عن الدابة والاستقبال ونحوه لا في عدد الركعات لكن ذلك شدة خوف لا خوف، وسبب النزول لا يساعده"[٣].

---

(١) أضواء البيان : الشنقيطي جـ ١ ص ٣٣٨.

(٢) أضواء البيان: الشنقيطي جـ ١ ص ٣٣٨-٣٣٩ – باختصار يسير.

(٣) البرهان في علوم القرآن : الزركشي جـ ٣ ص ٢٨.

وظهر بهذا أن قوله: ﴿إِنْ خِفْتُمْ﴾ لا يعتبر في إلزام المسافر غير الخائف بالإتمام في عدد الركعات. والله أعلم.

٧- ما ذكر على وجه التبعية لشيء آخر:

كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِ﴾(١) إذ من المعلوم أن المعتكف لا يجوز له مباشرة الزوجة خارج المسجد وإنما ذكر المسجد لتبعيته للاعتكاف.

٨- ما ذكر للتنفير:

وقد ترد الصفة الكاشفة للتنفير كقوله تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾(٢) والمؤمن لا يأكل لحم أخيه ميتاً ولا حياً، وإنما ذكر الميت لزيادة التنفير.

وكقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾(٣). قال ابن عاشور – رحمه الله تعالى- في تفسيرها: "فانتصب تبرج الجاهلية الأولى. على المفعول المطلق وهو في معنى الوصف الكاشف أريد به التنفير من التبرج"(٤).

وكقوله تعالى: ﴿لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾(٥) فالربا كله

---

(١) سورة البقرة: من الآية: ١٨٧.

(٢) سورة الحجرات: الآية: ١٢.

(٣) سورة الأحزاب: الآية: ٣٣.

(٤) التحرير والتنوير: ابن عاشور جـ ٢٢ ص ١٢.

(٥) سورة آل عمران: الآية: ١٣٠.

حرام قليله وكثيرة وليس ما كان أضعافاً مضاعفة فحسب ولعل ذكر الأضعاف المضاعفة مع مراعاة التدرج في تحريم الربا لأن في التصريح بالمضاعفة تنفيراً من الصورة لما توحي به من جشع المرابي وطمعه وقسوته والله أعلم.

وهناك أحوال وأنواع أخرى كثيرة تحتاج إلى استقراء للنصوص القرآنية وضرب الأمثلة منها مثل:

١- ما كانت للترغيب أو الترهيب.

٢- وما كانت للتفخيم.

٣- ما كانت لتأكيد الحال.

٤- ما كانت للحث على الامتثال.

٥- ما كانت تقديراً لجهل المخاطب بالمسكوت عنه أي المفهوم.

٦- ما كانت لرفع الخوف.

٧- ما كانت لتعليق الحكم عليها.

٨- ما كان المنطوق محل إشكال في الحكم والمفهوم لا إشكال فيه كقوله تعالى: ﴿ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ﴾(١) وإنما ذكر القاتل الخطأ لاحتمال سلامته وبراءته أما القاتل المتعمد فلا إشكال فيه فنص على ما فيه إشكال لدفع توهم براءته وترك المتعمد لعدم الإشكال في حكمه. وإنما ذكرت مثالا لهذا النوع دون غيره لغموضه والحاجة إلى مثال لفهمه، وغير ذلك من الأنواع والأحوال.

(١) سورة النساء: الآية: ٩٢.

الخاتمة

وختاما فقد كشف هذا البحث على وجازته :

١- أهمية هذا الموضوع والحاجة إليه لتعلقه بدراسة أسلوب من أساليب القرآن الكريم، وكشف وجه من أوجه إعجازه وبلاغته،

٢- لا يزال – حسب علمي- هذا الموضوع بحاجة إلى دراسات مستقلة وبحوث علمية سواء في علم التفسير أو البلاغة أو النحو أو غير ذلك من العلوم.

٣- عرفت الصفة الكاشفة بأنها وصف موجود في الموصوف غالباً ولا يتعلق الحكم به.

٤- للصفة لكاشفة عند العلماء عدة مسميات فمنهم من سماها بالوصف المناسب، أو الوصف الكاشف، ومنهم من يصفها بـ "الأوصاف غير الفعّالة" أو "الأوصاف عديمة الأثر" أو "القيود المهملة" أو "موانع اعتبار مفهوم المخالفة" أو " القيود التي لا اعتبار لها" وغير ذلك وهي أوصاف متعددة ويريدون بها الصفة الكاشفة.

٥- ورد مصطلح الوصف الكاشف ومرادفاته في علوم مختلفة حيث نجده في كتب التفسير. وفي كتب علوم القرآن الكريم في مباحث بلاغة القرآن وأسلـوب التوكيد وفي علم أصول الفقه يبحثه العلماء في المنطوق والمفهوم في مبحث مفهوم المخالفة وشروط العمل به.وفي علم البلاغة تناوله علماؤها في عدة علوم منها كأحوال المسند والتوكيد والتقييد بالشرط وغير ذلك.كما بحثه علماء النحو في باب الشرط وغيره. فضلاً عن

علم الكلام والجدل ومباحث العقيدة.

٦- ذكرت عددا من أنواع الصفة الكاشفة ومنها :

أ- ما خرج مخرج الغالب

ب- ما كانت لبيان الواقع

ت- ما ذكرت للامتنان

ث- ما ذكرت للمبالغة في التكثير

ج- ما كانت جواباً لسؤال

ح- ما كان للمفهوم فيه حكم خاص به. فإن كان له دليل خاص أخذ به ولم يعمل بالقيد أو الصفة الكاشفة

خ- ما ذكر على وجه التبعية لشيء آخر

د- ما ذكر للتنفير

ذ- ما كانت للترغيب أو الترهيب.

ر- وما كانت للتفخيم.

ز- ما كانت لتأكيد الحال. وغير ذلك

٧- موضوع الصفة الكاشفة بحاجة ماسة إلى دراسة أو دراسات وافية تنظيرية واستقرائية في القرآن الكريم تصلح رسائل علمية متعددة.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المصادر والمراجع

١- أسباب نزول القرآن: أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي رواية بدر الدين الأرغياني تحقيق د ماهر الفحل دار الميمان- الرياض الطبعة الأولى ١٤٢٦

٢- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، عالم الكتب- بيروت.

٣- البرهان في علوم القرآن: بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، الطبعة الأولى ١٤٢٥- ٢٠٠٤م بيروت.

٤- التحرير والتنوير: الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، الدار التونسية والدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان.

٥- تفسير أبي السعود محمد بن محمد العمادي إرشاد العقل السليم ، دار المصحف- مصر.

٦- تفسير القرآن العظيم: عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، دار قتيبة- بيروت- دمشق.

٧- التفسير الكبير: الفخر الرازي، الطبعة الثالثة، دار إحياء التراث العربي- بيروت.

٨- جامع البيان عن تأويل آي القرآن: لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري حققه وخرج أحاديثه محمود محمد شاكر، دار المعارف بمصر.

٩- حاشية علي مراقي الفلاح شرح نور الإيضاح: أحمد بن محمد بن

إسماعيل الطحاوي الحنفي، المطبعة الأميرية ببولاق مصر ١٣١٨هـ.

١٠- حواشي الشرواني على تحفة المحتاج بشرح المنهاج: عبد الحميد الشرواني، دار الفكر- بيروت.

١١- دراسات في علوم القرآن الكريم: د. فهد بن عبد الرحمن الرومي، الطبعة الخامسة عشرة ١٤٢٨-٢٠٠٧م الرياض.

١٢- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: للألوسي دار إحياء التراث العربي- بيروت مصورة عن طبعة إدارة الطباعة المنيرية.

١٣- سنن النسائي: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، دار السلام، الرياض، الطبعة الثانية ١٤٢١-٢٠٠٠م.

١٤- سنن ابن ماجه : أبو عبد الله محمد بن يزيد ابن ماجة ، دار السلام، الرياض، الطبعة الثانية ١٤٢١-٢٠٠٠م.

١٥- صحيح البخاري: محمد بن إسماعيل البخاري دار السلام- الرياض، الطبعة الثانية ١٤٢١-٢٠٠٠م.

١٦- صحيح مسلم: لأبي الحسن مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، دار السلام، الرياض، الطبعة الثانية ١٤٢١-٢٠٠٠م.

١٧- صحيح سنن ابن ماجة : محمد ناصر الدين الألباني مكتب التربية العربي لدول الخليج الطبعة الثانية ١٤٠٨ – ١٩٨٧ م.

١٨- الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية: سليمان

العجيلي الشهير بالجمل- دار الفكر- بيروت الطبعة الأولى ١٤٢٣-٢٠٠٣م.

١٩- الفواكه الدواني: أحمد بن غنيم بن مهنا النفراوي، شرح رسالة بن أبي زيد القيرواني. دار المعرفة –بيروت.

٢٠- الكليات: أبو البقاء أيوب بن موسى الكفوي، مؤسسة الرسالة- بيروت ١٤١٩-١٩٩٨م تحقيق عدنان درويش ومحمد المصري.

Contents

❊❊❊

Terms and Conditions for Publication

in Tebian Journal for Quranic Studies

- It should be original and follows the principles of Ahl Assunah wal Jama'ah .
- It should be accurate in documentation and Takhrij (Jurisprudential Citation).
- It should be written in correct language.
- It should punctuated correctly.
- It should not have been published elsewhere.
- It should not be extracted from other research or dissertation for which the researcher has received a degree.
- Footnotes should be placed and numbered at the bottom of each page separately, and be set up automatically, not manually.
- Punctuation is part of the word, so no space should be left before it.
- Basic information about the research has to be written in both Arabic and English, and it has to include the following: research title; researcher's full name; what he/she is and place of work; and how to contact him/her.
- Arabic and English abstracts have to include the following: research topic, objectives and methodology; the most important results; and the most important recommendations. Each abstract must not exceed 250 words, and it has to be very well written.
- The abstract is to be followed by a list of keywords (Arabic/English), which must not be more than six, summarizing the research fields. The key words are used for indexing
- Indent the beginning of each paragraph. Indentation should not exceed 1 cm.
- Line spacing should be multiple 0.9.

- Researches in Arabic must be typed in Traditional Arabic as follows: font 18 for text, non-bold for text, but bold for titles; font 14, non-bold for footnotes and abstract; and font 12, non-bold for tables and figures, but bold for table headings and comments.
- Researches in English must be typed in Times New Roman as follows: font 11, non-bold for text, but bold for titles; font 10, non-bold for footnotes and abstract; and font 8, non-bold for tables and figures, but bold for table headings and comments.
- The paper is to end with a conclusion, summing up the most important findings and recommendations
- Sources and references should be written in an attached bibliography at the end of the research.
- Samples of the photocopies of the attached manuscript should be placed where appropriate.
- All photocopies and figures related to the research should be clearly attached.
- The research should be no more than Eighty pages (A4) and no less than twenty pages.
- The top, bottom and left page margins should be 2.5 cm and the right 3.5 cm.
- The Qur'anic verses should be written according to the electronic copy of the Holy Qur'an of King Fahd Glorious Quran Printing Complex in a 15 point non-bold font.
- The researcher should attach Arabic and English abstracts of no more than one page each, approved by King Abdullah Institute for Translation and Arabization at Al-Imam University in Riyadh (Trans-tai@imamu-edu-sa.).
- At least two referees should approve of the research papers and studies submitted for publication in the journal.
- Revised research papers should be forwarded to the journal’s e-mail.

- Research papers and studies will not be returned to the researchers, whether accepted for publication or refuted..
- The journal has the right to publish the research on the Association website or other means of electronic publication after being approved for publication.
- The correspondence should be via the journal's e-mail.
- The author of the research will be given two copies of the journal and five copies of his research.

All correspondence and subscription requests to be addressed to

The editor-in-chief of the Editorial Board

Kingdom of Saudi Arabia – Riyadh
B. O. Box: 5701 Riyadh: 11432
Phone: 2582705, Fax: 2582695
E-mail:
quranmag@gmail.com
Facebook: www.facebook.com/Quranmag
Twitter: https://twitter.com/quranmag1
Association Address:
B. O. Box: 5701 – Riyadh – 11432, Phone: 2582695 – 0546667141
Association website:
www.alquran.org.sa

❉ ❉ ❉

Tebian Journal for Quranic Studies